تاريخ الأدب العربي

في

العصر العباسي

بقلم

السباعي السباعي بيومي

أستاذ الأدب بدار العلوم العليا

حق الطبع للمؤلف

١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م

مطبعة العلوم

بشارع الخليج - جنينة لاظ



في

العصر العباسي

بقلم

السباعي السباعي بيومي

أستاذ الأدب بدار العلوم العليا

حق الطبع للمؤلف

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

مطبعة العلوم

بشارع الخليج - جنينة لاظ

بسم الله الرحمن الرحيم

العصر العباسى

١٣٢ — ٦٥٦ هـ

تصوير عام

للحال السياسية فى هذا العصر الطويل

دالت الدولة الأموية وآلت إلى العباسيين والعرب فريقان فريق يحن إلى الدولة الدائلة ويود أن لو عاد الزمن بها على الأعقاب وآخر يرى أن مافعله العباسيون من استئثارهم بالخلافة على أبناء عمهم العلويين ذوى الحق الأصيل افتراء وطغيان[1] فكان من الطبيعى حينئذ أن يولوا وجهة الدولة الجديدة عن العرب إلى غيرهم فى تثبيت قواعدها وتصريف شئونها ولم يك هناك غير سوى الفرس وإن كانوا فى عقيدتهم علويين،

(١) يزعم العباسيون أنهم أحق بالخلافة من أبناء على لأنهم فوق وراثتهم للعباس «وإرث النبى فى عمومته دون أبناء على من فاطمة ومن غير فاطمة بالأولى» قد تنازل لهم عن حقهم فى الخلافة هؤلاء الأبناء ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن على بن أبى طالب نزل مقيما بقرية الحميمة بالشراة من الشام لدى على بن عبد الله ابن العباس وحين دنت وفاته عنده تنازل له عن هذا الحق الذى آل بعد على إلى ابنه محمد فأقام الدعاة وجعل عليهم النقباء وسرحهم إلى خراسان . ولكن العلويين ينكرون هذا التنازل ومن اعتد به منهم يجعله حجة على أبناء على من محمد بن الحنفية دون أبنائه من فاطمة البتول .

ذلك لأنهم انساقوا فى تيار السلطان الجديد ولو إلى حين وبهذا تبدلت الدولة من عربية محضة إلى عربية يشوبها سلطان الفرس مع سلطان الخلفاء ثم كان أن أسست عاصمتها الجديدة بغداد فى أحضان الفرس فكان ثم زيادة فى التجاور واختلاط ولكن سلطان الفرس على ماصار له من نفوذ لم يقو أن يتغلب فى القرن الأول على سلطان الخلفاء لقوة شخصيتهم وفتوة دولتهم والتاريخ لايزال يحدثنا بما كان من فتك المنصور بأبى مسلم وفتك الرشيد بالبرامكة احتفاظا للخلافة بالنفوذ ولذا عرف هذا القرن الأول بعصر سيادة الدولة واكتمال السلطان. غير أنه حدث فى آخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم بن المأمون أن عمد بحكم فتوته وقوة بدنه وانسياقه لاشباع هذا النهم الجسمى بأعمال الرياضة والفروسية إلى عدد من الأتراك الخدم جعلهم فى هذا النوع من اللهو مخالطيه ومعاونيه وانساق فى سبيل الاستكثار منهم حتى بلغوا كما قال المؤرخون السبعين ألفا وصار لهم فى بغداد شغب واعتداء جأر له أهلوها بالشكوى منهم والاشمئزاز وكأنه قد وجد بغداد لما فيها من جد الأمر ومهام الشئون ملهية له ولهؤلاء أن ينساقوا فى هذه السبيل الرياضية إلى حيث يريدون فهجرها بهم إلى مدينة أسسها لهذا الضرب من المجون هى مدينة « سر من رأى » أو كما قد يقولون « سامراء » فابتعد بهذا أن يلى أمور الدولة عن كثب كما ينبغى أن يكون وبدأ نفوذ الخليفة يتراجع فيها إلى الوراء بقدر ماعظم نفوذ الفرس المرحبين بهذا الانصراف ولكن الطبيعة قضت أن يستفيد أولئكم الخدم الأتراك بحكم اقترابهم من الخليفة جاها ونفوذا وماهو إلا

أن عملوا على مشاركة الفرس فى النفوذ ثم ماهو إلا أن استلبوه منهم واستبدوا به عليهم ولقد زاد من نفوذ هؤلاء بقدر ماأضعف من نفوذ الفرس مجىء المتوكل على الله سنيا متشددا وايغاله فى حرب الشيعة الذين كان المأمون على مذهبهم وجاء من بعده غير معارض لهم ابنه المعتصم وحفيده الواثق والفرس كما علمت متشيعيون مغرقون تخلت للمتوكل وان شئت قل للخدم الأتراك السلطة فى بغداد واعتبر هذا عصرا ثانيا هو عصر الخدم أو العصر التركى الأول وجعل مبدؤه تولى المتوكل على الله سنة ٢٣٢ .

لم يقف هؤلاء الخدم طوال القرن الثانى من الدولة فى الاستبداد بأمورها عند حد فتناول طغيانهم أكثر ماتناول أشخاص الخلفاء وأول ماحدث من فظائعهم حدث المتوكل على الله فانهم جردوه من كل سلطة وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتداده فى محاربة التشيع، وإذ حاول الابقاء على شىء من هيبة الخلافة تآمروا مع ابنه المنتصر على قتله وقتلوه فكان هذا فتحا لطريق جديدة فى التخلص من الخلفاء، وتوالت بعد هذا الحدث أحداث فى التعذيب والتقتيل والمعذبون المقتلون بمعزل عن المعين والنصير (١) حتى فقدت بغداد مكانتها وانصرف الناس عنها بعد انصرافهم اليها وحدثت الأمراء والولاة نفوسهم أن يستبدوا على الخلافة بما فى أيديهم من أرضين فأخذ النفوذ يتقلص عن بغداد إلى الاقاليم حتى أقفرت من كل خير وصلاح وزخرت بكل مافى الطوق

(١) قتلوا المعتز بجره من رجله خارج الدار وضربه الضرب المفضى إلى الموت بعد ايقافه فى الشمس يضع رجلا ويرفع أخرى من شدة الحر

من شر وفساد وحمل خوف الخلفاء من أولياء العهود وخوف أولياء العهود من الخلفاء أن يستكثر كل فريق من أولئك الخدم ليكونوا عليه حراسا وله جواسيس وفعلا كان حتى عجت بغداد بجيوشهم وصار من استعان بهم ألعوبة فى أيديهم (١) وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن ضعف للدولة وفتور أعقب قرنها السالف قرن الفتوة والسلطان وما زالت الحال على هذا النسق من البوار حتى طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم وهى دولة آل بويه فى تخليص بغداد فخلصتها منهم أيام المستكفى بالله سنة ٣٣٤ وبدأ بذلك عصر عباسى ثالث هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات

مهد العصر العباسى الثانى وهو عصر الضعف والاستسلام لتفكك أوصال الخلافة واستبداد ذوى النفوذ فى الأقاليم فلم يكد ينتصف قرنه حتى بدت بوادر الانسلاخ عن الدولة على أيدى عدد من الأسر المختلفة الأجناس وإن بقى معظمها لا كلها يدين بالمظهر الدينى لخلفاء بني العباس. فمن الأسر الفارسية

السامانيون فيما وراء النهر من سنة ٢٦١ — ٣٨٩ هـ

والبويهيون بفارس والعراق من سنة ٣٢٠ — ٤٤٧ هـ

ومن التركية

(١) يؤيد ذلك ما رواه الفخرى عنهم من أنه لما تولى المعتز أحضروا المنجمين وقالوا لهم انظروا كم يبقى الخليفة فى الخلافة وكم يعيش وكان فى المجلس أحد الظرفاء فقال أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته قالوا فكم تقول فقال « ما أراد الاتراك » فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك

الاخشيديون بمصر من سنة ٣٢٣ — ٣٥٧ هـ

والغزنويون بافغانستان والهند من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ

ومن العربية

الحمدانيون بالشام من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ

والفاطميون بمصر من سنة ٣٥٧ — ٥٦٧ هـ

وقد شاء تغلب القوى على الضعيف أن ينمحى معظم الدويلات ماذكرنا ومالم نذكرعلى أيدى ثلاث منها تحولن إلى دولات هن الغزنوية وقد تغلبت على السامانية وغيرها فى تلك الأصقاع ،والفاطمية وقد تغلبت على الحمدانية بعد أخذها مصر من الأخشيديين، ثم البويهية وقد تغلبت على بغداد سنة ٣٣٤ فاعتبر هذا بدء العصر العباسى الثالث كما ذكرنا[١] وفيه خضع المسلمون لنفوذ الأتراك شرقا والعرب غربا

(١) جد البويهين الأقرب بويه أبو شجاع ويرجع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ويعرفون بالديلم لسكناهم البلاد المعروفة بهذا الاسم من قديم وقد أنجب بويه هذا فى ثلاثة أنجاد هم على وحسن وأحمد نبغوا فى الفروسية وأعمال الجيوش وتقدموا إلى الدولة باقطاعهم الأرضين أيام الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ فكان على فى فارس وحسن بخوارزم وأحمد بشيراز ثم اتفقوا ثلاثتهم على تخليص بغداد من أيدى الاتراك فساروا اليها ودخلوها أيام المستكفى بالله فرحب بهم ولقب عليا عماد الدولة وحسنا ركن الدولة وأحمد معز الدولة ثم كان أن بقى معز الدولة ببغداد بلقب أمير الأمراء واستمر هذا اللقب للقائم منهم بعده فى بغداد الى أن جاء عضد الدولة فأخذ لقب الملك وكذلك كان من بعده بها إلى أن أخذها السلاجقة الأتراك .

والفرس وسطا وبقى ذلك قرنا وبعض القرن حيث دخل السلاجقة الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ فبدأ العصر العباسى الأخير

لم تكد الدولة البويهية والفاطمية والغزنوية تتم القرن الأول من حكمها حتى تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هى الدولة السلجوقية التى أنشأها رجلها الأول سلجوق بن يكباك بالتركستان سنة ٤٢٩ ولما شاهد ضعف آل بويه فى بغداد طمع فى اكتساح المملكة الاسلامية وتقرب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح بأن أسلم هو وأسرته ورجاله ثم تقدم إلى الغرب زاحفا حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ فكان هذا إيذان العصر العباسى الأخير الذى مكث أكثر من قرنين إذ بقوا بها إلى حيث أخذها التتار منهم وقتلوا المستنصر بالله آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦

ومن جسام الأحداث التاريخية فى هذا العصر اختلاط الغربيين بالمشارقة لقيام الحروب الصليبية وانتهائها بتأسيس عدة إمارات بسورية وفلسطين مكثت نحو قرن من الزمان ثم تدفق عرب الأندلس إلى المغرب والمشرق بما تتابع وقوعه عليهم من اضطهاد وتعذيب. تلك هى الحال السياسية العامة للعصر العباسى ومنها ترى أنه أربعة عصور لا يستحق هذه النسبة منها إلا العصر الأول عصر نفوذ الخلفاء وهذا هو الطابع العام لكل عصر فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم وما إلى الآداب والعلوم.

طابع كل عصر وأثره العام

فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

لقد كان لتلون العصر العباسى بتلك الألوان السياسية التى حولته أربعة عصور الأثر الظاهر فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

« العصر الأول »

فنى العصر الأول عصر قوة الخلافة وسلطان بغداد كان الخلفاء مصدر أدب وعلم كما كانوا مصدر سياسة ونفوذ

فهم أهل كفاح وجلاد فى تثبيت سلطان الدولة الجديد تلمحه فى إشراع الرماح وإشهار السيوف وتسمعه فى الخطب تقذف الحمم وتطير الشرر وتقرؤه فيما يصدرون من رسائل دامغة الحجة مفحمة البرهان ولذا كان عصر خطابة وكتابة وكان رجاله كتابا وخطباء

وهم أهل حذق للأدب ومعرفة باللغة بفنونه يروون الشعر وينقدونه ويستمعون للشعراء ويجزلون لهم العطاء ويؤرثون بينهم نار التنافس والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضول ولهذا تزاحمت على أبوابهم الشعراء من عامة الأقطار فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد وجاد.

ثم هم أهل علم يخالطون العلماء مخالطة حوار ونقاش عارفين لقيمهم حافظين لمكاناتهم حافزين لهم مشجعين إياهم على مد الدولة الجديدة بما تتطلبه حضارتها من علوم وفنون منذ عهد خليفتهم الثانى أبى جعفر المنصور ذلكم العيلم الخضم الذى لم يأل جهدا فى وضع الأساس لنشأة العلوم المختلفة من شرعية ولسانية وفلسفية وقفاه من بعده خلفاؤه الأقربون وناهيك بالرشيد والمأمون حتى عد هذا العصر عن جدارة

واستحقاق عصر النشأة العلمية فى متنوع العلوم والفنون، وإنه لعجب عاجب تمكن العرب فيه أن ينقلوا إلى لغتهم جل علوم الفرس واليونان والهنود بفضل ما لخلفائه من تنشيط حركة الترجمة وإغداق العطايا على النقلة والمترجمين (١)

ومما يعد مظهرا جديدا فى هذا العصر ماصار للموالى فيه من رفعة شأن ومعرفة قدر بحكم مالهم من فضل تأسيس الدولة ومعاونة خلفائها فى النهوض بها بعد الذى كانوا يلاقونه على العهد الأموى من جفوة واحتقار بل تعذيب واضطهاد (٢) فصاروا ينفسون عن أنفسهم

(١) كان المنصور من أحسن رواة الحديث وكان ذا ذوق فى الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق ثم كانت له دفاتر علم اشتد حرصه عليها حتى أوصى عند وفاته ابنه المهدى بها

وكان الرشيد أكثر رغبة فى العلم من سابقيه كما كان حفاظا للشعر نقادا للشعراء. وكلاهما كان ذا فضل على الترجمة ، الأول من حيث الابتداع والايجاد والثانى من حيث التنشيط والتشجيع

أما المأمون ففضله على الترجمة وإحياء العلوم قد غطى على فضل الجميع وان كان فى الناحية الأدبية أقل من أبيه

(٢) حوادث الأمويين فى عدم التسوية بين الموالى والعرب بالرغم من تمتعهم بها فى صدر الاسلام كثيرة. منها أنهم كانوا يمنعون زواج المسلم منهم بالعربية ويطلقونها عليه إن فعل ويجلدونه. روى الأغانى أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب سليم وتزوجها فركب محمد بن بشير الى والى المدينة يومئذ ابراهيم بن هشام فشكا اليه فأرسل الى المولى ففرق بينه وبين زوجه وضربه مائتى سوط وحلق لحيته وحاجبيه وفى ذلك يقول ابن بشير

ويجهرون إزاء العرب بمآثرهم وقابل العرب ذلك منهم بالانكار والجحود ثم طالت الملاحاة بين الفريقين حتى عان أمر الشعوبية وعظم شأنها كل ذلك والخلفاء يتواصون بالموالى ويطالبون لهم من أبنائهم وذوى قرباهم مثل ما كان يطالب الخلفاء الراشدون للأنصار فكان من ذلك أن استفادوا وأفادوا فى نهضة هذا العصر والسير به قدما إلى الأمام

نعم إن اطلاق حرية البحث لهم فى التشيع منذ عهد المأمون الذى كان شيعيا والذى أباح لنفسه عن غير تقزز أن يكون أحمد بن أبى دواد وزيره معتزليا ويحيى بن أكثم وزيره أيضا سنيا جعلهم يرسلون الفكر فى البحث الديني من غير عنان حتى تعددت البدع الدينية وانتشرت الزندقة والالحاد وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين فأباحوا مالم يكن مباحا ومدحوا ما كان قبل ذميما وشاع تسرى الجوارى ثم أعقبه تسرى الغلمان فزينوا وحجبوا كما كانت تزين وتحجب النساء غير أن هذا الضرب من المجون واللهو كان مغلوبا على أمره إزاء جد الدولة وعلو شأنها كما هو الشأن الآن فى عواصم دول القوة والسلطان.

وفى المائتين للمولى نكال   وفى سلب الحواجب والخدود

ومنها خطبة المولاة الى مولاها دون أبيها الذى لاينكر ذلك ولا يتأذى منه

وحوادث الحجاج فى إيذاء الموالى جاوزت كل حد وفاقت كل معقول فقد كان يسمهم بالوشم ويحصرهم فى دوائر لايتعدونها ويأمر ألا يؤم بالكوفة منهم أحد فلا يغير عليه الخليفة من ذلك شيئا

العصر الثانى

وفى العصر العباسى الثانى أخذ كل ماذكرنا يتراجع الى الوراء لأن منشأ تقدمه كما رأيت كان قوة الخلفاء وأنهم علماء أدباء وأن أولياء عهودهم وأعيان دولتهم كانوا لهم فى ذلك محاكين وبهم مقتدين أما إذ احتبس الخلفاء وأولياء العهود فى القصور بعيدين عن مهام الدولة ومخالطة الشعب وأصبح الخدم أعيانا لاعهد لهم بالعلم والأدب وحتى عهدهم بمعرفة العربية البسيطة جد قريب فقد انغمس أولئكم فيما تعج به القصور من أسباب اللهو ومتع الحياة فكان لهوهم مع السرارى المختلفات والقيان المغنيات مع مايحف بهن من غلمان وخصيان وماعدا جدهم مخالطة الخدم الأخصاء فغلب عليهم اللهو والترف وانطلق هؤلاء المصرفون لأمور الدولة فى تصريف أمورها انطلاقا بعد بهم بعامل تكوينهم عن الناحية الأدبية العلمية وكان فى الناحية السياسية عاجزا فى الأقاليم وفاسدا فى بغداد ومن أجل ذلك وقفت الدماء التى كانت جارية متدفقة فى شرايين الدولة بكل أسباب الحياة وتبدلت من حمرتها زرقة سامة قاتلة أو صفرة ناحلة مضعفة فأخذ العلم يهجر بغداد برحلة رجاله عنها بعد أن طال بهم انتظار الخيرة فيها وأخذ الشعراء يبحثون لهم عن مرتزق غيرها ولكن أنى تعود الحركة العلمية إلى دورتها أو يجد الشعراء من يعطى وان طلبوا قبل فترة من الزمن يظهر فيها الكساد والبوار وتستعد خلالها حواضر جديدة لحمل العلم الذى كان بأيدى بغداد وإذن فليكن العصر الثانى عصر الضعف والخمول والضعة والانحطاط تموت فيه الخطابة ويضعف الشعر وتقف الحركة العلمية عن الدوران

ولا يبقى فيه من المظاهر السالفة إلا الكتابة بحكم حاجة الملك والسلطان، وقد منى فوق ذلك كله بما قيد الأفكار واحتبس الأنفاس عما كانت قد سبحت فيه من بحث حر طليق فقد جاء المتوكل أول ماجاء ضاغطا على الشيعة محاربا للتفكير بعكس ما كانت عليه حالها منذ أيام المأمون من انطلاق فقل النبوغ النفسى بقدر ما ضعفت آلة الكلام ثم وقف تيار الفلسفة بقلة النبوغ وظهر بهذا الضعف الخروج بمعانى الألفاظ عما حددت اللغة من معان وعز على رجال اللغة أن يقفوا إزاء ذلك جامدين فأخذوا يضعون المقالات أو الكتب منتقدين ماحدث من خروج ومحاولين إرجاعه إلى مايريدون من إصلاح (١) وكذلك قام رجال الأدب إزاء الكتابة والشعر جميعا (٢) على أنه مما ينبغى أن يدون حسنة لهذا العصر قبل انتهاء الكلام فيه اطراد التقدم فى الخط العربى حتى استقر على القاعدة التى بين أيدينا الآن وضعها وضبطها ابن مقلة الخطاط الشهير المتوفى سنة ٣٢٨ هـ .

العصر الثالث

ظهرت النشأة الأولى للعلوم الاسلامية فى العهد الأموى بالبصرة والكوفة ولكنها لم تكد تؤتى أكلها بالتأليف والتدوين حتى سقطت الدولة الأموية وتأسست العباسية متخذة بغداد عاصمتها بل عاصمة

---

(١) من آيات ذلك فصيح ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ فقد اختار فيه الفصيح من كلام العرب ليعتصم به الناس عما ساد كلامهم من أخطاء .

(٢) من ذلك فى الكتابة أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ . ومنه فى الشعر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ .

العالم الاسلامى كله فاتجهت نحوها الأنظار من مختلف الأقطار وتحول إليها كل شيء من آداب وعلوم وفنون حتى كانت فى العصر العباسى الأول على ماقدمنا من إزدهار، ثم أصابها فتور وكساد فى العصر الثانى خضوعا لما ذكرنا من أسباب، غير أن ذلك الفتور لم يكد يقضى على ما كان من نبوغ فى العصر الأول حتى تأسست الدويلات فى العصر الثالث الذى نحن بصدد الكلام فيه الآن وهو إن قضى فيما مضى على بغداد نفسها فقد خلق نفوذ الدويلات عدة حواضر وصلت ما كان قد انقطع حتى أصبحت كل منها بغداد يؤمها الأدباء والشعراء ويقيم فيها العلماء والمؤلفون على أن آل بويه إذ دخلوا بغداد أعادوا لها سابق مجدها وعزها وسالف حضارتها وسلطانها ولكن لا على أن تكون منفردة كما كانت بل على أنها حاضرة من حاضرات نعم إن مركز الخلافة بقى لها وحدها دون الدويلات ولكن بعضها رفض هذا الخضوع كآل مروان بالأندلس منذ عهد الناصر وكالفاطميين منذ أن كان لهم وجود، ومن دان بهذا المركز لم يعد فى ذلك الناحية الدينية البحتة أما الدنيوية فقد كان فيها تام النفوذ مطلق السلطان. ولعل هذا الانفصال بحاليه بين بغداد وحواضر الدويلات كان عاملا فعالا فى اشتداد التنافس بين رجالها وفى حفز الهمم الى أن تسود كل صواحباتها فيما كان لبغداد وحدها منذ القديم فقويت الحركة العلمية بعامل التنافس والتشجيع وعلا نجم الأدب وراجت سوق الفنون كما قويت بعامل آخر هو علم ملوك الدويلات وأمرائها ومن اختلط بهم فى سياستها من ساداتها وعيونها فهذان عاملان قويان فوق العامل الأساسى

الطبيعى عامل النشوء والارتقاء

وإلى القارىء فى ذلك بضع شواهد وآيات عن آل بويه والغزنويين والفاطميين الذين آل اليهم حكم العالم الاسلامى إذ ذاك .

كان آل بويه علماء أدباء وكثير منهم شعراء يحبون العلم والأدب ويحثون رجالهما على التصنيف والتأليف ويفتحون أبوابهم للشعراء ويغمرونهم بالعطايا والصلات. وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستكتبون كما لا يولون ولا يستقضون إلا خيرة العلماء ونوابغ الكتاب فمعز الدولة استوزر الحسن المهلبي الأديب الشاعر، وركن الدولة استوزر ابن العميد الغني عن التعريف، ومؤيد الدولة ابنه استوزر الصاحب بن عباد وكذلك استوزره فخر الدولة أخوه. وكان عز الدولة بن معز ها شاعرا وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة كأبيه وكذا أبو العباس بن ركن الدولة[1] ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغا فى عدة فنون

---

(١) من شعر عز الدولة وكان أكثره فى الشرب والشراب قوله

اشرب على قطر السماء القاطر في صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكاسها درا نثيرا بين نظم جواهر
من كف أغيد يستبيك اذا مشى بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء مابين الغضون مصفق مثل القيان رقصن حول الزامر

ومن شعر تاج الدولة وهو أدب آل بويه وقد نكب بالحبس من جهة أخيه أبى الفوارس قوله

هب الدهر أرضانى وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى من الحبس والأسر
فمن لى بأيام الشباب التى مضت ومن لى بما أنفقت فى الحبس من عمرى

يستحث العلماء على التأليف ويغمرهم بالأموال ويقصده فحول الشعراء (١) ولا يكاد مجلسه يخلو من مباحثات ومباسطات فى العلم والأدب كما كان شغوفا بجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده عارفا لأساليب الكتابة ذا افتنان فى إنشائها (٢) فهو فى هذه النهضة

ومن شعر أبيه عضد الدولة قوله فى خارج أرسل يطلب الامان بعد أن ضيق عليه

أأفاق حين وطئت ضيق خناقه يبغى الامان وكان يبغى صارما
فلأركبن عزيمة عضدية تاجية تدع الأنوف رواغما

ومن شعر أبى العباس مبدعا

أدر الكأس علينا أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل شمس فى فم الندمان تغرب
ضحكت حين تجلت قمرا يلثم كوكب
ورد خديه جنى لكن الناطور عقرب
فاذا مالدغت فالريق درياق مجرب

(١) ألف له أبو على الفارسى كتاب الايضاح والتكملة فى النحو، وأبو اسحق الصابى كتاب التاجى فى أخبار آل بويه ، ورحل اليه المتنبي رحلات ملأت فم الزمان

(٢) من شغفه بالشعر تمنيه أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة الأنبارى التى مطلعها

علو فى الحياة وفى الممات لحق تلك إحدى المعجزات

ومن تفننه فى الكتابة ماكتب به الى أفتكين التركى صاحب دمشق وقد غره أخذه الشام من حكومة مصر وطلب منه المدد لمحاربتها نفسها فكتب إليه هذه الرسالة المتحدة الكلمات لولا النقط والشكل وهى « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا ».

أشهر ملوك آل بويه كما كان أشهر وزرائهم فيها الصاحب بن عباد المذكور فقد كان عالما كاتبا شاعرا يقيم عنده العشرات من رجال العلم والأدب ويقصده منهم ومن الشعراء المئات فيكرم إقامة أولئك ويحسن وفادة هؤلاء .

ولم يأل الغزنويون جهدا فى نصرة العلوم والآداب وان كانوا أحدث فيها عهدا من آل بويه مع اشتغالهم شرقا بالغزو والفتوح فقد كان مجلس سلطانهم محمود آهلا بالشعراء والأدباء والعلماء، وهو الذى اقترح على الفردوسى إتمام الشاهنامه التى بدأ نظمها الدقيق باقتراح نوح بن منصور السامانى، وكان لا يسمع بشهرة أحد من هؤلاء إلا عمل على استدعائه اليه. يدل على ذلك كتابه إلى أمير خوارزم مأمون بن مأمون وفيه يقول « علمت أن فى مجلسك جماعة من العلماء المبرزين فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسى ونستفيد من علمهم » وقد تلاه عليهم مأمون فقبل بعض وامتنع بعض . غير أن هذه النصرة لم تك ذات بال بجانب نصرة آل بويه لما قدمنا من حداثة عهد رجالها بآداب العربية وعلومها واشتغالهم عنها بما دأبوا فيه من غزو وجهاد

وقد نشط الفاطميون العلم وأهله ونافست قاهرتهم بغداد منافسة خلافة وملك لا منافسة ملك فحسب، ثم كانوا جديرين أن يفوزوا بالفوق والغلب لأنهم عرب أبناء عرب وذوو الغلب على بغداد فى أيامهم سلاجقة أتراك ، وبدا هذا التنشيط كثير الصور قوى العناصر أيام المعز والعزيز والحاكم، فقام المعز بانشاء الأزهر المعمور وأسس العزيز

دار كتب فى قصره سماها خزانة الكتب أو خزانة العزيز واستكثر فيها من المؤلفات ، واقتدى به فى إنشاء خزائن الكتب بالقصور جماعة من أهله . ثم جاء الحاكم فانشأ دار الحكمة وتسمى دار العلم أيضا بجوار قصره الغربى وحمل اليها جميع أنواع الكتب وبالغ فى فرشها وزخرفتها ووقف عليها أملاكا تنفق من غلتها وأقام مشرفين ينظمون طريق الانتفاع بها وأباح المناظرة بين المترددين عليها وسهل للنقلة منها سبيل النقل بما أعد فيها من أقلام ومحابر وأوراق. ولم يك اشتغال الفاطميين بالعلم وتشجيعهم على إنهاضه قاصرا على علوم الدين واللسان فقد خدموا علوما كثيرة أخرى كالتاريخ والفلسفة والهندسة والنجامة ، وبقى رصدهم الحاكى على جبل المقطم عمدة الراصدين حتى بني الطوسى مرصده بمراغة تركستان سنة ٦٥٧. ثم كانت مجالس الأدب ذات ازدهار فى حضرات الخلفاء وأمراء أسرتهم ورجالات دولتهم وكانت كثرتهم أدباء شعراء تبصر جيد القول وتجزل عليه العطاء

ولم يعدم العلم والأدب نصيرا من الدويلات الكثيرة التى قامت ردحا مع هذه الدولات الثلاث. فاشتهر من أمراء السامانيين بذلك فى بخارى كثير، منهم منصور بن نوح ثم ابنه نوح بن منصور الذى كتب إلى الصاحب بن عباد يستدعيه اليه سرا حتى يفوض اليه وزراته والذى جمع مكتبة حوت المؤلفات الكثيرة فى كل فن . وآل حمدان بحلب والموصل أشهر من أن يخاض فى نصرتهم للعلم والأدب وهم الأدباء الشعراء ، وان فى أخبار سيف الدولة مع الأدباء والشعراء لغنية وبلاغا فقد قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه

من شيوخ الأدب ورجال الشعر يلقون منه حوارا ويشهدون نقدا ثم ينقلبون راجعين بشتى الجوائز وعظيم الهبات. وهناك غيره وان لم يبلغوا شأوه من آل حمدان كثير . ولو استد الزمن بالاخشيديين أكثر من ثلث القرن الذى كان لهم لوجدناهم كتلك الامارات فى تقريب رجال العلم ونصرة الآداب على أن أبا المسك كافورا الذى نشأ مع هذه الأمارة عبداً لأول أمرائها ثم ارتقى بعقله وشجاعته حتى صار من كبار قوادها ثم ارتقى فوق ذلك حتى ولى اماراتها ولم يمت إلا قبيل سقوطها قد ترك لنا فى سيرته إكرامه العلم والعلماء وامتداح المتنبى شاعر العربية إذ ذاك اياه. وفى هذين إثبات لما أردناه

بهذا التشجيع المصحوب بالتنافس الشديد للعلماء والأدباء فى المشرق والمغرب الأقصيين وبمثله فى كل ماذكرنا بالأندلس من الغرب زخرت بحار التأليف واطرد تيارها حتى نمت العلوم وتم نضجها فتكونت المعاجم اللغوية واستوت الفلسفة واستقرت قواعد الطبيعيات والطب وانتهى الانشاء الكلامى إلى أسلوب أصبح قاعدة وظهرت الروايات والقصص واتسع خيال الشعراء وعمق فكرهم وتفرع التاريخ وانبسط تقويم البلدان واتسعت أبواب النقد الأدبى، وحسب هذه السعة العلمية بيانا أن زادت فروع العلوم إذ ذاك لدى محصيها على ثلثمائة كما قسمتها كتب الاحصاء وكانت من بينها علوم لم يصل اليها التمدين الحديث إلا فى القرن الماضى أى بعد نحو ألف سنة من تاريخ كتابة العرب فيها كعلوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران (١) فلا عجب أن

---

(١) فمن كتب تدبير المنزل كتب ذكرها ابن النديم لابرهيم بن المهدى

عرف هذا العصر بعصر نضج العلوم وقد أعقب هذا النضج وكثرة التأليف إنشاء المكاتب العامة وانتشارها فعرف بعصر المكتب أيضا ولنا أن نسميه فوق ذلك عصر المذهب الشيعي لأن آل بويه شيعيون وأشد منهم تشيعا الفاطميون أما الغزنويون فلم يكونوا فيه قد جاوزوا النظرة العامة للدين إلى نظرة تجعلهم شيعيين أو سنيين كما لنا أن نسميه أيضا عصر توطن الآداب والعلوم ومن ثم بدت فيه نسبة رجالها الى مدنهما كالبخاري والنيسابوري والرازي وهكذا بعد أن كانت النسبة قبله الى الأصول كالحميري والمازني أو إلى الصنائع كالزجاج والنحاس .

العصر الرابع

جاء هذا العصر وقد تغير النظام السياسي فى أرجاء المملكة الاسلامية فحكمها السلاجقة فى الشرق بعد البويهيين والغزنويين، والأيوبيون فى مصر والشام والمغرب بعد الفاطميين ثم انحلت دولة آل مروان بالأندلس إلى ملوك الطوائف المختلفين فكان أن حدث فى كل من

ولابراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم وغيرهم ولكنها ضاعت . وقد ألف فى السياسة على إجمالها أبو زيد البلخى وفى المدنية منها الفارابى، وللطرطوشى فيها سراج الملوك . ومن كتب الاقتصاد كتاب الاشارة إلى محاسن التجارة لأبى الفضل بن على الدمشقى وكثير غيره ضاع .

ولم يخل علم العمران من كتب ظهرت فى هذا العصر ولكنها جاءت إما مجملة تتناوله عن بعد أو مفصلة تقصر على بعض أبحاثه ثم كانت بعد هذا العصر مقدمة ابن خلدون أول كتاب ظهر فيه مستقلا مفصلا

الدين واللسان أمر ذو بال نجم عنه ما وجه العصر توجيها خالف به سابقه كثيرا أو قليلا فى شتى الأمور .

فأما فى الدين فبعد أن كان للمذهب الشيعى الغلبة على المذهب السنى بنفوذ البويهيين شرقا والفاطميين غربا ذهبت ريحه بذهابهم وجاء المذهب السنى يكتسحه ويعفى عليه بصولجان السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا، والسلاجقة سنيون بحكم نشأة جنسهم أول ما اختلط بالمسلمين مضادا للشيعة محاربا لها منذ عهد المتوكل على الله وكذا الأيوبيون مذ جاءوا على الدولة الفاطمية غالبين ولها مديلين حتى لقد حرم صلاح الدين تدريس المذهب الشيعى بأزهر الفاطميين، وتم وقف هذا التبدل فى التأليف الشيعى من حركات وحارب من فكر وأبطل من عادات .

وأما فى اللسان فقد كان الفاطميون بمصر عربا خلصا والبويهيون بفارس متعربين مبرزين فكان للأدب من كليهما مدد منشؤه حذقهم أسلوبه وتذوقهم جماله فانقطع هذا المدد بتركية السلاجقة وكردية الأيوبيين « وإن ابتعد الأولون عن محاربته ومخاصمة رجاله وحاول الآخرون تلمسه وتقريب ذويه » وبذلك نال صورتى الأدب كتابته وشعره ضعف قلل من مقدارها وذهب بكثير من محاسنها وكان أنكى بالشعراء منه بالكتاب لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى إذا لم يجد المتذوقين النصراء فى حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضرى يضطر إلى الابقاء عليها ذووه وإن لم يفقهوا ما لها من حسن وجمال .

أما الناحية العلمية لحياة اللغة فقد كان هذا العصر عليها عصر بركة ونماء، ذلك بأن العلماء استمروا فيه منطلقين بعد نضج العلوم إلى

حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة فحق أن يدعى لذلك عصر الموسوعات (١) ثم كان شعور العلماء فيه باشتداد ضعف ملكة اللسان وحاجة النشء فى تنشئته على الملكة الصحيحة واستيعاب ما استبحر من علوم دافعا للقوم أن يهيئوا للعالم أماكن دراسة يؤمها المتعلمون ويرتب لهـا العلماء المدرسون فكان من ذلك إيجاد المدارس بالمعنى الذى نعرفه الآن ووسم هذا العصر بعصر المدارس (٢) كما وسم بعصر الموسوعات وهذان أثران له جليلان .

ولقد وفد على مزاج اللغة فى المغرب والمشرق أدبها وعلمها فى هذا العصر وافدان غريبان: أحدهما فرنجى جاءت به الحملات الصليبية بما أسست فى الشرق من إمارات وبما حدث بين رجالها ومسيحي المشارقة من تصاهر وزواج على ما هنالك من خلاف فى الأصول

---

(١) لعل مما حملهم على تأليف هذه الموسوعات بعد الدافع الطبيعي لحركة التأليف مقاومة ماذهبت به الفتن من مؤلفات وأضاعت من جهود فكانوا يدونون الموسوعة جامعة لشتى العلوم مع حذف مااعتادوا فى غيرها فى أسانيد كما فعل ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ فى موسوعته المسماة « المدهش » فى القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواعظ فى سبيل المحاضرات ومنها نسخ بالمكتبة الخديوية . أو يدونونها جامعة لفروع علم واحد كما فعل ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ فى معجميه للبلدان والأدباء .

(٢) أول من قام بانشاء المدارس فى هذا العصر نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى التركى فقد أسس المدرسة النظامية فى بغداد منسوبة إليه فكان لها شأن فى العالم الاسلامى كبير جعل غيره يقتدى به فى إنشاء مثالها حتى امتلأ العالم الاسلامى ولما ينته العصر بالمدارس المختلفة فى جميع الأنحاء .

واللغات والآداب والعادات لابد أن يؤثر تأثيره ويأخذ طريقه غالبا غير مغلوب ، والثانى عربى هو نزوح الجماهير الأندلسية إلى المغرب والمشرق يحملون طابعا لم يك للمشارقة فى التفكير والتأليف وإنشاء الرسائل وقرض القريض حوكى فيما حلوه من بيئات [1] وبهذا ضعفت الفوارق بين أدب قرطبة وأدبى القاهرة وبغداد وقويت المشابهات .

تلك كلمات أرسلناها مجملات فى ميزات الأعصر العباسية اللغوية بعضها عن بعض رابطين بينها وبين ما أنتجها من أحداث السياسة وأمور الاجتماع،وفيما يلى من دراسة موضوعات المنهج تفصيل لما أجملنا وإيضاح والله ولينا وهو المستعان :

---

(١) من أظهر ما كان لهذا الاختلاط فى عالم الفكر اتصال الفلسفة الأندلسية بفلسفة المشرق وفى عالم الأدب انتشار الموشحات .

ما طرأ على العرب ولغتها

من جراء امتزاج الأعجام بها

خالطت العرب بعد تمام الفتح فى العهد الأموى أشتاتا من الأمم مختلفين فى أجناسهم ودياناتهم وفى لغاتهم واجتماعياتهم كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس حين الفتح من أرض أندلس وشمال أفريقية ومصر والشام والعراق وفارس وما وراء فارس فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ولكن تأثرهم لم يبد واضحا جليا فى ذلك العهد لقصر زمنه نسبيا ولترفع العرب فيه عن مخالطة الأعجام اقتداء بخلفائهم وذوى الأمر فيهم؛ فكانت الأمة العربية ملوكا وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها (١) ولكن ذهاب تلك العصبية وهذه النعرة بمجىء العهد العباسى كما أسلفنا جعل هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره فى كثير من نواحى الحياة ذات التأثير البين فى اللغة آدابها وعلومها

ففى العهد الأموى بقى الجنس العربى متحصنا فكان زواج العربى من غير العربية نادرا وزواج العربية من غير العربى منكرا؛ فلما جاء العصر العباسى رافعا شأن الموالى أقبل الناس على زواج الأعجميات

---

(١) تتضح هذه النعرة فى شقيها بما روى من أن عبد الملك بن مروان حين خطب إلى عقيل بن علفة بنته قال له عقيل جنبنى هجناء أولادك يقصد مسلمة ابنه على ما عرف به مسلمة من واسع عقل وكامل خلق؛ وبما كان من أن عبد الملك حين عقد ولاية العهد لأبنائه تخطى مسلمة هذا لأن أمه غير عربية لا بغضا له ولكن تعصبا لتلك النعرة أو خوفا من الأمة المتعصبة لها.

مسرعين لما لهن من فرط جمال ووافر عقل ولما بدا على نسلهن من نجابة وذكاء [1] وتسابقوا فى هـذا المضمار وقدامهم فيه الخلفاء وأبناء الخلفاء [2] واذ وقف حد الدين للزوجات عند أربع انطلقوا فى التسرى غير المحدود حتى ضاقت القصور بالقيان والاماء [3] ومامن شك فى أن هذا ينتج من التأثير الجسمى والتالى العقلى فى النشء الناشىء من الأعجميات الشيء الكثير . فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر ثابت من أن التزوج من البعيدات نسبا مؤد الى فراهة الأجسام وقوة البنى فما بالنا بالبعيدات جنسا [4] . وأما من الناحية العقلية فلأن الأمم

---

(١) بقى أهل المدينة زاهدين فى التسرى حتى نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبد الله وقد فاقوهم علما وورعا فرغبوا فيه، ومما زاد إقبال الناس على زواج الاماء خفة كلفته حتى قالوا فى ذلك « الأمة تشترى بالعين وترد بالعيب » وقالوا فى تزيته جملة « عجبت لمن عرف الاماء كيف يقدم على الحرائر »

(٢) لهذا كان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى ماعدا الأمين ابن زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهادى وأخوه هرون أمهما رومية والمأمون أمه فارسية والمعتصم أمه تركية والواثق أمه رومية والمتوكل أمه تركية وهكذا .

(٣) بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين وعدد جوارى المتوكل أربعة آلاف وعلى ذلك يقاس ما كان لغيرهما من الخلفاء وما كان لغير الخلفاء من الأمراء والأغنياء.

(٤) لهذا يقول الحديث « اغتربوا لا تضووا » والضوى دقة العظم وقلة الجسم خلقة وأضوت المرأة ولدت الولد كذلك وله يقول الراجز .

أنذر من كان بعيدا لهم تزويج أولاد بنات العم فليس ينجو من ضوى وسقم

ولهذا وجد فى العصر العباسى من ضرب بهم المثل فى الشجاعة حتى قال الأصمعى « ماضرب رءوس الأبطال كابن الأعجمية » .

التي غلبتها العرب على سلطانها كانت ذات حضارة تبدو في شتى الالوان وتختص كل واحدة بلون يكون فيها دون غيرها أكثر زهوا وأشد لمعانا، وهذه الميزات جميعا كان الهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من الصرحاء بعامل الأرث المؤرث والعرق الدساس. ولقد كان من هذا أن عجزت العربية عن مجاراة الأعجمية في الزواج فضوعف هذا التأثير، ثم كان أن اندس العربي بين الأعجام زارعا وصانعا بعيدا عن مهام الدولة وتصاريف الأمور يسوده من الموالي من كان قبل مسودا، فذهبت من نفسه البقية الباقية للنعرة وسلم في بناته ومن هن تحت ولايته أن يكن لهذا الجنس الغالب زوجات فافترشهن الأعجام ونسلوا منهم نسلا مقرفا جاء أكثر من الهجناء عددا وأشد منهم بالعجمة اتصالا، على أن من بقي من العرب صريح العروبة لم يقو بديار العجمة على صد هذا التيار الاعجمي الشديد فكان فيه من المغرقين

وفي العهد الأموي كانت للدين الاسلامي صولته وقوته دخل فيه من دخل مؤمنا ايمانا حقا غير ملتفت الى دينه السابق ولا عاد إياه بجوار الاسلام شيئا، وبقي على دينه من بقي ذميا مستأمنا يحسد نفسه أن أبقاه المسلمون على دينه ويعد ذلك النعمة لاتعدلها نعمة فلم يتسرب الى الدين الاسلامي من الديانات المختلفة نصرانية ويهودية ومجوسية على افتراق كل ديانة من هذه الديانات طوائف وفرقا، شيء يزعزع من عقائد أبنائه ويفتح لهم في ميادين التشكيك مجالا ، ولكن حين جاء العصر العباسي مستبدلا بصولة العرب صولة الفرس وكانوا مجوسا قد ساد مجوسيتهم آخر سلطانهم إلحاد وإباحية وزندقة : فتحت

فى الأبحاث الدينية أبواب كانت مغلقة وجرت على ألسنة هؤلاء المجوس ولو أنهم أسلموا أقاويل لم تكن تجرى وتخطت الابحاث الدينية بالرغم من مقاومة الخلفاء للزندقة والالحاد السياج الذى كان مضروبا وساعد على رواج هذه الابحاث التمكن لرجال الفرس فى السلطان وإذ ساغ للمجوسية أن يصطبغ بأبحاثها كثير من أبحاث الفلسفة والدين فقد ساغ لليهودية والنصرانية أن تجريا وراءها بغير عنان وأن ينشط اليهود والنصارى فى أمثال هذه البحوث متسترين وراء حاجة الدولة إلى علمائهم وتقريب خلفائها وخاصتها لكثير من شخصياتهم فكان من وراء ذلك تأثير فى الدين كبير ظهر أظهره فى اللغة من آداب وعلوم .

وفى العهد الأموى كان للغة العربية بحكم التوسع فى الفتح وبسط السلطان طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيما طغيان أزال منها ما أزال وبقى مابقى ضعيف المقاومة مهيض الجناح كل هم ذويه أن يبقوا أمام الفاتحين آمنين على نفوسهم وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين، أما لغاتهم فلن يأخذ بيدها ما صاروا إليه من ضعف ولن تجد من رجال الدولة الجديدة إلا الرغبة الملحة فى خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم كان تنزه العرب النازلين ديار العجمة عن مخالطة الأعجام وترفعهم أن يلوا مثل مايلى أولئك من أعمال أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به أنفسهم من مناصب الملك والسلطان حاجزا قويا وسدا محكما دون أن يتأثروا مرغمين بعامل المخالطة والجوار . أما إذ جاء العصر العباسى فزالت بمجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب وتم للعرب مخالطة العجم

ومشاركتهم فى الأعمال فقد حل عن عنق اللغات المغلوب أهلوها ما كان مضيقا عليها من خناق ؛ فتنفست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان وما ينبغى أن يكون عليه ذووها من حفاظ ؛ ومن ثم وقف غزو العربية لها حينا وانقلبت هى بعد ذلك الحين غازية كأنها تريد الانتقام حتى عقد لها لواء النصر فى التغلب كما سيأتى على ألسنة السواد وتسربت بما كان من التوسع فى وضع العلوم وحركة النقل إلى التأليف والتصنيف فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلو من التعريب ثم كان أن وجدت فوق هذين سبيلا تظهر فيه أحيانا على ألسنة الادباء ناثرين وشاعرين

وكما كانت النزعة العربية فى العهد الأموى غلابة فيما ذكرنا من نواحى الجنس والدين واللغة كانت كذلك غلابة فى ناحية الاجتماع .

فقد ظل أبناء العرب أيامه على بداواتهم محافظين على خشونة الجاهلية عاملين بعاداتها محبين لآدابها يقودهم فى ذلك ويشجعهم عليه آل البيت المالك حتى الخليفة المقيم بدمشق؛ وما غيروا فيه من أمور الاجتماع كان تدعيما للعربية وفتحا على أبنائها إذ جعلوا الاسلام دولة عربية بعد أن كان دينا؛ وأيدوا تلك الدولة العربية بنقل دواوين الحكومة إلى لغة رجالها، وسكوا النقود العربية مستعيضين بها عن نقود الفرس والروم وكذلك فعلوا فى نقل الطراز (١) وما عدا الناس على عهدهم طبقة العرب

(١) هو أن يرسم الملوك أو السلاطين صورهم أو علامات تختص بهم على الأثواب المعدة للباسهم أو لباس بعض الطوائف من أتباعهم كما يرى الآن على ألبسة الجند والشرطة مثلا؛ وأول من نقله إلى العربية عبد الملك بن مروان ولكنه استعاض عن الصور كتابة الأسماء وكلمات التفاؤل والدعاء لورود تحريم الصور فى بعض الأحاديث .

السائدين عدنانيين وقحطانيين وطبقة الموالى المسودين مسلمين وذميين، نعم خدم الدولة وتقرب اليها بعض العرب النصارى والموالى مسلمين وغير مسلمين ولكن عددهم جميعا كان جد قليل (١) ثم جدت أمور لم تكن فى صدر الاسلام كاتخاذ السرير والحجاب ولكنها لم تعد أشخاص الخلفاء ومن حاكاهم من بعض الولاة فى تبسط واضح واكتفاء بالقليل (٢)

أما أحوال الاجتماع فى العصر العباسى حيث نضج التمدين الاسلامى متأثرا بما خلف عليه من مدنيات فقد جاءت مغايرة كل المغايرة لما كانت عليه فى عهد الأمويين

ساق هذا التمدين الناس بمصاه الى أن يكون طبقتين وتحت كل طبقات: الأولى طبقة الخاصة وتحتها الخليفة وأهله ورجال دولته وأرباب البيوتات: والثانية طبقة العامة وتحتها المزارعون أهل القرى وسكان المدن من الصناع والتجار ثم حمل الخواص على أن يتخذوا لهم من العوام أتباعا هم الجند المحافظون والأعوان المرافقون والموالى المعتقون والخدم وهم الأرقاء والخصيان والجوارى من السودان والبيضان كما حملهم على أن يقربوا اليهم من العوام أيضا أهل الفنون

---

(١) من تقريب الخلافة الأموية لنصارى العرب تقريبها الأخطل الشاعر وبخاصة فى عهد عبد الملك. وممن خدم من الموالى غير المسلمين: رجال الدواوين قبل تعريبها . ومنهم مسلمين سالم القائم على ديوان الرسائل لهشام وختنه عبدالحميد صاحب ديوان مروان .

«٢» أول من اتخذ السرير والحجاب معاوية لما رأى منهما فى بلاد الروم ولما أنبأه به عن مجلس الحاكم فى فارس ومصر عما له بتلك البلاد .

الجميلة من المصورين والمغنين ، وأهل الأدب والشعر من الأدباء والشعراء ، وذوى الحذق والنفاسة من نابغى الصناع وكبار التجار .

فبهذه الطوائف جميعا ماعدا الزراع كانت تعج المدن فى العصر العباسى وتفيض على من يخالطهم فيها من ذوى المفاسد أعوان الشر أو المجون. وإذ كانت هذه الجموع فى غالبيتها أخلاطا من غير العرب جنسا وعلى غير ما نشأت عليه العرب استعدادا فأنت خبير بما تنتجه فى أبناء العربية المخالطين وفى العربية حيث لا يوجد هؤلاء الأبناء من تأثير.

قضت هذه المدنية على كثير من مناقب العرب التى شبوا عليها فى بداوتهم وهذبها الاسلام فى صدر اسلامهم وحاطها الأمويون بالرعاية فى دولتهم كالاستقلال والشجاعة والنجدة والانفة والعفة وغيرها مما جبلوا على مدحه والتفانى فى نصرته وتجلت له فى أدبهم صور رائعة باهرة فأصبحنا بعد هذه من العصر العباسى نشاهد الضعف والخور والقعود والاستسلام والغدر والخداع وذهاب الغيرة من نفوس الرجال وضعف الثقة بهم فى قلوب النساء حتى غاض معين طاهر صاف وفاض آخر كله رجس وأقذار (١)

---

(١) لذلك تنوسيت المرأة العربية فى المدن فتنازلت عن عزتها فى سبيل إرضاء زوجها وصارت تهديه الجوارى وتحبب اليه الاقتراب منهن حتى ذهبت غيرتها وضاعت كرامتها وعاد الرجل يظن بها الظنون فأقفل عليها الابواب والنوافذ وسد فى وجهها الطرق والمسالك ومنعها الخروج والكلام وأصبح الطعن فى طباع المرأة شائعا على ألسنة الناس حتى ألفت له القصص والروايات وأرسلت فيه الحكم ونظمت الاشعار

ونقلت هذه المدنية العرب من التبسط فى معاشهم مطعما وملبسا ومسكنا، فبعد أن أخذوا بطرف يسير من الحضارة مدة العصر الأموى فى هذه الأشياء انغمسوا فيها على العهد العباسى حتى الأذقان فابتنوا القصور المتنوعة تحف بها الحدائق وتجرى من تحتها الأنهار (١) ولبسوا الحرير ونحوه مختلف الألوان والأشكال مفرقين بين الثياب فى الحياة الجادة العاملة والحياة الوادعة اللاهية (٢) ثم أكلوا كل مالذ وطاب من ألوان الأطعمة وشربوا كل شف وراق من أنواع المشروبات (٣) فكان ذلك كله على ما صحبه من التغالى فى اتخاذ الأثاث والرياش واقتناء

---

(١) اختلفت أساليب البناء فى الاسلام باختلاف البيئات فكانت فى كل بلد على نمط أهله ولكنها لم تلبث أن اتجهت كلها بذوق العرب واستخدامهم الابتكار الى نمط خاص هو النمط العربى وإن بقى بين بعضه وبعض يسير اختلاف

(٢) حاكت العرب الأمم المفتوحة فى كثير من ملابسها وظهر التغالى فى ملابس الخاصة على العهد العباسى ظهورا بينا وبخاصة فى العراق اذ كان من الخلفاء منذ عهد المنصور حمل للناس على لباس خاص له فى كل طائفة طابع يميزها عن غيرها وكان لابد من جبة سوداء تغطى حين الدخول على الخليفه جميع الثياب تعرف بالسواد وهو شعار العباسيين بعد أن كان شعار الأمويين البياض ثم كانت ثياب اللهو والدعة تميز بألوانها الزاهية وصقلها اللامع وتعرف بثياب المنادمة

(٣) قد اتسعت مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع عليها فى الانفاق حتى صار لكل لون خدم عليهم رئيس .

ومما ساعد على انتشار المسكرات أن تناولها كان شائعا قبل الفتح فى جميع البلاد وبخاصة بلاد فارس التى كان ملوكها مغرقين فى اللذات والمسكرات

الأحجار الكريمة والجوهرات مجالا لحياة اللغة أى مجال [١] .

ولقد تعدت هذه الزينات الدور الخاصة بخلفاء الدولة وعظمائها فظهرت متجلية فى مجالسهم التى كانت تبلغ من السعة المبلغ العظيم، فترفع فوقها القباب وتزين جدرانها وسقفها بصور الذهب والفضة لما فى البر والبحر وتفرش أرضها بالبساط الواحد من الديباج وتسبل على نوافذها ستائر الحرير المطرزة بشارات الدولة وما قد يضم اليها من مأثور الكلام [٢] ثم كان للخلفاء فى المواكب حين الخروج للاحتفال من الافتنان فى الزينة وإظهار العظمة ما يأخذ بالألباب ويخطف الأبصار [٣] .

وحينما أخذ العرب فى تشرب مدنيات الأمم التى غلبوها على أمرها وورثوا حضارتها وسلطانها كانت هذه المدنيات فى أخريات

---

(١) أخذ البذخ فى اقتناء الجوهرات مأخذه فى بغداد وقد احتذى بهم فى ذلك بقرطبة آل مروان ثم فاق الاثنين الفاطميون فى القاهرة ففاضت فى المدن الثلاث المجوهرات حتى كانت تزين بها الخيل وسائر الحيوان. وإن نظرة الى ماكانت تزين به النساء عند الزفاف ولا سيما بنات الخلفاء والخاصة من الأمراء وذوى اليسار لتدل على مابلغ اليه الترف فى تلكم الانحاء

(٢) كانت تتعدد أماكن هذه المجالس بتعداد مايدور فيها فيعد بعضها للتصريف أمور الدولة وبعضها للادب والشعر وبعضها للمناظرة والعلم وبعضها للغناء والانس وهكذا

(٣) وكذلك كانت تختلف أشكال المواكب باختلاف الداعى اليها من أمر دينى كالأعياد أو دنيوى كزفاف أو ختان أو نصر أو ما الى ذلك مما هو مفصل فى الكلام على أبهات الخلفاء .

أيامها قد سايرها الشر وعمها الفساد ، فكثر من أبنائها الأشرار الفاسدون الذين نشروا الرذائل فى مدنية الاسلام وكان العرب معرضين لها بعدوى المعاشرة والاختلاط : فلم يكادوا يخطون فى مدنيتهم حتى كثرت الموبقات وتعددت المفاسد وغلبت الشهوات على الناس فصاروا لها عبيدا ثم انطلقوا فى تيارها بعد عن طواعية واختيار . وكأن أبناء العرب وقد فقدوا شخصياتهم وصاروا وأبناء الأمم المذكورة سواء ثم أقل من السواء ، أصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب فانغمسوا فى شرورهم غير مبالين وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه مبعدين (١)

ولقد ولد هذا الاندفاع الشديد فى تيار الحضارة تقديسا للمادة فى النفوس إشباعا للنهم الجشع وسدا للكمال الذى صار من الضرورات ، فأحب الناس المال حبا جما وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى لا يفرق بين حل وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز وانتشرت حيل الغش والخداع وأصبحت الرشوة عاملا فعالا من عوامل نيل الغرض وابتناء الثروات (٢)

«١» لذلك كانت عادات الجاليات العربية فى كل قطر من عادات أهله وناهيك بما كان قد استقر من عادات الشر فى الأقطار الاسلامية قبيل الفتح أثرا محتوما لمدنيتين شاختا وأكل عليهما الدهر ، هما المدنية الفارسية شرقا والمدنية الرومانية غربا .

«٢» فشا بانتشار الرشوة الأثراء السريع للوزراء ومن فى حكمهم من الولاة والعمال وتبع ذلك إقدام ذوى الأمر على استصفاء أموال هؤلاء لاعتقادهم أنها جمعت من حرام كلما احتاجوا إلى سد عجز مالى أو حفزهم حافز الانتقام .

على أن العرب على ما آذتهم به تلك المدنيات فى نواحى الاجتماع قد استفادوا من ورائها مغانم فى العلم والأدب عادت عليهم وعلى لغتهم بالخير والصلاح ، فقد جارى أبناء أممها سلائل العرب فى مضمار الأدب فكان منهم الكتاب والشعراء ثم بذوهم فى مضمار العلم فكانوا أكثر منهم عددا وإنتاجا فى التأليف والتصنيف ؛ هذا إلى أن أدباءهم كانوا اللقاح الأدبى الجديد كما كان علماؤهم التراجمة الماهرين فيما نقل من علم دخيل .

ذلك مجمل ما كان للأعاجم بجنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم واجتماعياتهم من تأثير فى العرب ظهرت نتائجه فى لغتها غرضا ومقصدا ، معنى وخيالا ، لفظا وأسلوبا ؛ على ماسنبينه فى هذه النواحى الثلاث عقب الكلام على غلبة الفرس فيه .

غلبة الفرس فى هذا التأثير

وإلى أى درجة كان فى اللغة مداه

لقد كان للفرس دون غيرهم من سائر الأمم نصيب الأسد فى هذا الموضوع .

ذلك أنهم شعب آرى أسس دولة عتيدة فى التاريخ القديم(١) ذات علوم وآداب ؛ وهم أهل ذكاء وتعقل وفيهم استعداد فطرى يساعدهم على الأخذ بأسباب الحضارة ، ولذلك أحرزوا منذ القديم قسطا وافرا من الطبيعيات والرياضيات ورثوا فيه الآشوريين والبابليين ، واحتكوا بالهنود واليونان المتصلين بهم لغة وجنسا ، فنقلوا إلى لغتهم مانبغت فيه هاتان الأمتان من علوم وفنون(٢) ثم كان

«١» كانت السيادة قديما للفرس شرقا وللروم غربا ولكن سلطان فارس كان أقدم عهدا وأكثر جندا . امتلكوا مصر على فراعنتها زمنا وحاربوا اليونان قبل المسيح ، فكانوا قبل بضعة وعشرين قرنا يحردون جيشا قد يصعب اليوم على أعظم الدول حشده ونقله من أواسط آسيا إلى أفريقية وأوربا .

«٢» كان نقل الفرس لعلوم الهند جاريا منذ القديم يؤيد ذلك ما ذكر فى فتح الاسكندر بلادفارس من أنه عثر فى عاصمتهم اصطخر على خزائن كتب ، فيها ما جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الأيام .

وقد نشطت حركة النقل بفارس أيام سابور بن أزدشير فقد بعث إلى بلاد اليونان من استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية وخزنها فى خزائنه وشجع الناس على نسخها ودرسها .

ولما كان ما كان من اضطهاد جوستنيان قيصر للفلاسفة الوثنيين بعد إقفاله هيا كلهم ومدارسهم فروا من وجهه إلى فارس حامية الوثنية إذ ذاك ، فاستقبلهم

أبين مافضلوا غيرهم فيه النبوغ فى الأدب الآرى ، ذى الفكر الغواص والخيال المخصب البديع . وما ظنك بقوم هذا شأنهم قد نزل العرب بلادهم منذ الفتح الأول ، ثم أنشئوا أكبر دولة عرفها التاريخ فى أحضانهم وبمعونتهم ولم يمض على ذهاب سلطانهم من الزمن طويل ، إلا أن يتشربوا مدنيتهم ويتحضروا بحضارتهم ويظهر أثر ذلك جليا فى كلامهم وإن تغلبوا عليهم فى اللغة والدين

أما الأتراك الذين شاطروا الفرس النفوذ فى العصر العباسى عهدا بعهد فلم يك لهم ما للفرس ولاشىء منه فى هذا الميدان لما يلى من أسباب.

اتصل الأتراك أول مااتصلوا بالعباسيين خدما مجلوبين من أمة لاعهد لها بعلم ولا سابقة عندها لحضارة ، إنما هم قوم من البدو الأميين الذين لا يزالون يضربون فى الأرض ابتغاء الرزق سلبا ونهبا ، ويذرعون أواسط أسيا شرقا وغربا ، متقاتلين فيما بينهم ومقاتلين من يصادفهم من غيرهم ، عمادهم قوة أبدانهم ومايتخذونه سلاحا بأيديهم دون أن يقيموا دولة أو ينشئوا حضارة ، فبقى هذا شأنهم حين صار لهم النفوذ فى العصر العباسى الثانى على الخلفاء . غلظة فى غير رفق ، وقسوة لاتعرف الرحمة ولا التعقل اليها سبيلا ، وتنافر بين أحزابهم ، أيهم أكثر قوة وأشد فى النكاية إيغالا ، فهم صورة من صور الخسف والاستبداد والسخف والاستعباد ، تبقى مابقى بطشها وسلطانها فاذا مازايلتها القوة

كسرى أنو شروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى الفارسية حتى نقلوا منها الكثير ثم أخذوا يؤلفون فى علوم الفلسفة وغيرها حتى شاع العلم اليونانى بفارس كما شاعت علوم الهند والصين .

وتعداها النفوذ ذهبت غير مخلفة من الآثار ، إلا اللعنة وسوء الدار . أما حضارة تؤثر فى حضارة ، وأدب يؤثر فى أدب ، ولغة تتدخل فى لغة ، فلا شيء من ذلك عندهم حتى يكون ولا أثر له فى وجودهم يبقى إذا أفناهم الزمان .

وحين مكن لهم الدهر فى عهدهم الثانى عهد السلاجقة الذى كان أطول العصور كانوا من تلك الناحية كما كان أسلافهم فى العهد السالف مقفرين ، فلم تجد العربية فى لغتهم ما تتأثر به من علوم وآداب لأنها لم تك لغة علوم وآداب وبقيت مصبوغة بالصبغة التى كانت لها من لغة فارس بل زادت الفارسية فيها تأثيرا عما كان لها قبل أن يكون للأتراك سلطان [1] وبهذا خلت العربية من كل أثر للتركية إلا بعض ألفاظ منها سرت إلى لغة التخاطب بدافع الاختلاط [2]

ومما وقف فى طريق أن تتأثر العربية بالتركية فى هذا العهد الأخير على فرض أن يكون لها تأثير ، أنه جاء وقد استوفت العربية

«١» كان أتراك المشرق إذا انتصروا لغير العربية جاء انتصارهم للفارسية دون لغتهم العاجزة أن تكون لغة علم وأدب ، يؤيد هذا ماسبق عن السلطان محمود الغزنوى من تكليفه الفردوسى إتمام نظم الشاهنامة الفارسية .

«٢» من ذلك سنجقدار لحامل الراية خلف السلطان ؛ ودوادار لمتولى الأحكام وتنفيذها ، ومهمندار لمتولى ضيافة من يرد على السلطان ، وسردار لرئيس الجيش ونحوها من الكلمات المركبة من كلمتين تركيتين إحداها دار بمعنى ممسك والأخرى مأخوذة من المعنى المراد كسنجق بمعنى الرمح وهكذا .

العربية كل ما احتاجت اليه فى ترجمة العلوم والآداب ؛ جله من لغة فارس وقليله من اليونان والنادر من الهنود . ولعل من يقول وكيف تذكر ما تذكر عن الهندية واليونانية وفيض الهنود على العرب فى العلم عظيم وفيض اليونان أعظم وأوفر وهذا داع إلى أن يكون تأثر العربية بلغتيهما على درجة لا تستقيم وقولك إنه نادر وقليل ؛ فنقول تفهيما له وتبيينا : إن التأثر من الناحية العلمية المعنوية غير التأثر من ناحية الالفاظ والاساليب ؛ وحقيقة كان فيض العلم اليونانى والهندى على العربية كما ذكرت ؛ ولكن أغلب مانقل اليها منهما كان عن الفارسية التى نقلته قبل اليها ، فكان لها فيه الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب ، والاشتراك مع هاتين اللغتين فى التأثير العلمى ؛ إذ لا تخلو الترجمة من أن يكون للمترجم فى معناها نصيب .

على هذا الضعف كان شأن اللغة التركية التى شارك أهلوها الفرس فى النفوذ فاستقلت الفارسية بالتأثير البين فى العربية فى تلك الأرجاء الشرقية المترامية الأطراف وبقى لها كيان شخصى أخذ يتزايد وينمو كلما تقدم بالدولة الزمن حتى عم آخر العهد قاصية فارس فكانت الفارسية فيه لغة أدب وتأليف ؛ ثم أخذ يزحف من الشرق إلى بغداد حتى رد أمته فارسية اللغة كما كانت أول الزمان . أما وسط الدولة فكانت العربية وهى لغة غالبيته منذ القديم غلابة على ماوجدته من لغات أصبحت فى ذمة التاريخ ، وكذلك فعلت فى لغات غربها وإن لم تكن لغة أهله قبل الفتح فلم يبق لشىء من تلك اللغات وجود ؛ وإذن كان للغة الفارسية بذلك وبمن نبغ فيها من أبناء العرب ونبغ فى العربية من

أبنائها الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب في ميدان الآداب والعلوم [١] إلا ما كان من مشاركة اليونانية لها في الميدان العلمي حينما ترجمت منها مباشرة إلى العربية بعض العلوم وهذا ماسيظهر جليا فيما نحن مجملوه عما جد باللغة في تلك النواحي الثلاث بعامل هذا التأثير مع العامل الطبيعي للنشوء والارتقاء إلى أن يفصل بعد بتفصيل الموضوعات .

أولا — ناحية الأغراض والمقاصد

قد اتسعت مقاصد اللغة وأغراضها في العصر العباسي اتساعا كبيرا ساعد عليه امتزاج المدنية الآرية بالساميه امتزاجا تاما وكان من وراء ذلك أن تناول التغيير أغراضا بالايجاد وأخرى بالسعة والازدياد كانت منها هذه الأغراض .

١ ـ تدوين العلوم على اختلاف أنواعها من شرعية ولسانية وعقليه .

«١» كان الدافع للفرس إلى تعلم لغة العرب أنهم وجدوا تعلمها آلة فعالة في جلب الغنى الواسع ووسيلة ناجعة في الوصول إلى أعلى المناصب فحذقوها وعملوا على نقل محاسن لغتهم إليها، وكانوا لا يحصون كثرة .

أما الدافع إلى تعلم كثير من العرب لغة الفرس فهو الاستمتاع بقراءة آثارهم والتماس اللذة من الاطلاع على تاريخهم، ولما تغذوا بلبانها كانوا أداة صدق في تغذية العربية بكثير من ثمارها .

ولقد جنى الأدب العربي على أيدي من حذقوا اللغتين معا ثمارا شهية ناضجة كعبد الله بن المقفع والبديع الهمذاني من الأدباء، والفخر الرازي من الفلاسفة وموسى بن سيار من رجال الوعظ والارشاد . وغير هؤلاء كثير .

٢ ـ الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبخاصة الفارسية ثم اليونانيه .

٣ ـ إشاعة المذهب الشعوبى والرد عليه .

٤ ـ نشر الزندقة والالحاد ومقاومتهما .

٥ ـ تعبيد طرق البحث والجدل والمناظرة والمحاضره .

٦ ـ التحريض على متع الحياة وتحسين المجانة والخلاعة وامتداح الشراب والغناء .

٧ ـ الوعظ والارشاد عن طريق التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة .

٨ ـ ضبط أمور الدولة بتنويع الكتابة فى مختلف الدواوين .

٩ ـ وضع القصة والروايه .

١٠ ـ وصف جمال الطبيعة ومحاسن الحضارة كالرياض بما فيهما من ثمار وأزهار ورياحين ، والقصور وماحوت من أثاث ورياش وصور ورسوم ، ومجالس المنادمة والشراب ، ومصايد الوحوش والسمك والطيور ، وأنواع اللعب بالكرة والصولجان إلى غير ذلك من آيات الحضارة ومباهج الحياة .

١١ ـ النقد الأدبى على اختلاف مناحيه .

١٢ ـ تدريس العلوم المختلفة فى المدارس وتربية الأحداث .

ثانياً — ناحية المعانى والأخيله

لقد فتح التوسع فى المقاصد وتعدد الأغراض أمام الناس أبوابا جديدة للمعانى والتخيلات ، إذ كان تدوين العلوم وترجمتها عاملا على

نضج العقول وسعة الأفكار ؛ وكانت الملاحاة الجنسية والمذهبية باعثة على قوة المباحثة والمناظرة وخلق الحجج الجدلية إن أعوز البرهان ، وكذلك كان باعثا عليها ما كان بين زهاد هذه الحياة والمبيحين لأنفسهم الاستمتاع إلى غير حد بما فيها من لذة ونعيم ؛ ثم كان وضع القصة وخلق الرواية فاتحا أمام الخيال أودية بعيدة ما بين الأطراف كما كانت طبيعة البلاد الخصبة ومجالى الحضارة فيها مطلقة للتصوير الحسى كل عنان ، فعاد هذا وغيره على المعانى والأخيلة بأطيب الثمرات وهذا بعض ما كان ، مشفوعا لدقته دون ماتكنفاه بالتمثيل .

١ ـ الاكثار من المعانى الدقيقة التى تدل على حصافة عقل وغوص فكر وطول دراسة للعلوم العقلية وتفهم لمناحى الفلسفة .

من ذلك فى النثر قول ابن المقفع فى الأدب الكبير .

« إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فإنما هو أحد رجلين : إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك لشر يكفه عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك . وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس . وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى » .

ومنه فى الشعر قول إسحق بن ابراهيم الموصلى .

أخاف عليها العين من طول وصلها ... فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر
وما كان هجرانى لها عن ملامة ... ولكننى أملت عاقبة الصبر
أفكر فى قلبى بأى عقوبة ... أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره　　فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله　　فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

٢ ــ استخدام الحجج العقلية والبراهين الفلسفية التي أصبحت أذهانهم الناضجة لا ترضى بغيرها ولا تقنع بسواها .

من ذلك في النثر ما كتبه أحمد بن يوسف عن لسان طاهر ابن الحسين إلى المأمون بقتل الأمين وهو

« أما بعد فان كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والحرمة بمفارقته عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين لقول الله فيما اقتص علينا من نوح وابنه «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ولا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله . وكتابي الى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده ، والحمد لله الراجع الى أمير المؤمنين معلوم حقه، الكائد له فيمن ختر عهده ونقض عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتها وجمع به الأمة بعد شتاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها . وقد بعثت الى أمير المؤمنين بالدنيا وهي رأس المخلوع وبالآخرة وهي البردة والقضيب »

ومنه في الشعر قول ابن الرومي

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى　　الى وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الاثراء أزهد زاهد　　وان كنت في الاثراء أرغب راغب
حريصا جبانا أشتهي ثم أنتهي　　بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه　　فقير أتاه الفقر من كل جانب

تنازعني رغب ورهب كلاهما قوى وأعيانى اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب
وصبرى على الأقتار أيسر محملا على من التغرير بعد التجارب

٣ — الاقتدار على إرسال الحكمة المقررة وضرب المثل الموضح لما رسخ فى أذهان القوم من فلسفة معينة وتجارب مفهمة ساعدتهم أن يكثروا من النوعين مجيدين

من ذلك فى النثر قول ابن المقفع فى كتاب كايلة ودمنة من باب عرض الكتاب

« فالعلم لايتم الا بالعمل وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ؛ وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ؛ وان لم يستعمل مايعلم لايسمى عالما، ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمى جاهلا ؛ ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها، من ذلك السالك فى الطريق المخوف الذى قد جهله. ومن ركب هواه ورفض ماينبغى أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره، كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ماهو أقرب الى النجاة والتخلص من علته . وأقل الناس عذرا فى اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل

الى حفرة فوقعا فيها كانا إذا صارا فى قاعها، بمنزلة واحدة غير أن البصير أقل عذرا عند الناس من الضرير إذ كانت له عينان يبصر بهما ، وذاك بما صار اليه جاهل غير عارف»

ومنه فى الشعر قول أبى العتاهيه

يارب ذى نشب تكنفه   حب الحياة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه   صفرا وصار لغيره سلبه
ياصاحب الدنيا المحب لها   أنت الذى لاينقضى تعبه
إن استهانتها بمن صرعت   لبقدر ماتسمو به رتبه
وان استوت للنمل أجنحة   حتى يطير فقد دنا عطبه
إنى حلبت الدهر أشطره   فرأيته لم يصف لى حلبه
حلم الفتى مما يزينه   وتمام حلية فضله أدبه

٤ — الابداع فى التصوير والاغراب فى الخيال .وقد كثرت موادها وتعددت ألوانهما فى أدب القصة من المنثور ، ومن خير ماتطالع فيه الأول أمثال كليلة ودمنة، ومن خير ماتطالع فيه الثانى حكايات ألف ليلة وليلة ،وانك لمصيب الاثنين معا فيما وضع بجانب هذه الكتب من مقامات للبديع والحريرى وغيرها

أما أمثلته فى الشعر فقد كثرت وتنوعت فى إجادة وإتقان

منها فى إبداع التصوير قول البحترى من وصف بركة المتوكل

تنصب فيها وفود الماء معجلة   كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة   من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا   مثل الجواشن مصقولا حواشيها

فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... وريق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها

ومنها فى الخيال الغريب قول اسحاق بن ابرهيم .

غزتنى بجيش من محاسن وجهها ... فعبى لها طرفى ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها ... يريد اغتصاب القلب قسرا على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا ... جعلت فؤادى فى يديها على الغصب
وناديت من وقع الأسنة والقنا ... على كبدى ياصاح مالى وللحب
فصرت صريعا للهوى وسط عسكر ... قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

٥ ـ الاقدام دون تهيب على المبالغة والتهويل جريا على ما كان للفرس بهذا النوع من ولوع حداهم إليه التباعد بين طبقات الناس .

من ذلك فى النثر ما كتب به أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف صاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة عن نفسه إلى مؤيد الدولة شكرا على شكر سماه تهنئه .

«وصل كتاب مولانا جوابا عما خدمت به حضرته المحروسة مهنئا ، فحسبتنى وقد تأملت عنوانه مغلوطا فى أو معنيا به غيرى ، إعظاما لتلك الأيادى الغر والنعم الزهر التى أعدتها فى الشرف مناسب وإلى الأيام والليالى ذرائع .

ومنه فى الشعر قول منصور النميرى فى الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

٦ ـ وهذا كله إلى محص الأفكار وترتيب عناصرها حتى يأخذ بعضها بحجز بعض ويقل الشذوذ والاقتضاب .

ثالثاً - ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان تأثر اللغة فى هذه الناحية أظهر منه فى الناحيتين السابقتين، لأنها فضلا على تأثرها بهما، قد تأثرت من نواح غيرها، وهذى بعض مظاهر التأثر نسوقها عدا كما فعلنا فى ناحية الأغراض .

١ ـ حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم وأخرى فنية لتعليم الصناعات روعى فى كلتيهما مقياس المنطق والفلسفة لا مقياس الأدب والبلاغه، ولم تك هناك مندوحة دون حدوثهما بعد نشاط التدوين فى شتى العلوم وضعا وترجمة وانتشار الصناعات .

٢ ـ نقل كلمات عربية إلى معان جديدة بطريق التجوز أو الاشتقاق أو القياس لمصطلحات العلوم والفنون والصنائع وما إلى ذلك من أدارات الحكومة ودواعى العرف العام .

٣ ـ دخول كثير من الكلمات الأعجمية فى كل ماتقدم وبخاصة على أيدى المترجمين والمؤلفين فيما نقل من علوم وذلك بعد تغييرها إلى ما يجعلها متفقة مع العربية مخارج حروف وأبنية أوزان إن كانت فى حاجة إلى تغيير وتسمى حينئذ بالكلمات المعربة كما يسمى هذا التغيير بالتعريب .

٤ ـ الدقة فى انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل .

٥ ـ التأنق فى صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهمة للغرض فى شدة أسر وقوة أداء

٦ ـ التوسع فى استخدام أنواع التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز.

٧ ـ الاكثار من محسنات البديع لفظية ومعنوية مع الازدواج المصحوب كثيرا بالسجع.

٨ ـ الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته والاستشهاد بها.

٩ ـ الانحدار إلى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاعة والمجون.

١٠ التوسع فى إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبث عبارات الملق والخنوع فى ثنايا الكلام.

١١ - التغالى فى كل من الاطناب والايجاز الى درجة قد تسود مع الاول عشرات الأوراق فى بعض الرسائل والعهود والمنشورات وتصل بالثانى فى قصار الرسائل الى حد التوقيع

١٢ — ظهور جديد فى الوزن والقافية لم يكن معروفا من قبل كما سيأتى بيانه فى الشعر[1]

«١» من ذلك فى الوزن مايسمى الممتد وهو عكس المديد كقول القائل

قد شجانى حبيبى واعترانى ادكار ليته إذ شجانى ماشجتنى الديار

ومنه فى القافية ما يسمى المسمط وهو أن يبتدىء الشاعر بأقسمة من قافية واحدة يأتى بعدها بقسيم من قافية أخرى يلتزمها دون سابقتها كقول بعضهم

غزال هاج لى شجنا فبت مكابدا حزنا عميد القلب مرتهنا
بذكر اللهو والطرب

سبتنى ظبية عطل كأن رضابها عسل ينوء بخصرها كفل
ثقيل روادف الحقب

ذاك أظهر ما كان من جديد فى نواحى اللغة أدبها وعلمها، وللفارسية تأثير فيه كبير خيره وشره فى الاغراض ثم حسنه وقبيحه فى المعانى والالفاظ . ولقد كان لجانب الخير والحسن الغلبة فى أوائل العصر ولكن لم يأت آخره حتى تغلب الشر والقبح باستكراه اللفظ والمعنى وضعف ملكة البيان .

وهناك ناحية للغة لم تك من حسابنا فيما أسلفنا من قول هى ناحية التخاطب العام الذى جنت عليه الاعجميات أكبر جناية عرفت للعجمة على لغة الضاد حتى انتشرت العامية وكان حقا أن تنفرد فى هذا العصر حيث الكلام عليها بعنوان .

انتشار العامية

واختلافها باختلاف الاقاليم

عقدنا فى كتابنا الثانى من تاريخ الأدب العربى حيث الكلام على العهد الأموى فصلا لم نعقد مثله فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام هو « لغة التخاطب » عللنا فيه تنزه العصرين المذكورين عن اللحن والتحريف والدخيل وأبنا السبب فى نشأة تخاطب جديد فى العصر الأموى مشوب بهذه الأشياء قلنا من وصف لغته إذ ذاك .

« فهذه اللغة الجديدة كانت خليطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتحريف ، والأعجمى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الأمصار من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنها لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين ، فكانت بعيدة عن ذلك كله على ألسنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريبا على ألسنة الخاصة من أمهات عربيات ، أما أبناؤهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقا فلم تخل لغتهم من شىء من هذا وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضا . ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الأعاجم أهل البلاد الأصليين إلا من تعلموا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين ولذلك سابقوهم فكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف » إلى أن قلنا .

« غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموى لم يزعزع من عقيدة الناس فى لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين ، ولاصطباغ الدولة بالصبغة العربية المحضة . فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمونه ويفتخرون بالاعراب ويمدحونه » .

نريد بهذا القول وذاك أن لغة التحادث العام كانت عربية لما تتحول إلى عامية بعد

أما فى العصر العباسى الذى نحن بصدد الكلام فيه فقد تحولت إلى عامية انتشرت بقوة العجمة على تتابع سنيه الطوال فطاردت العربية من هذه الوجهة بكافة الأقاليم، وبلغت شدتها فى بعضها القضاء عليها والعود بالمحادثة إلى لغات سكانه الأصليين . نعم ان تلك المطاردة اختلفت قوة وضعفا باختلاف الجهات ولكن التحادث لم يك بالعربية الصحيحة فى جهة ما حتى البادية فقد دخلتها العامية قبل انقضائه بزمن طويل ، واليك فى هذا كله البيان .

ورث العصر العباسى إذن عن العهد الأموى لغة التحادث عربية صحيحة فى مجموعها وبذل خلفاؤه الأولون على بقائها صحيحة بمحاربة اللحن والتحريف أن يتسرب إلى ألسنة السواد وان وقع من بعضهم جهودا مشكورة حاكاهم فيها الولاة والأمراء العرب محاكاة المخلص المتعصب، والموالى محاكاة المتزلف المتقرب وبدت هذه الجهود فى شتى الألوان دفاعا عن لغة الدين والعلم والسلطان .

من ذلك أنهم بلغوا الذروة فى تكريم اللغة بتكريم رجالها علماء وأدباء ورواة وشعراء ، فكانوا يفسحون صدورهم لنقاش العلماء

ويوسعون مجالسهم لمناظرة الأدباء ويهيبون بالرواة أن يجدوا فى جمع شوارد اللغة وضبط مأثورها ثم يقيمون المحافل لاستماع الشعراء باذلين فى كل ذلك عناية تحفز الهمم ومالا يستهوى النفوس

ومنه أنهم كانوا القدوة الحسنة فى فصاحة العبارة وبلاغة المعنى والأسوة الطيبة فى العناية بتنشىء أبنائهم على مثل ماهم عليه من بيان، فلم يفت واحدا منهم أن يستحضر لتأديب بنيه المبرزين من شيوخ الأدب وأكابر الرواة كالشرقى القطامى مؤدب المهدى ، والأحمر النحوى والكسائى مؤدبى الأمين ، والزيدى مؤدب المأمون ، والمفضل الضبى مؤدب الواثق ، ويعقوب بن السكيت مؤدب المعتز ، وثعلب والمبرد مؤدبى ابنه عبد الله بن المعتز ، إلى غير هؤلاء ممن كان الخلفاء يأملون من وراء ملازمتهم أبناءهم تثقيفا عربيا يغنى عن الارسال إلى البادية التى كان يحرص خلفاء الأمويين على تثقيف أبنائهم فيها .

ومنها قدرهم النبوغ العربى قدره بما يظهرون من تعظيم لأهله تنسى معه ضعة الاصول ولا يضن عليه من أجلها بكبار المناصب، ونظرة إلى من قلدوا أعمال الدولة إذ ذاك ترينا كيف كان النبوغ الادبى أمام ذوى الهمم المتحفزة خير وسيلة للتقدم. وإلى أية غاية اتخذوه معارج عليها يظهرون (١)

(١) من الحوادث التى تؤيد هذا وهن كثيرات ماذكر من أن المعتصم وكان أميا ورد اليه كتاب بعض العمال فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار فاذافيه ذكر الكلأ فقال المعتصم للوزير ما الكلأ فلم يدر ماهو فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عامى ثم قال انظروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات

غير أن هذه الجهود وغيرها مما كانوا يبذلون لم تقو على صد تيار العجمة الزاحف بجيوشه من لحن وتحريف ودخيل والمتخذ طلائعه الغازية ألسنة من لا يترفع عنه من ضعفاء العرب، ومن لا يتطلعون إلى رقى من الاعجام، فكان بهؤلاء وهؤلاء شديد الوطأة قوى الزحف سريع الانتقال أنبأ عن وجوده فى العصر الاول على كره الخلفاء حتى على ألسنتهم، وأعلى مكانة نفسه فى العصر الثانى فلم يكن فى ظهوره على ألسنة الخاصة خجل ولا حياء

فأما إعلانه عن وجوده فقد ظهر على ألسنة الخلفاء وخاصتهم على تهيبهم له وتقززهم منه. ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن فى مجلس به أعرابى فصر الاعرابى أذنيه، ثم لحن ثانية فقال الاعرابى أف لهذا، ثم لحن الثالثة فقال أشهد لقد وليت هذا الامر بقضاء وقدر. ودخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال الرشيد أتلحن يافراء فقال ياإمير المؤمنين ان طباع أهل الحضر اللحن فاذا تحفظت لم ألحن وإذا رجعت الى الطباع لحنت. وكان المأمون يقول أتكلم مع الناس كلهم على سجيتى إلا مع ابن الهيثم فانى أتحفظ اذا كلمته لأنه يعرف الاعراب. وسمع المأمون بعض ولده يلحن فقال « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين بها مشهده ويفل حجة خصمه بمسكتات حكمه ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته فلا يزال الدهر أسير كلمته » إلى غير ذلك مما يدل

فأدخل عليه فسأله عن الكلأ فقال ياأمير المؤمنين هو العشب عامة فان كان رطبا فهو الخلا وإذا يبس فهو الحشيش فعرف المعتصم فضله واستوزره.

على أن اللحن فى العصر الاول كان من طباع أهل الحضر لضعف ملكاتهم، كما يدل على أنه كان شائعا على ألسنة السواد، ولكنه يدل بازاء هذين أنه كان اذا وقع من الخاصة استهجن وقوبل من السامعين باكبار أمره والتشدد فى المؤاخذة به . وقد بلغ من تأذى الرشيد باستماعه وعنايته باصلاحه محاولته اصلاح غناء الملاحين بدجلة وكان إذا ركب بها أعجبه غناؤهم وآلمه لحنهم فقال لجلسائه قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه، فقيل له ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وكان فى الحبس فوجه إليه يأمره بعمل الشعر دون أن يأمر باطلاقه فغاظه ذلك وعمل شعرا فى الوعظ والتذكير بتقلب الأيام لينغص به على الرشيد سروره كلما سمعه وكان الرشيد سريع التأثر يبكى الموعظة إذا مرت بأذنه فكان كلما سمعه تأثر ولج فى بكائه حتى يأمر من معه الملاحين بالسكوت (١) .

---

(١) كان سبب حبس الرشيد له أنه لما تنسك ولبس الصوف أمره الرشيد أن يقول شعرا فى الغزل فامتنع فضربه وحلف ليحبسن حتى يقول الشعر فقال أبو العتاهية «كل مملوك لى حر وامرأتى طالق ان تكلمت سنة إلا بالقرآن أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله» فحزن الرشيد مما فعله وأمر أن يحبس فى دار ويوسع عليه ولا يمنع من دخول من يريد اليه .

أما الشعر فهو كما رواه هو عن نفسه

خانك الطرف الطموح   أيها القلب الجموح

لدواعى الخير والشر م دنو   ونزوح

هل لمطلوب بذنب   توبة منه نصوح

وأما إعلاؤه مكانة نفسه فى العصر الثانى فكان حيث فقد النصير من الخلفاء وأولياء العهود الذين نشئوا بين الأمهات والحواضن الأعجميات لا يخالطون إذ خالطوا غيرهن سوى الخدم الأعجام بعيدين فى كل ذلك عن الرواة والمؤدبين ؛ ثم تولوا الخلافة على هذا الضعف الشائن المعيب ففقدت الفصحى بذلك معين التشجيع والتأييد وتعدت العامية ألسنة السواد إلى ألسنة الخاصة ؛ فكان بها تحادثهم وخطابهم مالم يحتفلوا بقول يذاع ؛ ومن هنا بدأت العامية تعدل عماها فى ألسنة

كيف اصلاح قلوب إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا بين ثوبيه نضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس فى الأر ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح
بين عينى كل حى علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والـ ـموت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنـ ـيا غبوق وصبوح
رحن فى الوشى وأصبحـ ـن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهـ ـر له يوما نطوح
نح على نفسك يا مسكـ ـين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عمـ ـرت ما عمر نوح

الخواص حتى أفسدت عليهم فصاحتهم، التي صارت لا تسعفهم حين التهيؤ لمقال إلا بالعربية الوسط مالم يكونوا كتابا أو شعراء وبقيت على هذه الحال إلى نهاية العصر المذكور .

فلما جاء العصر الثالث جاء وقد ظهرت العامية على ألسنة الخواص، وبالرغم من بلوغ الكتابة والشعر فيه الذروة كما أسلفنا وجدت تلك اللغة فى التحادث العام نصرة كبيرة من هؤلاء لأن غالبيتهم فى الأصل أعجام لا يزال فى رءوسهم وان هزموا أمام العربية لغة كما هزموا دينا، أن يفسحوا الطريق أمام لغاتهم الأولى على ألسنة السواد كى تشقه مكتسحة العربية لتحيا بعد موت وتقوى فيما هي عليه من حياة، فبدأت العربية تتقلص من الأطراف مخلفة مكانها للغات السكان الأصليين كالبربرية فى شمال أفريقية والفارسية فى خراسان .

ولقد صحب هذا التقلص ظاهرة لم يك حدوثها فى الحساب، تلك أن من عنوا بالنطق الصحيح فى حديثهم العام أصبحوا مضغة فى الأفواه يسخر منهم ويستهزأ بهم ويحلو للناس ترداد حديثهم فى المجالس ترويحا عن النفس وتفكهة للسامعين ثم استمرت هذه الظاهرة تكسب أنصارا ومؤيدين حتى كانت فى أوائل العصر الرابع طلبة دعت العلماء إلى إجابتها بالتأليف والتصنيف[1]

أقبل هذا العصر الأخير شاملة عجمته جميع الأطراف وفاقدة حكامه ما كان لأمثالهم فى سابقه من صلة بالآداب، فقدر على العربية

---

(١) كما فعل أبو الفرج النحوى المتوفى سنة ٤٩٩ حيث ألف كتابا جمع فيه أخبار المتقعرين .

جزر منتقص بعد أن كان لها مد ذو ازدياد ، ولم تلبث أن ولت أمام الأعجميات الأدبار ، مسرعة إلى باديتها عسى أن تجدها مقراهادئا كما كانت فى خوالى الأيام ، ولكنها لم تكد تنعم بهذا الهدوء طويلا حتى غزتها العجمة فى عقر دارها فارتدت فصيحتها عامية قبل أن يبلغ ذلك العصر منتهاه ، وكان من أفعل العوامل فى هذه الغارة التى قضت على البقية الباقية فى البادية عاملان .

أحدهما دينى هو انطلاق الآلاف من عامة الأقطار الاسلامية كل عام إلى مكة والبيت الحرام يهرعون إليه لتأدية فريضة الحج ثم ينقلبون إلى المدينة لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، وهم على اختلاف ألسنتهم يخالطون العرب خلال ذلك مخالطة جوار طويل وصحبة دائبة لا تكاد تنقضى حتى تكون بوادر أمثالها من العام القابل على وشك الحدوث ، ولا يظنن ظان ، القلة فيمن كانوا يختلطون بهم من القبائل فان هذا ظن كان يكون لو أن ذهاب العرب إلى الأماكن المقدسة لم يكن إلا للحج ، أما وموسم الحج هو الموسم التجارى للعرب يقدمون إليه بماشيتهم وسلعهم مبكرين ثم لا ينصرفون إلا حيث ينصرف الناس ، فان من شأنه أن يجعل جماهيرهم تزاحم كل غريب ، واختلاطهم يطول زمنه إلى أبعد ما يكون . فهذا الاختلاط الذى كان يبدأ فى القافلة منذ هبوط الأعجام بلاد الاعراب ولا ينتهى إلا حيث يسلمهم أولئك الأعراب إلى الأمصار ، استمر يحمل إلى البادية لغات من العجمة ذات ألوان لم تزل تغزو فصيحتها فى جوفها حتى خرت أمامها صرعى مالها من مقيل ، قد أصر بكلماتها اللحن والتحريف ،

وصحبها ماصحبها من أعجمي دخيل . ولقد كان لهذا الاختلاط مددمقيم من أولئكم الذين يجمعون بين عامين فى هذه البلاد يحجون فى عام ويزورون فى عام ،وآخر أ كثر إقامة ممن وهبوا أنفسهم لجوار الرسول حتى يوافيهم فى هذه الأماكن المقدسة أجلهم المحتوم فيفوزوا من الله بمغفرة ورضوان .

والآخر دنيوى هو انتشار الثورات فى الجزيرة وأطرافها لبعد مركز الخلافة فى العصر العباسى عنها ؛ إما من قبائلها على قوافل الحج فيضطر الخلفاء إلى تجهيز جيوش الأعجام لتأديبها وإعادة الأمن إلى نصابه فى ربوعها؛فتجوس تلك الجيوش ديار العربية الفصحى إذ غالبية هذه القبائل كانت من قيس عيلان وسكناها هاتيك الديار على مقربة من مكة والمدينة وما إليهما من قرى الحجاز [1] وإما من أعجام يقصدون إلى أطرافها لنشر مذهب أو التهيؤ لخروج فيؤثرون فى لغتها بإقامتهم؛ويضاعف هذا التأثير بما قد يكون من بعث الخلفاء بالجند الأعاجم إليهم ، كما كان من الزط فى بادية البصرة؛ والزنج بشواطىء الفرات؛والقرامطة بسواد الكوفة والبحرين واليمامة والحجاز؛ وغيرهم ممن كانوا منبع قلاقل واضطرابات لاتزال تدعو فى إخمادها إلى جوس

---

(١) من تلك الثورات ماكان من بنى سليم وبنى هلال وفزارة وبنى كلاب فى خلافة الواثق بالله سنة ٢٣٠ وقد وجه اليهم الواثق جيشا عظيما بقيادة بغا الكبير قضى قرابة السنتين فى حربهم حتى انتصر عليهم وعاد بكثير من ذوى الشغب فيهم الى سامراء

الأعجام مضارب الأعراب [1] فبهذين العاملين مع عامل الاختلاط العام ردت لغة التخاطب الصحيحة بالبادية الى عامية قبل انتهاء القرن

---

(١) فأما الزط فهم قوم من الهنود سكنوا شواطىء الخليج الفارسى قديما وعاشوا على السلب والنهب طويلا حتى إذا كانت الفتنة بين الأمين والمأمون استولوا على طريق البصرة وأخذوا يعيثون وينهبون وقد استمروا على ذلك طوال خلافة المأمون . ولما ولى المعتصم كان شرهم قد استفحل وزاد فجرد إليهم جيشاً هزمهم وعاد ببقاياهم وأسراهم إلى دار الخلافة سبعة وعشرين ألفا فسرحتهم الدولة إلى شمالها ومنه نفذوا إلى أوربة حيث تعيش أنسالهم الآن بربوعها الوسطى تحت اسم النور أو الأغجار .

وأما الزنج فقد ظهروا فى خلافة المعتمد على الله بدعوة رجل فارسى ظهر أول ما ظهر بالبحرين سنة ٢٤٩ يدعو الأرقاء من العبيد إلى التحرير وقد أطاعه منهم خلق كثير خرجوا على سادتهم فتوجه بهم إلى البصرة وشواطىء الفرات فحارب الدولة وهدد بغداد وبقى كذلك مصدر شغب حتى قتلته جيوش الخلافة سنة ٢٧٠ .

أما القرامطة فقد ظهروا أول ما ظهروا بسواد الكوفة على يد رجل من خوزستان فى آخر خلافة المعتمد على الله سنة ٢٧٩ وكانت دعواه إلى جعل الخلافة فى آل البيت فكثر أتباعه وظهر لهم نفوذ بالشام وكافة أرجاء الجزيرة العربية فأصبحوا فيها قطاع طرق ينهبون الحجيج ويعتدون على الأماكن المقدسة وساكنى مدنها بالسلب والتخريب دون أن تظفر عليهم الدولة بالغلب حتى إذا ما تبرأ منهم القائم على دعوة آل البيت فقدوا كثيرا من الأنصار وأمكنت الدولة هزيمتهم وقد مضي على عبثهم هذا أكثر من ثلث قرن .

الرابع الهجرى فذهب آخر مدد كان لها أمام الرواة [١] .

على هذا النسق الذى ذكرنا تملكت العامية ألسنة السواد فى جميع الأقطار فلم ينطقوا بغيرها ونالت ألسنة الخواص فى تحدثهم العام فلم يحيدوا فيه عنها، ولكنها كانت مع اشتراكها بجميع الجهات فى إفساد العربية الصحيحة باللحن والتحريف والدخيل تختلف فى إقليم عنها فى إقليم اختلافا يرجع الى أثر العجمة قوة وضعا والى نوعها لفظا وأسلوبا .

فمن الأول قلة الجاليات العربية أو كثرتها وبعد الاقاليم عن مواطن العرب الأولى أو قربه فيها ؛ فحيث كانت الجالية قليلة والاقليم بعيدا ، يكثر الدخيل ولا يكاد اللحن والتحريف يترك من الألفاظ العربية

---

(١) عن أهل البادية أخذ أبو عمرو بن العلاء عامة أخباره ، وعليهم عول الأصمعى فى غريب اللغة ، ومنهم استمد سيبويه والكسائى مراجع أحكام النحو ، وما زالوا مستمد رواة الأدب وعلماء اللغة وأئمة النحويين إلى القرن الرابع حيث بدأ لسانهم يفسد ، فكان هؤلاء يأخذون من بعضهم دون بعض كما كان يفعل ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ . ومنذ القرن الخامس لم يبق منهم أحد على الفصيحة إلا ما ذكره ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ عن أهل « عكاد » فقد قال فى لفظ عكوتين « هو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن » ثم عاد يقول بعد أن ذكر أن من مدن أحدها الزرائب « وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى مناكحة وهم أهل قرار لايظعنون عنه ولا يخرجون منه » وأيد الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ فى مادة عكد بقاءهم إلى أيامه على تلك اللغة، كما أيد شارحه الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ بقاءهم كذلك حتى أيامه أيضا .

صحيحا ولهذا كانت العامية في الأطراف القاصية كخراسان شرقا وبلاد المغرب غربا وأرمينية شمالا والنوبة جنوبا، شديدة الوطأة على اللسان العربي، لفظا وأسلوبا، ولولا شدته بقوة الدين وأنه لسان القرآن والحديث، ماشق له في هذه القاصيات طريقا، أما حيث تكثر العرب ويقترب الاقليم كما في العراق ومصر والشام فان الدخيل يكون حينئذ قليلا واللحن والتحريف لايضحى متغلغلا، ومن ثم بقيت العامية عربية في هذه الأقطار وارتدت في تلك إلى لغات أهلها الأصليين على أنه إذا تعارض هذا العاملان كان لحال الجالية كثرة وقلة، الغلبة على حال الاقليم بعدا وقربا ولهذا كانت عامية الأندلس على بعدها، خيرا من عامية المغرب وهي أقرب منها

ومن الثاني التفاوت في نوع الكلمات الدخيلة إذ كانت في كل إقليم من لغة سكانه الأولين. ففي الشرق كانت غالبيتها فارسية وقلتها تركية، وفي الشام ومصر كان الدخيل من اليونانية والرومانية والقبطية، وفي شمال افريقية كان بربريا، أما في بلاد العرب فقد كان خليطا من كل هذه اللغات وأكثر منها ولكنه كان قليلا .

ومنه أيضا التفاوت في نوع الأساليب الغازية إذ كان لكل أعجمية أسلوبها من حيث التقديم والتأخير والنفي والاثبات والتعريف والتنكير، وهكذا مما له أثر في تكون الاسلوب .

وكما كانت العاميات تختلف بعضها عن بعض باختلاف الأقاليم ونازليها من العرب كما ذكرنا، كانت العامية الواحدة تختلف في الاقليم الواحد، فتراها في وقت غيرها في آخر ولو لم تطرأ عوامل سوى

مغالبتها الفصيحة ومغالبة الفصيحة إياها إذ لابد فى تلك المغالبة : أن تنتهى بقوة إحداهما وضعف الأخرى؛ وبالحرى يقرب هذا الانتهاء بما قد يكون من عوامل طارئة : كما يشاهد على كاتبيهما فى أوائل العصور وأواخرها

وعلى الرغم مما ذكرنا للعامية من سلطان؛ قدر الله عليها ألا تتعدى لغة التحادث العام إلى غيره من لغة العلم فى التأليف أو لغة الأدب فى الانشاء والقريض (١) وقدر للفصيحة أن تبقى حاملة اللواء فى هذه النواحى الثلاث على أيدى العلماء والكتاب والشعراء؛ فصمدوا ثلاثتهم على نصرتها يقارعون الحوادث ويغالبون الأيام حتى كانوا النبراس الهادى فيما جد أواخر العهد العباسى من غيم وأطبق بعد زواله على أيدى التتار من إظلام . أما العلماء فلما رسخ فى نفوسهم من الحرص على خدمتها؛ خدمة للقرآن والحديث حتى يبقيا مددا مفهوما للوعظ والتشريع ، وأما الكتاب فلما كان من حاجة الملوك اليهم فى ضبط أمور الدولة بمختلف الدواوين على ماهدوا اليه من إبقاء الكتابة عربية كما ورثوها زلفى إلى الدين وتقربا من المحكومين ، وأما الشعراء فلأن الشعر مهما أبعد رجاله وضن عليهم بالصلات لابد أن يغلبهم ولو بالتنفيس عنهم فيما يشكون ومنه يألمون ؛ على أن حراسة الله للغة دينه وقرآنه أبت إلا أن يكون لها نصراء فى أشد العصور حلكة وأضيق الأيام حرجا ، وهكذا يأبى سبحانه إلا أن يكون .

---

(١) لم يظهر بها فى لغة العلم شىء هام، ولا فى لغة الأدب إلا المواليا وبعض الموشحات .

وبعد

فان للغة جانبا أدبيا نراه ماثلا فى الخطابة والكتابة والشعر ، وآخر علميا يظهر فى تدوين العلوم والفنون. وإنا لمتناولو الجانبين من الآن بالكلام، بعد الذى قدمنا من مقدمات .

الخطابة

أولا — نماذجها

١ ـ لما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، خطب أبو العباس السفاح [١] بالشام فقال .

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار » نكص بكم يأهل الشأم آل حرب وآل مروان يتسكعون بكم الظلم ويتهورون بكم مداحض الزلق يطئون بكم حرم الله وحرم رسوله ماذا يقول زعماؤكم غدا، يقولون « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » إذن يقول الله عز وجل « لكل ضعف ولكن لاتعلمون » ، أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الاقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحلمه على جهلكم فليفرخ روعكم ولتطمئن به داركم وليقطع مصارع أوائلكم « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

٢ ـ وخطب عمه عيسى بن على إذ ذاك بها فقال .

الحمد لله الذي لايفوته من طلب ولا يعجزه من هرب خدعت والله الأشقر نفسه إذ ظن أن الله ممهله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » فحتى متى وإلى متى أما والله لقد كرهتهم العيدان التي افترعوها وأمسكت السماء درها والأرض ريعها وقحل الضرع وجفز الفنيق وأسمل جلباب الدين وأبطلت الحدود وأهدرت الدماء وكان ربك بالمرصاد

---

(١) هو عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس .

فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها، وملكنا الله أمركم عباد الله لينظر كيف تعملون ؛ فالشكر الشكر : فانه من دواعى المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء وبغتات الفتن فانما نحن به وله .

٣ ــ ولما بويع السفاح صعد منبر الكوفة فقال

الحمد لله الذى اصطفى الاسلام لنفسه تكرمة وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا عزيزا عليه ماعنتنا حريصا علينا بالمؤمنين رءوفا رحيما ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقال « قل لاأسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » وقال « وأنذر عشيرتك الأقربين » وقال « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى » فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبا تكرمة لنا وفضلا علينا والله ذو الفضل العظيم .

وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم بم ولم أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنا

الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ورفع بنا الخسيسة وأتم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم واخوانا على سرر متقابلين فى آخرتهم. فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم. فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خماصا منها. ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

يأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا. أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم فى أعطياتهم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير[1].

٤ — قال ذلك وكان موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد عمه داود بن على فقام على مرقاة دونه فقال.

الحمد لله شكرا شكرا الذى أهلك عدونا وأصار إلينا

(١) بهذا لقب بالسفاح.

ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه وأخذ القوس باريها وعادت السهم إلى النزعة ورجع الحق إلى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تبا تبا لبنى حرب بن أمية وبني مروان آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد التى بها استلذوا تسربل الأوزار وتجلبب الآصار ومرحوا فى أعنة المعاصى وركضوا فى ميادين الغى جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بيانا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا للقوم الظالمين ، وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى

فضل خطامه فظن عدو الله أن لن نقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن استحنفر فيه شدة الوعك، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى .

يأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشأم ونقل إليكم السلطان وعز الاسلام ومن عليكم بامام منحه العدالة وأعطاه حسن الايالة فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فان الأمر أمركم فان لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا . ألا وإنه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسامه

إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

٥ — ولما حج أبو مسلم الخراسانى فى خلافة السفاح خطب بالمدينة فقال :

الحمد لله الذى حمد نفسه واختار الاسلام دينا لعباده ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ماأوحى واختاره من خلقه، نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه فى كتابه الناطق الذى حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حقه قوله « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله فى أهل بيته فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله عليه وآله على اللأواء والشدة وأغضى من أغضى على الاستبداد والأثرة. ثم إن قوما من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان ، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن بين ظهرانى قوم آثروا العاجل على الآجل والفانى على الباقى، إن رتق جور فتقوه أو فتق حق رتقوه أهل خمور وماخور وطنابير ومزامير إن ذكروا لم يذكروا أو قدموا إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات فى الشبهات، والمغانم فى المحارم، والفىء فى الغى هكذا كان زمانهم وبه كان يعمل سلطانهم وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم فلم وبم أيها الناس ألكم الفضل بالصحابة دون ذوى القرابة الشركاء فى النسب والورثة فى السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم فى الجدب جائعكم، والله مااخترتم من حيث اختار الله لنفسه

ساعة قط ومازلتم بعد نبيه تختارون تيميا مرة وعدويا مرة وأمويا مرة وأسديا مرة وسفيانيا مرة ومروانيا مرة حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته[١] يضربكم بسيفه فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون. ألا إن آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقوى القادة الذادة السادة بنو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزل جبريل بالتنزيل، كم قصم الله بهم من جبار طاغ وفاسق باغ شيد الله بهم الهدى وجلى بهم العمى لم يسمع بمثل العباس وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حق الحرمة؛ أبو رسول صلى الله عليه وسلم بعد أبيه وإحدى يديه وجلدة بين عينيه أمينه يوم العقبة وناصره بمكة ورسوله الى أهلها وحاميه يوم حنين عند ملتقى الفئتين لا يخالف له رسما ولا يعصى له حكما الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فى الاحزاب، ها إن فى هذا أيها الناس لعبرة لأولى الأبصار.

٦ — وخطب أبو جعفر المنصور[٢] بالمدائن عند قتل أبى مسلم فقال

أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تسروا غش الأئمة فانه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت فى آثار يده وفلتات لسانه وصفحات وجهه وأبداها الله لامامه بإعزاز دينه وإعلاء حقه؛ إنا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم

---

(١) يعنى نفسه لأنه مختلف فى اسمه أهو عبد الرحمن أم ابراهيم أم عثمان، ومختلف فى نسبه أهو عربى أم فارسى أم كردى، ومن جهل نسبه جهل بيته فهو يقصد بالبيت الأصل

(٢) هو أخو السفاح واسمه عبد الله مثله

إنه من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبي هذا الغمد، وإن أبامسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا علينا لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه .

٧ ـ ولما أخذ المنصور عبد بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب هو وأهل بيته من المدينة إلى العراق وألقاهم فى سجن الكوفة حتى ماتوا لامتناع عبدالله المذكور تسليمه اليه ابنيه محمداوابرهيم وادعائه جهله مكانيهما وكانت البيعة أواخر العهد الأموى لمحمد هذا، خطب فى أهل خراسان فقال بعد الحمد والثناء والصلاه

يأهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم والله الذى لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها على بن أبى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه. ثم قام من بعده الحسن بن على فوالله ما كان فيها برجل، قد عرضت عليه الأموال فقبلها فدس اليه معاوية انى أجعلك ولى عهدى من بعدى فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسين بن على فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق فى الفتن أهل هذه المدرة السوداء ـ وأشار إلى الكوفة ـ

نو الله ماهى بحوب فاحاربها ولا سلم فأسالمها فرق الله بينى وبينها فخذلوه وأسلموه حتى قتل. ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن على فناشده فى الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إنا نجد فى بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمى داود بن على وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة. ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا تره يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودفع بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه فأقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

فانى والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة. بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا اليهم تلك الأموال فوالله مابقى منهم شيخ ولا

شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك ، بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين

ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية ـ وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب .

٨ ـ ولما فعل المنصور فعلته تلك خرج عليه بالمدينة محمد بن عبد الله المذكور وقام على منبرها فقال بعد الحمد والثناء

أيها الناس انه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندة لله فى ملكه وتصغيره الكعبة الحرام وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار الموالين ـ ثم قال ـ اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيروا عهد نبيك ﷺ وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت فأحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق على الأرض منهم أحدا (١)

٩ ـ ولما قتل المنصور محمدا هذا وبعث برأسه إلى أبيه عبد الله فى السجن مع الربيع حاجبه قال عبد الله

رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يؤمنون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، ثم تمثل

---

(١) انتهى خروج محمد هذا بالمدينة وخروج أخيه ابرهيم بالبصرة بقتل المنصور كليهما .

فتى كان يحميه عن الذل سيفه ويكفيه سوءات الامور اجتنابها

والتفت إلى الربيع فقال « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ومن نعيمك مثلها والموعد الله تعالى » قال الربيع فما رأيت المنصور قط أكثر انكسارا منه حين أبلغته الرسالة

١٠ ـ وخطب المنصور يوم جمعة فلما قال « الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » قام رجل فقال أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فقطع الخطبة ثم قال « سمعا سمعا لمن فهم عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن اكون جبارا عنيدا وأن تأخذني العزة بالاثم لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين وأنت أيها القائل والله ما اردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر وأهون بها ويلك لو هممت فاهتبلها إذ غفرت وإياك وإياكم معشر الناس أختها فان الحكمة علينا نزلت ومن عندنا فصلت فردوا الأمر الى أهله توردود موارده وتصدروه مصادره » ،

فكأنه يقرؤها من كفه ثم عاد إلى خطبته يقول وأشهد ان محمدا عبده ورسوله أيها الناس اتقو الله . .

١١ ـ ولما انهزم عبد الله بن على عم المنصور بعد خروجه عليه بالشأم [١] وقدم عليه وفدها للاستعطاف قام الحارث بن عبد الرحمن الغفارى فقال

---

(١) كان سبب خروج عبد الله على المنصور مايزعمه من أن السفاح كان قد قال له « إن ظهرت على مروان الجعدي فأنت ولى العهد بعدي » وشهد له جماعة بذلك

يا أمير المؤمنين إنا لسنا وفد مباهاة وإنما نحن وفد توبة وإنا ابتلينا بفتنة استخفت كريمنا واستنزت حليمنا ونحن بما قدمنا معترفون ومما سلف منا معتذرون . فان تعاقبنا فبما أجرمنا وإن تعف عنا فبفضلك علينا فاصفح عنا إذ ملكت وامنن إذ قدرت وأحسن إذ ظفرت فطالما أحسنت الى من أساء منا .

فقال المنصور قد فعلت ثم قال للحرسي هذا خطيبهم وأمر برد ضياعه عليه بالغوطه .

١٢ ـ وكان عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى إمام أهل الشام يتردد على المنصور كطلبه ليعظه فكان مما قال له ذات مرة .

يا أمير المؤمنين إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ولما استطاع من عوراتهم ساترا وبالقسط فيما بينهم قائماء لا يتخوف محسنهم منه رهقا ولا مسيئهم عدوانا فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأتاه جبريل فقال « يا محمد ماهذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا » فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم . يا أمير المؤمنين إن المغفور له ماتقدم من ذنبه وماتأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فهبط جبريل فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك » . واعلم أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة

من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والارض لآذاهم فكيف من يتقمصه ، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الارض لآجنه فكيف بمن يتجرعه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال عمر بن الخطاب « لا يقوم أمر الناس الا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق فى الحق على جرة ولا تأخذه فى الله لومة لائم .

واعلم يا أمير المؤمنين أن السلطان أربعة أمير يظلف نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهدين فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الاكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك فى تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عملته الايدى، فأعيذك بالله أن يخيل اليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره فقد قال « ياصفية عمة محمد ويافاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إنى لا أغنى عنكما من الله شيئا » ،

وكان جدك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة فقال « أى عم نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها » نظرا لعمه وشفقة عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعا ولا عنه دفعا . قال ذلك ثم قال

هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وان رددتها فنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عليه . فقال المنصور بلى نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين .

١٣ ـ ولما تراجع المهدى (١) ووزراؤه وأهل بيته تدبير الرأى فى حرب خراسان كان مما قال المهدى فيما رآه رأيا استقر عليه . الخطب أيسر مما تذهبون اليه وعلى غير ما تصفون الامر عليه : انه لا بد لولى عهدى أن يقود الى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود يقدم اليهم رسله ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشيطا اليهم حنقا عليهم يريد ألا يدع أحداً من إخوان الفتن ودواعى البدع وفرسان الضلال إلا توطأه بحر القتل وألبسه قناع القهر وقلده طوق الذل ، ولا أحدا من الذين عملوا فى قص جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاة الحق الا أجرى عليهم ديم فضله وجداول نيله فاذا خرج مزمعا به مجمعا عليه لم يسر إلا قليلا حتى يأتيه أن قد عملت حيله وكدحت كتبه ونفذت مكايده فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائرة الاهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظرا لهم وبرا بهم وتعطفا عليهم الى عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حجاجهم بيت الله الحرام وسلب تجارهم رزق الله الحلال .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد المهدى بن المنصور

ثم كان مما قال فى وصاة ولى عهده حين أزمع الشخوص الى خراسان.

أى بنى إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصبا ولمثنى أعطاف ارعيه غاية، فحسنتك شاملة وإساءتك نائية وأمرك ظاهر، فعليك بتقوى الله وطاعنه فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم بخلافهما فان الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه - الى أن قال بعد أن أوصاه بالكرامة فى الخاصة والعدل على العامه - ولا ينفكن فى ظل كرامتك نازلا وبعرى حبلك متعلقا رجلان أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل وحلم راجح ودين صحيح، والآخر له دين غير مغموز وموضع غير مدخول بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضع الكتب عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع آدابا نافعة وآثارا باقية من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشيره فى حربك وتدخله فى أمرك؛ فرجل أصبته كذلك فهو يأوى الى محلتى ويرعى فى خضرة جنانى؛ ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار أقواما يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد وأصحاب مناظرتك فيما تصدر، فسر على بركة الله أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يهدى الى الصواب قلبك، وهاديا ينطق بالخير لسانك.

١٤ - وأوصى الرشيد على بن المبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين فقال.

يأحمر إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه

فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه. وامنعه من الضحك إلا فى اوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه. ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباها فعليك بالشدة والغلظه.

١٥ ـ ولما عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكى على الشام لهياج العصبية بها فشخص اليها فى عدة وعدد ثم عاد وقد أعاد الامن والطمأنينة فيها دخل على الرشيد فقبل يديه ثم قال

الحمد لله ياامير المؤمنين الذى آنس وحشتى وأجاب دعوتى ورحم تضرعى وأنسأ فى اجلى حتى أرانى وجه سيدى وأكرمنى بقربه وامتن على بتقبيل يده وردنى إلى خدمته. فوالله إن كنت لأذكر غيبتى عنه ومخرجى والمقادير التى أزعجتنى فأعلم انها كانت بمعاصى لحقتنى وخطايا احاطت بى ـ الى ان قال بعد اطالة فى التزلف والتقرب ـ ان الله ياامير المؤمنين لم يزل يبليك فى خلافتك بقدر مايعلم من نيتك ويريك فى رعيتك غاية أمنيتك فيصلح لك جماعتهم ويجمع ألفتهم ويلم شعثهم حفظا لك فيهم ورحمة لهم وانما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بحبل مرضاتك والله المحمود على ذلك وهو مستحقه، وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشأم وهم منقادون لأمرك نادمون على ما فرط من معصيتهم لك متمسكون بحبلك نازلون على حكمك طالبون لعفوك واثقون بحلمك

مؤملون فضلك آمنون بادرتك : حالهم فى ائتلافهم كحالهم كانت فى اختلافهم ؛ وحالهم فى ألفتهم كحالهم كانت فى امتناعهم : وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمده لهم ؛ سابق لمعذرتهم ؛ وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم ؛ متقدم عنده لمسألتهم . وايم الله ياأمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم وقد أخمد الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مراقهم وأصلح دهاءهم وأولانى الجميل فيهم ورزقنى الانتصار منهم ، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة وتخوفهم منك ورجائهم لك — إلى أن قال بعد عد نعم الرشيد عليه وعجزه عن إيفائه بعض الشكر فى إطالة باسقة لهذا العجز — وأنا أسأل الله الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاق له . إذ كان الشكر مقصراً عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشيره ، أن يتولى مكافأتك عنى بما هو أوسع له وأقدر عليه وأن يقضى عنى حقك وجليل منتك فان ذلك بيده وهو القادر عليه .

١٦ — وخطب عبد الملك بن صالح بن على عم الرشيد بالشام وكان واليه عليها فى نفرة أرادها منهم فتثاقلوا فقال .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » يأهل الشام إن الله وصف إخوانكم فى الدين وأشباهكم فى الأجسام فحذرهم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » فقاتلكم الله أنى تصرفون ؛ جثث مائلة وقلوب طائرة ،

تشبون الفتن وتولون الدبر إلا عن حرم الله فانه دريئتكم، وحرم رسوله فانه مغزاكم، أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وثقالا او لأوسعنكم إرغاما ونكالا .

١٧ — ولما غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح لسعى كان به اليه بطمعه فى الخلافة حبسه وكان يستدعيه من الحبس أحيانا يؤنبه ويسمع منه فاستدعاه يوما ليسمع احتجاجه فيما بلغه عنه فدخل فسلم فلم يرد عليه فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا وخصما فقال الرشيد ولم قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال الرشيد وماذاك قال لم ترد على السلام، أنصف نصفة العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثارا للعدل واستعمالا للتحية ثم التفت نحو سليمان بن أبى جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك .

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

ثم قال أما والله لكأنى أنظر الى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع، وكأنى بالوعيد قد أورى نارا تسطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورءوس بلا غلاصم ،فمهلا مهلا فبى والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت اليكم الامور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل — فقال عبد الملك —

اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيته التى استرعاك، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب، فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم وتركت عدوك مشتغلا، فالله الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعد أن

بلائه ؛ بظن أفصح الكتاب لى بعضه أو ببغى باغ ينهس اللحم ويالغ الدم ؛ فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق فرجته كنت فيه كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته　　ببيانى ولسانى وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله　　زل عن مثل مقامى وزحل

فقال له الرشيد أما والله لولا الابقاء على بنى هاشم لضربت عنقك ثم رده إلى السجن فبقى به حتى أطلقه الأمين وعقد له على الشام

١٨ـ ولما كتب الأمين إلى داود بن عيسى واليه على مكة والمدينة يأمره بخلع المأمون والبيعة لموسى بن الأمين بعد أن أخذ كتابى الرشيد اللذين كانا بالكعبة وكان داود أحد الشهود عليهما جمع داود الناس وخطبهم مناديا بخلع الأمين ومبايعة المأمون فقال بعد الديباجه

أما بعد يأهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والاسرة والشركاء فى النعمة، إلى بلدكم يفد وفد الله وإلى قبلتكم يأم المسلمون وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق؛ لتنصرن المظلوم منهما على الظالم والمبغى عليه على الباغى والمغدور به على الغادر . ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر وخالف الشروط التى أعطاها من نفسه فى بطن البيت الحرام وقد حل لنا ولكم خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه والمغدور به . ألا

وانى أشهدكم أنى قـد خلعت محمد بن هرون من الخلافة كما خلعت قلنسوتى هذه من رأسى - ثم خلعها وقال - قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة؛ ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم - فقاموا اليه فبايعوه للمأمون وخلعوا الأمين

١٩ - ولما تولى الأمر عن الأمين وتسلل عنه الانصار إلى طاهر بن الحسين خطب من بقى معه فى بغداد فكان مما قال : الحمد لله الذى يرفع ويضع ويعطى ويمنع ويقبض ويبسط واليه المصير ؛ أحمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الأموال وحلول النوائب وتوفد المصائب؛ حمدا يدخر لى به أجزل الجزاء ويرفدنى أحسن العزاء؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته وأن محمدا عبده الأمين ورسوله الى المسلمين صلى الله عليه وسلم آمين رب العالمين : ثم أخذ يفصل ما ألم اليه فى ديباجته إلى أن قال - فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره، والسلام.

٢٠ - وخطب طاهر بن الحسين ببغـداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين فقال

الحمد لله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين . إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا بل اختار الله للخلافة إذ جعلها عمادا لدينه وقواما لعباده وضبط الأطراف وسد الثغور وإعداد العدة وجمع الفىء وإنفاذ الحكم ونشر العدل وإحياء السنة بعد إذبال البطالات والتلذذ بموبق

الشهوات . والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعى غرورها مختلب درة نعمتها ألف لزهرة روضتها كاف برونق بهجتها . وقد رأيتم من وفاء موعود الله عزوجل لمن بغى عليه، وما أحل بهمن بأسه ونقمته، لما نكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره، وغيره ناهية وعظة مؤدبه، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة واسلكوا مناحى سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قدحوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الالفة فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخره

٢١ ــ وخطب المأمون حين بلغه بخراسان قتل الأمين وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة فقال بعد الحمد والثناء والصلاه

أيها الناس إنى جعلت لله على نفسى إن استرعانى أموركم : أن أطيعه فيكم ولا أسفك دما عمدا لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ولا آخذ لاحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة تحرم على، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى الا ما كان فى الله وله، جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا. إني أفى رغبة فى زيادته أياى فى نعمتى ورهبة من مسألته اياى عن حقه وخلقه، فان غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا وأعوذ بالله من سخطه وأرغب اليه فى المعونة على طاعته وأن يحول بيني وبين معصيته

٢٢ ــ ولما دخل المأمون بغداد وتلقاه وجوه أهلها قال رجل منهم، ياأمير المؤمنين بارك الله لك فى مقدمك وزاد فى نعمتك وشكرك عن رعيتك، تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك وآيست أن يعاين مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقى فلا نرجوه . فنحن جميعا

ندعو لك ونثني عليك . خصب لنا جنابك وعذب ثوابك وحسنت نظرتك وكرمت مقدرتك . جبرت الفقير وفككت الاسير فانك ياأمير المؤمنين كما قال الاول

مازلت فى البذل والنوال وإطــلاق لعان بجرمه غلق
حتى تمنى البراء أنهم عندك أسرى فى القيد والحلق

ثانيا — حياتها

أقبل العصر العباسى والناس قريبو عهد بالبداوة، فيهم المقدرة على المشافهة والارتجال وفى ألسنتهم ملكة الفصاحة والبيان ؛ فالبادية هى البادية لم يصبها ما أصابها بعد من عى واستعجام، والأمصار مليئة بجالية العرب الذين ارتشفوا أفاويق البلاغة ولدانا واستدروا أخلافها يافعين وشبانا، وعلى رأس هؤلاء خاصة فى الذروة ممن ذكرنا : من الخلفاء وذوى القرابة القريبة أعماما وأبناء أعمام ومن العلويين أصحاب الحق الأصيل خارجين على أولئكم العباسيين أو ناقين ومن حولهم شيعة تشد أزرهم وتعمل على إنالتهم حقهم، ثم من الولاة والقواد عربا خلصا أو موالى متعربين . وهؤلاء جميعا قضوا قبل إقبال العهد فترة كانت الدعوة فيها سرية ضد الأمويين . لم يسروا عن أنفسهم فيها بقول ولم ينفسوا عن خناقهم بكلام هائمين فى البوادى أو متخفين فى الامصار . فما إن حان حين بنى مروان حتى كانوا فى خطابتهم كالقدر أخذ ماؤها فى الغليان فاضطرب وفار وصار حميا يصهر به مافى بطونهم والجلود .

وهذا بيان ماتناولت الخطابة فى ذلك وفى غيره من أغراض .

كان بنو العباس على جانب رفيع من قوة البيان وذرابة اللسان وحضور البديهة ومتانة الارتجال؛ يدلك على ذلك ماسلف من أبي جعفر المنصور إذ قطع عليه خطبة الجمعة بعض الحاضرين فقد قال ما قال كأنه يقرؤه من كفه ثم عاد إلى الخطبة بعد : يصل ما كان بما يكون، ويدلك عليه أيضا ما تقدم عن داود بن علي في تلك الخطبة القوية الضافية التي كانت منه إذ قطع الوعك على أبي العباس خطبته : وهذا داود المذكور يقول محسا عن أنفسهم أنهم أمراء الكلام « ألا وإنا لا ننطق بطرا ولا نسكت حصرا بل نسكت معتبرين وننطق مرشدين ونحن بعد أمراء القول فينا وشجت أعراقه وعلينا عطفت أغصانه ولنا تهدلت ثمراته؛فنتخير منه ما احلولى وعذب ونطرح منه ما املولح وخبث » ثم هم بعد كثرة كثيرة ملأت الامصار واحتلت المنابر والأعواد (١) .

---

(١) منهم الخليفتان الأخوان أبو العباس وأبو جعفر ومن بعدهما سائر الخلفاء إلى ما بعد العصر العباسي الأول؛ ومنهم عبدالله وداود وصالح وسليمان وعيسى من أعمام الخليفتين الأولين؛ ومنهم من أبناء هؤلاء الأعمام عبد الملك واسماعيل وعبد الله أبناء صالح وداود بن عيسى وجعفر ومحمد ابنا سليمان؛ ومن أبناء جعفر هذا سليمان وداود وأيوب إلى غير هؤلاء ممن قال الجاحظ فيهم «لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلال وفي العلم بقريش والدولة ورجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والاقدار الرفيعة وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يجلون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك .

بهذه الكثرة فى العدد وتلك القوة فى اللدد، كان بنو العباس نقمة ولعنة على الدولة الدائلة لا يزالون يذكرون اجتراءها على الدين واحتجانها الفيء وعدوانها على آل الرسول ؛ ويذكرون كيف كان جورها يقض منهم المضاجع ويرمض العيون، ثم يذكرون كيف كان غضبهم عليها لله حتى آتاهم من نصره ما أزال دولة الظلم وقضى على رجال الطغيان، فأبدل الأمة بهم دولة العدل ورجال الصلاح والاصلاح. إلى غير ذلك من المعانى التى أكثروا فيها تعفية لآثار بنى مروان وتثبيتا لهذا الملك الجديد ؛ وها أنت ذا تراها ماثلة فى كثير من خطبهم أول العهد. وقد تقدم منها خطبة السفاح وخطبة عمه داود بالكوفة وكذا خطبته وخطبة عمه عيسى بالشام ثم خطبة أبى مسلم بالمدينة عقب حجه.

وما كاد الداعى إلى استخدام الخطابة فى التعفية على الدولة الدائلة ينقضى بانقضاء عهد السفاح الذى أفناهم قتلا وتشريدا، ويحل بعده عهد المنصور، حتى ندت لها داع جديد هو استخدامها فى مقاومة العلويين ؛ فقد خرجوا على المنصور يطالبون الحق لأنفسهم لأنهم أبناء على الذى يقربهم إلى رسول الله كما يقرب العباسيين العباس، ثم هم بعد أبناء فاطمة البتول بنت رسول الله ؛ وللعامة الى أبنائها هوى متغلغل فى السواد. وقد هال ذلك أبا جعفر حتى حرمه الرقاد ففعل ما ذكرنا من القبض على عبد الله بن الحسن وآله وإيداعهم السجون، ووجه بالجيوش الى ولديه محمد بالمدينة وابراهيم بالبصرة للقضاء على خروجهما بالقضاء عليهما وقد كان. وفى خلال ذلك كانت تستخدم الخطابة من العلويين تسويغا للخروج وأداة لجمع الأنصار،

كما كانت تستخدم من المنصور تبيينا لعدم شرعية هذا الخروج وتبريرا للموقف الذى وقفه إزاءهم من قتال، مطيلا فى ذلك ومكثرا من الادلة والبراهين، على أن ذلك لم يكن لينتزع محبتهم من القلوب حتى قلوب قواده وعظماء دولته كأبى مسلم الخراسانى الذى قتله لميله الى هؤلاء ثم استغل الخطابة كما تقدم بعد هذا الحدث الخطير فى تفهيم الناس أنه لم يك فيه من المعتدين .

هذا الوادى وذاك كانا أزخر الاودية بتيار الخطابة، تجرى فيهما عظيم اللجة قوى الاندفاع . ثم كان كذلك فى واد ثالث اطرد وإياهما، هو استخدامها فى الثورات لتحميس الجيوش والنهوض بها الى ميادين القتال، أو لتثبيط همها والقعود بها حتى عن نصرة من يكون له فى نصرتها أمل ورجاء، وإليك فى هذا مثلين مما كان أيام الفتنة بين الأمين والمأمون.

أتى رجل طاهر بن الحسين وهو ناهض بجيشه الى جيش على بن عيسى بن ماهان فقال « أيها الأمير إن جندك قد هابوا هـــذا الجيش وامتلأت قلوبهم منه خوفا ورعبا فلو أقمت بمكانك ودافعت » فلم يسمع له طاهر الا ريثما خطب جيشه يقول « يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر إنكم لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر ؛ إن هؤلاء ضيعوا ما حفظتم وصغروا ما عظمتم ونكثوا الايمان التى رعيتم ؛ وإنما يطلبون الباطل ويقاتلون على الغدر والجهل ، أصحاب سلب ونهب ؛ فلو قد غضضتم الأبصار وأثبتم الاقدام قد أنجز الله وعـده وفتح عليكم أبواب عزه ونصره، فجالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النار عن دينكم، ودافعوا بحقكم باطلهم فانما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو

خير الحاكمين . ثم نهض به فدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقتل؛

وذهب عبد الملك بن صالح الى الشام فجمع أجنادها على نصرة الأمين ليده عليه فى إطلاقه من سجن أبيه وتوليته ؛ ثم سار بهم إلى الجزيرة فجمع رءوسها ووجوهها ؛ولكن ماإن تأهب بهما للمسير حتى قام رجل من أهل حمص فقال « يأهل حمص الهرب أهون من العطب والموت أهون من الذل، إنكم بعدتم عن بلادكم وخرجتم من أقاليمكم، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة، ألا وفى الشر وقعتم وإلى حومة الموت أنختم، إن المنايا فى شوارب المسودة وقلا نسهم النفير النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقترب الأجل » .وقام آخر من كلب فقال « يامعشر كلب إنها الراية السوداء والله ماولت ولاعدلت ولاذل نصرها ولاضعف وليها، وانكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان فى رقابكم ،وآثار أسنتهم فى صدوركم، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم وتخطوه قبل أن يضطرم، شامكم شامكم داركم داركم ، الموت الفلسطني خير من العيش الجزرى ، ألاوانى راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معى » ثم سار والحمصى فسار معهما عامة أهل الشام ؛ وحدث أن مات عبد الملك بن صالح ،فأقفل الحسين بن على بن عيسى بن ماهان وكان معه، جند الجزيرة الى بغداد . وإنه لما يذكر من تلاعب الخطابة بعقول الناس ما كان من الحسين هذا .فانه ما كاد يصل بغداد بهذا الجند المؤلب لنصرة الأمين حتى قام فيهم مناديا بخلعه يقول «يامعشر الأبناء إن خلافة الله لاتجاوز بالبطر و نعمه لاتستصحب بالتجبر والتكبر ،وإن محمدا

يريد أن يوتغ أديانكم وينكث بيعتكم ويفرق جمعكم وينقل عزكم الى غيركم، وبالله إن طالت به مدة وراجعه من أمره قوة ليرجعن وبال ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكروهه فى دولتكم ودعوتكم. فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم نوالله لا ينصره منكم ناصر الاخذل ولا يمنعه مانع الاقتل وما عند الله لأحد هوادة ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بايمانه » قال ذلك فاذا السامعون يمكنون له فى خلع الأمين وحبسه والبيعة للمأمون . وانا لذاكرون هنا وفى هذا الموضوع عينه ما هو أغرب من ذلك فى تلاعب الخطباء بالعقول: فقد حدث بعد هذا الخلع والحبس أن قام أسد الحربى [1] فقال « يامعشر الحربية هذا يوم له ما بعده إنكم قد نمتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم؛ وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسره فاذهبوا بذكر إطلاقه وفكه » واذا شيخ أقبل على فرس فصاح بالناس اسكتوا فسكتوا فقال « أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؛ قالوا لا قال فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم قالوا ماعلمنا قال فهل عزل أحدا من قوادكم قالوا معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال فما بالكم خذلتموه وأعنتم عدوه على اضطهاده وأسره . أما والله ما قتل قوم خليفتهم قط إلا سلط الله عليهم السيف القاتل والحتف الجارف؛ انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به » فنهضوا معه وقاتلوا الحسين فهزموا أصحابه وأسروه. ثم دخل أسد

---

(١) نسبة الى حربية محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله الراوندى قائد المنصور

الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده فى مجلس الخلافة . ولولا أن خلع الأمين كان قد أعلن بالأمصار وخاصة مكة كما تقدم فى خطبة داود بن عيسى واليها ، وهجمت جيوش طاهر على بغداد وليس لأهلها نظام ؛ لما بعد أن يدوم انتفاعه بهذا الانتصار .

وللخطابة أغراض غير التى تقدمنا بها فى تلك النواحى الثلاث كانت فى العصر العباسى الأول ذات شأن واعتبار .

منها أن يتخذها المستعطف المترضى أداة يستل بها ما يخشى من سخائم القلوب وغضبات النفوس ؛ فلا يكاد يمتطيها فى هذا الميدان حتى تبلغ به الذى أراد وفوق الذى أراد. طالما حدثنا التاريخ اذ ذاك أنه كان يدخل بالمغضوب عليه على الغاضب وقلب الثانى على الأول حميم آن فيأخذ فى الترضى والاستعطاف فاذا هذا الحميم برد وسلام وإذا هو قد انتقل بنفسه لدى صاحبه من وهدة العقاب الى ذروة المكافأة والثواب ، وقد سبق ما كان من أبى جعفر المنصور للحارث الغفارى إذ استعطفه بعد خروجه عليه مع عمه عبد الله ، فشفع رضاه عنه برد ضياعه عليه . وهذه امرأة النفس الزكية تدخل على المنصور ومعها صبيان فتقول « ياأمير المؤمنين أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناه ، أيتمهما سيفك وأضرعهما خوفك فناشدتك الله ياأمير المؤمنين أن تصعر لهما خدك فينأى عنهما رفدك ، أو لتعطفك عليهما شوابك النسب وأواصر الرحم » فلا يتمالك أن يلتفت إلى الربيع فيقول اردد عليهما ضياع أبيهما ثم يقول كذا والله أحب أن تكون نساء بنى هاشم بل هذا جعفر الصادق يدخل به عليه اذ مر بالمدينة من حجه وقد طلبه ليقتله فيسلم فيرد عليه

« لاسلم الله عليك ياعدو الله تعمل على الغوائل فى ملكى » فيقول جعفر «ياأمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر وإن أيوب ابتلى فصبر وإن يوسف ظلم فغفر وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم »فينكس أبو جعفر رأسه مليا ثم يرفعه قائلا « إلىّ أبا عبد الله فأنت القريب القرابة ذو الرحم الواشجة السليم الناحية القليل الغائلة » ثم يصافحه بيمينه ويعانقه بشماله ويجلسه معه على فراشه منحرفا له عن بعضه ويقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله، ثم يقول يا ربيع عجل لابى عبد الله كسوته وجائزته واذنه . ومن بعد أبى جعفر طالما استعطف الخطباء الخلفاء فذللوا بقولهم غفران عظائم الذنوب وتخطوا ذلك إلى الحظوة برد ماصودر من أموالهم زائدا أسنى العطايا وأجزل الصلات كما فعل المأمون مع عمه ابراهيم (١) وكما فعل المعتصم مع تميم بن جميل (٢) وغير هذين وهذين كثير .

ومنها أن يتخذها المتوعد المتهدد أداة سخط وعقاب وسوط نقمة وعذاب، حتى لترتعد فرائص من أمامه خوفا وفرقا ويطير لبه مما يسمع رعبا وجزعا، استمع إلى داود بن على يقول وقد بلغه أن قوما أظهروا اشكاة

(١) لما عهد المأمون من بعده إلى على بن موسى الرضا من العلويين وسمع العباسيون ذلك أنكروه وخلعوه وبايعوا عمه ابراهيم هذا فطلبه المأمون فهرب وتوارى فجد فى طلبه حتى قبض عليه. ولم نذكر استعطافه لطوله .

(٢) كان تميم قد خرج على المتعصم بشاطىء الفرات وعظم أمره، فوجه إليه المعتصم مالك بن طوق فظفر به وحمله موثقا إلى المعتصم. ولم نذكر استعطافه لطوله أيضا .

أبي العباس السفاح فقال « أغدرا يأهل الختر والتبديل؛ ألم يردعكم الفتح المبين عن الخوض فى ذم أمير المؤمنين ، كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم ؛ كيف قامت شفاهكم بالشكوى من أمير المؤمنين بعد أن حانت آجالكم فأرجأها وانبعثت أماؤكم فحقنها ؛ الآن يامنابت الدمن مشيتم الضراء ودببتم الخمر ، أما ومحمد والعباس إن عدتم لمثل مابدأتم لأحصدنكم بظبات السيوف ثم يغنى ربنا عنكم ونستبدل غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » وفى مثل هذا المعرض يقول أبو جعفر المنصور «أحرز لسان رأسه ؛ تنبه امرؤ لحظه نظر امرؤ فى يومه لغده ، فمشى القصد وقال الفصل وجانب الهجر - ثم يقول وقد أخذ بقائم سيفه - أيها الناس إن بكم داء هذا دواؤه وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به ؛ فانما بعد الوعيد الايقاع وانما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله »

وبين حالتى الترضى والتوعد كان ذو المكانة والسلطان ؛ يستخدم الخطابة فى معاتبة من ارتكب معه عصيانا فقدر عليه ، وأعقب هذه القدرة بصفح منه وغفران ؛ لمنزلة سالفة وخدمة مرجوة، فان لسانه حينئذ يعمد الى منطق الشدة والتجبر ولكن قلبه يأبى الاشوب الكلام بعامل الرحمة والحنان فيأتى قوله لذلك بين الشدة واللين كالذى كان من الامين للحسين بن على بن عيسى إذ قال « ياحسين ألم أقدم أباك على الناس وأوله أعنة الخيل وأملأ يده من الأموال وأشرف أقداركم فى أهل خراسان وأرفع منازلكم على غيركم من القواد. قال بلى ، قال فما الذى استحققت به منك أن تخلع طاعتى وتؤلب الناس علىّ ،

وتندبهم الى قتالى قبل الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله قال فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك وولاك الطلب بثأرك ومن قتل من أهل بيتك» (١) ثم دعا له بخلعة فخلعها عليه وحمله على مراكب وأمره بالمسير الى حلوان ولكنه إذ خرج هرب فى نفر من خدمه ومواليه فنادى الامين فى الناس — إذ لم يعد هناك موضع لعفو — فركبوا فى طلبه فأدركوه وقتلوه. وكذى كان من المأمون للفضل ابن الربيع (٢) إذ ظفر به فقد قال له «يافضل أكان من حقى عليك وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبني وتسبني وتحرض على دمى، أتحب أن أفعل بك ما فعلته بى» فقال يا أمير المؤمنين إن عذرى يحقدك اذا كان واضحا جميلا فكيف إذا حفته العيوب وقبحته الذنوب، فلا يضيق عنى من عفوك ما وسع غيرى منك فأنت كما قال الشاعر فيك

صفوح عن الاجرام حتى كأنه ... من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالى أن يكون به الأذى ... إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

ثم منها أن تكون أداة الحوار بين الخصماء الألداء أو المتحابين الأصفياء أو الراغبين فى التصافح من البلغاء، فترى فيها حيث الخصام نارا وجحيما وحيث التحاب جنة ونعيما وحيث الرغبة فى التفاصح علوا

---

(١) يعنى أخذه بثأر أبيه من طاهر بن الحسين فانه قتله وبعض أهل بيته كما تقدم.

(٢) كان أول المناصرين للأمين لأنه من أبناء العرب وكانت ضلع الأمين معهم لعربية أمه وضلع المأمون عليهم مع الفرس لفارسية أمه.

فى البلاغة كبيرا . فأما حوار الخصومة فقد سمعت منه فيما سبق بين الرشيد وعمه عبد الملك ، السؤال المفحم والرد المقنع. وأما حوار التحاب والتواد فاليك منه ماحدث به سعيد بن مسلم بن قتيبة قال، دعا المنصور بالربيع فقال له ياربيع سلنى ما تريد فقد سكت حتى أنطقت وخففت حتى أثقلت وقللت حتى أكثرت، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أرهب بخلك ولا أستقصر عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتنم مالك، وإن يومى بفضلك على أحسن من أمسى وغدك فى تأميلى أحسن من يومى ، ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك أحد، قال صدقت علمى بهذا منك أحلك هذا المحل فسلنى ما شئت قال أسألك أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه قال ياربيع إن الحب ليس بمال يوهب ولا رتبة تبذل وإنما تؤكده الأسباب، قال فاجعل لى طريقا إليه بالتفضل عليه قال صدقت وقد وصلته بألف درهم ولم أصل بها أحدا غير عمومتى لتعلم ماله عندى فيكون منه ما يستدعى به محبتى ، ثم قال وكيف سألت له المحبة ياربيع قال لأنها مفتاح كل خير ومغلاق كل شر تستر بها عندك عيوبه وتصير حسنات ذنوبه قال صدقت .

أما حوار التفاصح فخذ منه ماروى من أن خالد بن صفوان دخل على السفاح وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب [١] فقال ماتقول فى أخوالى فقال ، هم هامة الشرف وعرنين الكرم وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت فى غيرهم من قومهم لأنهم أطولهم لما وأكرمهم

---

(١) أم السفاح ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان بن الديان الحارثى ولذا يقال له ابن الحارثيه .

شيما وأطيبهم طعما وأوفاهم ذمما وأبعدهم همماء الجمرة فى الحرب والرفد فى في الجدب والرأس فى كل خطب وغيرهم بمنزلة العجب . فقال وصفت أباصفوان فأحسنت فزادأخواله فى الفخر حتى غضب لأعمامه فقال ؛ افخر ياخالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أعمامه فقال «وكيف أفاخر قوما بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد ، دل عليهم هدهد وغرقهم جرذ وملكتهم امرأة .فأشرق وجه أبى العباس.

ولقد كانت الخطابة مركبا ذلولا فى التعازى والتهانى يبلغ به المعزون أرفع مراتب الصبر ويصل به المهنئون أبهج درجات البشر . ذكر الطبرى أنه لما ماتت الياقوتة بنت المهدى جزع عليها جزعا لم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه وأمر ألا يحجب عنه أحد فأكثر الناس فى التعازى فأجمع من حضر على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة (١) له إذ قال « أعطاك الله يا أمير المؤمنين على مارزئت أجرا وأعقبك صبرا، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة، ثواب الله خير لك منها ورحمته خير لها منك ؛ وأحق ما صبر عليه مالا سبيل إلى رده . وقد ذكرنا فيما سلف من نماذج تهنئة أحد وجوه بغداد للمأمون حين دخلها بعد قتل الأمين . وكثيرا ما كان يجمع بين التعزية والتهنئة فى الخلافة وفى غير الخلافة .فمن الاول ماذكر فى صبح الاعشى من أن أعرابية تعرضت للمنصور عقب وفاة السفاح فقالت «ياأمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب فى الحالين وأعظم عليك المنة فى الحادثين ؛ سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله فسلم فيما سلبك واشكر فيما منحك ، تجاوز الله عنك ياأمير المؤمنين

(١) هو ابن عم خالد بن صفوان المنقرى .

وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين» ومن الثانى ماذكر من أن عبد الملك بن صالح دخل دار الرشيد ـ قبل غضبه عليه ـ فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بابن له وولد له آخر فلما دخل عليه قال « سرك الله ياأمير المؤمنين فيما ساءك ولا ساءك فيما سرك وجعل هذه بهذه مثوبة على الصبر وجزاء على الشكر »

ولقد اتخذ ذوو اللسن الخطابة رقى سحرية يتزلفون بها إلى أولى الامر والنهى يغزون منهم القلوب ويحتلون السويداء بما يرتلون من آيات مدح وينظمون من عقود ثناء، قال الحسن بن سهل للمأمون يوما: « الحمد لله ياأمير المؤمنين على جزيل ماآتاك وسنيّ ماأعطاك إذ قسم لك الخلافة ووهب لك معها الحجة ومكنك بالسلطان وحلاه لك بالعدل وأيدك بالظفر وشفعه لك بالعفو وأوجب لك السعادة وقرنها بالسيادة؛ فمن فسح له فى مثل عطية الله لك؟ أم من ألبسه الله من زينة المواهب ماألبسك؛ أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك أم هل حاولها أحد وارتبطها بمثل محاولتك؛ أم أى حاجة بقيت لرعيتك لم يجدوها عندك، أم أى قيم للاسلام انتهى الى عنايتك ودرجتك. تعالى الله تعالى ما أعظم ما خص القرن الذى أنت ناصره، وسبحان الله أى نعمة طبقت الارض بك. إن الله تعالى خلق السماء فى فلكها ضياء يستنير بها جميع الخلائق؛ فكل جوهر زها حسنه ونوره فهل لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك؛ وكذلك كل ولى من أوليائك سعد بأفعاله فى دولتك وحسنت صنائعه عند رعيتك فانما نالها بما أمدته من رأيك وتدبيرك وأسعدته من حسنك وتقديرك.

ولقد صار الحسن وزيرا للمأمون وتزوج المأمون من ابنته بوران .

وقيل للمهدى عن شبيب بن شيبة للايقاع به إن شيبا يستعمل الكلام ويستعد له فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح فأمر رسولا فأخذ بيده حتى أصعده المنبر وقال خذ فى مدح أمير المؤمنين فحمد الله وأثني عليه وصل على نبيه حق الصلاة عليه ثم قال « أيها الناس ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة الأسد الخادر والبحر الزاخر والقمر الباهر والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبه منه بأسه ومضاءه وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءه وأما الربيع الناضر فأشبه منه حسنه وبهاءه ثم نزل وهو يقول .

وموقف مثل حدالسيف قمت به أحمى الذمار وترميني به الحدق

فما زلقت وما ألقيت كاذبة إذا الرجال على أمثاله زلقوا

فكان بعد هذا أعز على أمير المؤمنين قبله .

وكثيرا ما كانت إجالة الرأى فى مهام الأمور على ألسنة ذوى البصائر والعقول ، تلبس الأسلوب الخطابى فيقف كل مدل برأيه موقف الخطيب يجود لفظه كما يمحص معناه ويعمل على التأثير بالقول كما يؤثر بالفكر وإن كان الموقف موقف مشاورة لايعدو الرغبة فى الوصول إلى أحزم الآراء. وعندك فى هذا ماصدر عن المهدى وأهل بيته ورجالات دولته من تدبير الرأى فى حرب خراسان وهو كثير وقد دلف منه بعض ما كان من المهدى فى إبداء رأيه ووصايته لولى

عهده موسى الهادى ؛ وهذا بعض ما كان من موسى هذا فى ذات الموضوع وهو وحده من لم يسبق لنا عنه دون سائر الخلفاء إلى المأمون اختيار قال « أيها المهدى لا تسكن إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ؛ الحال من القوم ينادى بمضمرة شر وخفية حقد ؛ قد جعلوا المعاذير عليها سترا واتخذوا العلل من دونها حجابا ؛ رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأمور بالتطويل فيكسروا حيل المهدى فيهم ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتتلاحق مادتهم وتستفحل حربهم وتستدر الأمور بهم ؛ والمهدى من قولهم فى حال غرة ولباس أمنة قد فتر لهـا وأنس بها وسكن إليها » إلى أن قال « والرأى للمهدى وفقه الله ألا يقيل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ويستحر بهم القتل ويحدق بهم الموت ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل ؛ فان فعل بهم ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم وهزيمة لكل بادرة شر منهم واحتمال المهدى فى مئونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة » .

ولم تقف الخطابة إبان ازدهارها فى هذا العصر أن تكون ذات باع يطول وقوة تجول فى نواحى الوصايا والنصائح والعظات وهذه كلمات ثلاث تكاد تكون متحدة المدلول ولكنا عطفنا بعضها على بعض عطف تغاير على أمل التفرقة بينها فى المراد .

فأما الوصايا فانا نقصد بها ما جاوز ناحية التزهيد وكان من كبير بشأن صغير تربطهما لحمة قرابة ونسب ؛ وإنما أقحمنا كلمة شأن لتشمل

ما وجه الخطاب فيه لغير الموصى به ولكنه من أجله يكون كوصية الرشيد السابقة للأحمر مؤدب ولده الأمين و كوصية السيدة زبيدة على بن عيسى حين الذهاب لقتال المأمون من قبل ابنها الأمين إذ تقول « يا على إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى إليه تناهت شفقتى وعليه تكامل حذرى، فانى على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ؛ وإنما ابنى ملك نافس أخاه فى سلطانه وغاراه على ما فى يده فاعرف لعبد الله حق والده وأخوته ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيره ولا تقتسره اقتسار العبيدولا ترهنه بقيد ولا غل ولا تمنع منه جارية ولا خادما ولا تعنف عليه فى السير ولا تساور فى المسير ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه؛ وإن شتمك فاحتمل منه وإن سفه عليك فلا تراده » وطوال الوصايا فى هذا العصر كثيرات كوصايا أبى جعفر المنصور لولى عهده المهدى و كوصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله إذ ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما .

وأما النصائح فهى كالوصايا فى مجاوزتها ناحية التزهيد ولكنها تخلو من قيد الرابطة فى القرابة والسن، ومثلها فى هذا العهد ما حدث من يزيد بن عمر بن هبيرة إذ دخل يوما على أمير المؤمنين المنصور فقال له حدثنا فقال « يا أمير المؤمنين إن سلطانكم حديث وإمارتكم جديدة فأذيقوا الناس حلاوة عدلها وجنبوهم مرارة جورها فو الله يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة » وكذلك قوله له أيضا « يا أمير المؤمنين توسع توسعا قرشيا ولا تضق ضيقا حجازيا ».
« وكثيرا ما وجهت النصائح فى هذا العصر توجيها عاما لفشو الحكمة

فيه كقوله مسلم بن قتيبة « لاتطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة ، لا تطلبها إلى الكذاب فانه يقربها وهى بعيدة ويبعدها وهى قريبة ؛ ولا تطلبها إلى الأحمق فانه يريد أن ينفعك وهو يضرك ، ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأكلة فانه يجعل حاجتك وقاء لحاجته » والنصائح على العكس من الوصايا يغلب فيها الايجاز .

أما العظات فهى خلو من القيدين السالفين وإنما قيدها أن ترمى إلى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة بمختلف الطرق وشتى الأساليب كالذى رأيته فيما اخترنا بالنماذج من عظة الأوزاعى للمنصور وهى من العظات الطوال ؛ ومن قصارها ما كان من ابن السماك إذ دخل على الرشيد يوما؛ وبينا هو عنده إذ استسقى الرشيد ماء فأتى بقلة فلما أهوى بها إلى فيه ليشرب قال له ابن السماك « يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها قال بنصف ملكى قال اشرب هنأك الله؛ فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال بجميع ملكى؛ قال فما اغترارك بملك قيمته بولة » فبكى هرون وانصرف ابن السماك .

تلك أهم النواحى التى توضح ما كان للخطابة فى العصر العباسى الأول من أغراض يرمى إليها الخلفاء وغير الخلفاء سوى ما كان من الخطب الدينية فى الجمع والمواسم يلونها بأنفسهم فيحفلون بها ويطيلون وقلما تصدر منهم فى هذه الناحية القصار وهذا نموذج من قصارها يوم

جمعة عن محمد بن سليمان بن على عامل البصرة فى خلافة المنصور إذ لا يتسع المقام لطوالها قال .

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى وسعد فى الآخرة والأولى ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسرانا مبينا . أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويتجنب سخطه فانما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله . فان تقوى الله أفضل ما تحاث الناس عليه وتداعوا إليه وتواصوا به فاتقوا الله ما استطعتم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

هذا وإن فيما قدمنا من نماذج خالصة وأخرى شبنا بها الكلام على الأغراض لمرءاة ترينا أن الخطابة فى العصر العباسى الأول قد ارتفعت إلى درجة من البيان لا تقل إن لم تزد عما كان لها فيه عهد الأمويين ؛ذلك بأن رجالها فيه كانوا كرجال العصر المذكور من حيث السليقة العربية فى بيانهم وتوافر الدواعى إلى الكلام أمامهم ثم هم على ذلك يغلب فيهم العنصر الهاشمى ولبنى هاشم فى ميادين القول سبق لا ينال . وأهم الطوابع التى تميز بها الخطابة هذا العصر بعد شمول أغراضها كما سلف هو ما نسوقه الآن على سبيل الاجمال .

١ — طبعها بطابع دينى لاتزال تعتز به وتستمد منه وهذا أمر

ماكان لرجالها عنه فكاك ماداموا يعتقدون أنهم جند الله المؤزرون للقضاء على دولة الظلم وإقامة معالم الدين، ولذلك امتلأ كلامهم بجور بنى أمية واجترائهم على الحرمات والتحدث عن أنفسهم حديث الحاكمين العادلين ومن هنا عادوا إلى التعهد للسامعين بمثل ما كان يتعهد به الخلفاء الراشدون كما رأيت فى خطب السفاح والمنصور وأعمامهما وكما هو ثابت فى خطب من بعدهم من الخلفاء وقد تقدمت منها واحدة المأمون .

٢ — كثرة الاستعانة فيها بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا ، ومن أقدر من بني هاشم فى دينهم وعدالتهم وقوة عارضتهم وفصاحتهم أن يكونوا لآيه مستغلين فى شن الغارة على بنى أمية ومن كانوا لهم أنصارا ومشايعين وقد كانت الآيات تواتيهم كما يواتى الذلول عن طواعية واختيار حتى تسنى لكثير منهم فى بعض مواقفه أن يجعل جل خطبته من القرآن . خطب المنصور بمكة بعد بناء بغداد فقال « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون، أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل، والحمد الذى أفلج حجته وبعدا للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضا والفىء إرثا وجعلوا القرآن عضين ، لقد حاق بهم ماكانوا به يستهزئون فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة وعندوا واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ». وعلى وتيرتها كانت خطبة عبد الملك بن صالح فى أهل الشام وقد ذكرت بالنماذج.

٣ـ وكذلك كثرة الاستشهاد بالشعر وإن لم تفضل فيه خطابة الأمويين خطب داود بن على فقال « أيها الناس حتام يهتف بكم صريخكم ، أما آن لراقدكم أن يهب من نومه كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون أغركم الامهال حتى حسبتموه الاهمال هيهات منكم وكيف بكم والسوط كفى والسيف مشهر .

حتى تبيد قبيلة فقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
وتقوم ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الايتام

وخطب صالح أخوه فقال « يا أعضاد النفاق وعبد الضلالة أغركم لين أساسى وطول إيناسى حتى ظن جاهلكم أن ذلك لفلول حد وفتور جد وخور قناة ؛ كذبت الظنون إنها العترة بعضها من بعض فاذا قد استوليتم العافية فعندى فطام وفكاك وسيف يقد الهام وإنى أقول .

أغركم أنى بأكرم شيمة رفيق وأنى بالفواحش أخرق
ومثلى إذا لم يجز أحسن سعيه تكلم نعماه بفيها فتنطق
لعمرى لقد فاحشتنى فغلبتنى هنيئا مريئا أنت بالفحش أرفق

٤ ـ السهولة البادية فى وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع بقائها جزيلة الأسلوب قوية الأداء ؛ نتيجة للحضارة التى صقلت اللغة كما صقلت كل شيء فأصبحت الكلمات الغريبة فيها قليلة الوجود ، والتراكيب العسيرة بها نادرة الاستعمال ، ثم خطت نحو مزاوجة الجمل وتساوى الفقرات خطوات كانت الاساس لما بنى بعد من محسنات ، وإن فيما قرأت لها لشواهد على ما ذكرنا كثيرات كخطبة شبيب فى المدح على أنى أزيد هنا شاهدا مما كان آخر هذا العصر الأول يؤذن بما كان

مقدورا للنثر بعــده من صناعات . دخل رجل على المأمون يتظلم من عامل له فقال « ياأمير المؤمنين، ماترك لى فضة الافضها ولاذهبا إلا ذهب به ولاغلة إلا غلها ولاضيعة إلا أضاعها ولاعلقا إلا علقه ولاعرضا إلا عرض له ولاماشية إلا امتشها ولاجليلا إلا أجلاه ولا دقيقا إلا دقة » .

٥ـ ظهورها على ألسنة الموالى بجانب ظهورها على ألسنة العرب وذلك لما صار إليه الفرس من نباهة الشأن وتولى كثير من أزمة الحكم مع إجادتهم للعربية وحذقهم آدابها كما رأيت فيما اخترنا لأبى مسلم وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكى والحسن بن سهل وغيرهم ممن عهد اليهم بكبار الشئون. على أنه لايفوتنا التنبيه هنا عما ظهر فى خطب هؤلاء وأمثالهم من التعمل البادى فى الصياغة والخنوع الممعن فى الضراعة تأثرا منهم بما هو من طابع الفارسية وطباع أهلها ولذا يبدو على تراكيبهم فى بعض العبارات سقم أو استكراه لاتكاد تجد له من مثيل فى هذا العصر على ألسنة العرب الخالصين .

كان هذا شأن الخطابة فى العصر العباسى الأول حتى إذا ماأقبل العصر الثانى كانت قد ماتت الحاجة الى الدعاية ضد الأمويين بما عفا من آثارهم وتثبت من أقدام العباسيين، ومن كان فى نفسه هوى أموى توجه به إلى الأندلس حيث أسست الدولة الثانية لبني مروان، وبذلك أقفر الوادى الأول للخطابة وذهب داعيه ثم أعقبه إقفار الوادى الثانى وهو مقاومة العلويين لما قاموا به من هجرة الشرق الى المغرب الأقصى بعد أن أخفقوا فى خروجهم على أبى جعفر وخروجهم على

الرشيد وبعد أن أخفق المأمون فى عقد ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا منهم ثم جاء المتوكل معلنا على شيعتهم سيف البطش والجبروت وكذلك كان الخدم الاتراك. فبقوا فى المغرب الأقصى بين بنى مروان فى الاندلس والاغالبة فى أفريقية (تونس) وكلاهما يود لهم البقاء إلى أن ضعف أمر بنى العباس فزحفوا غربا إلى أن امتلكت الدولة الفاطمية مصر والشام. وبموت هذين الداعيين أقفر الوادى الثالث ونضب للخطابة أكبر معين. أما العيون الأخرى التى كانت تمد سائر الأغراض فقد جفت بعاملين جديدين أحدهما تجريد الخلفاء على أيدى الخدم الاتراك من السلطة الدنيوية التى كانت تجعلهم مرغوبين مرهوبين، وإذا ماتت الرغبة الى شخص والرهبة منه تقطعت بينه وبين الناس أواصر الكلام. وثانيهما ضعف أولئك الخدم فى المقدرة على الكلام وفى فهم مايلقى إليهم من بيان ضعفا حال بينهم وبين أن يسدوا ذلك الفراغ للخلفاء ومن كان على شاكلتهم من أعوانهم موالى الفرس المتعربين وبذلك تم القضاء تقريبا على كل ما كانت تتناول الخطابة فى غير الناحية الدينية من أغراض.

أما الناحية الدينية فقد استمر أولئك الخدم يسمحون للخلفاء فيها بكل ما يودون، فبقوا يزاولون الخطب فى الجمع والأعياد ويخرجون إلى هذه المواسم كما كان أسلافهم فى مواكب الأبهة والجلال [1] فبقى للخطب

«١» كانت هذه المواكب تسترعى أنظار الشعراء فيبدعون فى تصويرها ماشاء لهم البيان كما حدث من البحترى فى رائيته التى مطلعها

بالبر صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضية تفطر

الدينية فى هذا العصر على ألسنتهم وألسنة محاكيهم من فصحاء الولاة والعمال شبه ما كان لها فى سابقه من شأن واعتبار، ومما ساعد على هذا أن ذيل العفاء لم يك قد تم سحبه على ما للعربية من مكانة فى التخاطب العام ولذلك يذكر المؤرخون عن الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ أى قبيل انقضاء هذا العصر بسنوات أنه آخر خليفة له خطب كثيرة وأنه كان كسلفه الأول يجالس فى بيته العلماء والأدباء.

ولما أقبل العصر الثالث بسط آل بويه سلطانهم على بغداد بسطا لم يبق معه للخليفة إلا صورة الخلافة جوفاء: فقد سلبوا الخلفاء ما كان قد بقى لهم فى سابقه من نفوذ دينى فحالوا بينهم وبين الظهور فى المواكب للناس حتى ما كان للخليفة فى الدولة إلا مرتب يتسلمه كاتبه لنفقاته جعله معز الدولة للمستكفى بالله خمسة آلاف درهم كل يوم[1] فقطع بذلك المدد الروحى الذى كان للخطابة من كلام الخلفاء، ثم أخذ ضعف اللسان العامى يتناول الخاصة وأهل البادية بعد أن تناول السواد،

فقد أجاد فيها وصف موكب المتوكل فى خروجه الى المسجد ليصلى بالناس أحد أعياد الفطر كما أجاد وصف خطبته الواعظة فى هذا العيد وستأتى فى نماذج الشعر بعد.

«١» بدأ اضطهاد آل بويه للخلفاء منذ وجودهم ببغداد فان المستكفى الذى لقب أحمد بن بويه إذ دخلها بلقب معز الدولة كما لقب أخويه وأمر أن تضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير لم يبقه معز الدولة بعد ذلك إلا أربعين يوما ثم خلعه أشنع خلعة بجعل رجلين من أتباعه يجذبانه عن سريره ويجعلان عمامته فى عنقه إلى حيث اعتقل، على زعم أنه يدس عليه ويكيد له.

فقضى بذلك على المقدرة الخطابية العامة أتم قضاء وأصبحت الخطابة حرفة تسند فى بغداد بعد الخلفاء وفى سائر الحواضر بعد الولاة والعمال إلى علماء يختارون على سبيل التعيين ويلقب كل منهم بالخطيب

ثم جاء العصر الرابع فجرى الأمر فيه على ما كان فى الثالث من بقاء الحجر على الخلفاء وتعيين الخطباء من العلماء ولقد اشتهر من خطباء الحواضر فى العصرين رجال كانوا ذوى مقدرة على البيان وامتلاك لنواصيه، فأغنوا فى هذه الناحية غناء عظيما وصاروا امددا لمن هم دونهم ممن يلون الخطابة فى غير حواضرهم وفى سائر المدن وأمهات القرى حتى دونت خطب بعضهم فى دواوين [1] غير أن هؤلاء لقلتهم وللضعف الذى أخذ يحل بالعربية فى العصر الأخير لم يصدوا عن الخطابة الدينية ما اعتورها من خمول فقد سار القائمون بها فى طريق الاضمحلال مسرعين وكان أول ما بدا عليهم من ضعف عجزهم جملة عن الارتجال ثم عجزهم عن المشافهة بعد إعداد، فكانوا يدونون خطبهم ثم يلقونها على المنابر من أوراق. ولشد ما كان الخطب فادحا حينما عجزوا

«١» من هؤلاء على حسب سنى وفاتهم أبو يحيى بن نباتة خطيب سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ وله ديوان خطب مشهور طبع ببيروت . والخطيب البغدادى الحافظ أبو بكر أحمد بن على صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ . والخطيب التبريزى يحيى بن على الشيبانى المتوفى سنة ٥٠٢ . والخطيب الرازى عمر بن الحسين والد الفخر صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٢ . وزكى الدين الدمشقى خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤ . ثم خطيب الفسطاط ابراهيم بن منصور العراقى المتوفى سنة ٦١٣ ،

عن تحضيرها بأنفسهم وأخذوا يكتبون خطب غيرهم فيلقونها غير ملائمة للبيئة ولا مطابقة لمقتضيات الأحوال حتى كان من وراء ذلك أن هبت جماعات تضع خطبا لكل جمعة من جمع العام يملئونها بما ساد الكلام آخر العصر من أسجاع ولا يلمون فيها من نواحى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بشىء ذى بال على نحو ما كنا نسمع من جميع خطباء المساجد بمصر منذ فترة من تاريخنا الحديث وما نسمع الآن من مجموعهم فى هذا الوقت المقيم الذى حاد فيه بعض الخطباء الحديثين عما كان عليه إجماع سابقيهم حيدة نقابلها بالغبطة متمنين لها دوام التقدم وسرعة الذيوع والانتشار .

الكتابة

قلنا إن للغة جانبا أدبيا هو الخطابة والكتابة والشعر وآخر عاميا هو لغة التدوين والتصنيف ، وإننا سنسوق الكلام فيها على هذا الترتيب . وقد فرغنا من الكلام على الخطابة وآن أن نشرع فى الكلام على الكتابة جريا على مارسمنا من نظام غير أننا مضطرون فيها الى تصدير لم نضطر إلى مثله فى الخطابة هو سوق كلمة عن أنواعها فى هذا العصر الطويل فقد لبست فيه أثوابا عدة ذات تغاير فى الاشكال والألوان دفع اليها نظام العصر وأتم نسجها طول مداه .

فكانت منها الكتابة الديوانية وهى التى يتولاها رجال الدواوين على النحو الفنى الذى نراه فى كتبة الوزارات الآن . منها ديوان الرسائل والتوقيعات وديوان الخراج والنفقات وديوان الضياع والاقطاعات وديوان الجيش وديوان الشرطة وغيرها إلى مايشمل عدد المصالح العامة فى تصريف الأمور وهى مع اشتراكها جميعا فى ضم عدد من الكتبة يتولى عملا فنيا ، مختلفة بعضها عن بعض فى نوع الكتابة تبعا لاختلاف المهمة الملقاة على كل ديوان ، والنظام الكتابى الذى يقتضى إنجازها فيه ، حتى إن نقل كاتب من أحدها إلى غيره كثيرا ماتأباه طبيعة العمل الجديد لأن لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحذقها كتبته ولايلم بها الكاتب الجديد إلا بعد مران . غير أن الكتابة فيها جميعا ماعدا الأول لاتحتاج بعد معرفة فنيته الى روية وإجهاد ، إذ لاتعدو القيد فى الدفاتر أو التحرير عن غير مشقة فى الانشاء ، فهى خلو من المسحة الأدبية للغة

كما هي الآن . أما في ديوان الوسائل والتوقيعات فكانت ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع تتسامى إليه طوائف الكتاب .

وكان منها خارج الدواوين ماينشئه الكتاب على نمط مافى ديوان الرسائل وإن كانت إخوانيات ، ومايصورونه من القصص والمقامات ، ثم ما يدونه العلماء فى التأليف والتصنيف . ومع مالاغة العلمية من فنية مختلفة باختلاف العلوم والفنون وخاضعة كلها للطابع العلمى العام ، جاءت بعيدة عن الصبغة الأدبية بخلاف كتابة القصص والمقامات فانها ذات جانب أدبى رفيع فهى نظيرة مافى ديوان الرسائل كما أن الكتابة العلمية نظيرة مافى غيره من سائر الدواوين .

ولما كان الأدب وحياته ينظران الى الناحية الأدبية دون غيرها كانت الكتابة الانشائية فى الرسائل والتوقيعات وفى القصص والمقامات من أبحاثهما فى الصميم ، وكانت كتابة الدواوين الأخرى بعيدة عنهما البعد كله ، أما الكتابة العلمية فانهما يلمان بها الالمام اليسير لما هو معروف من صلتهما بكثير من العلوم والفنون . وعلى هـذا الذى يقتضيه الأدب وحياته سيقع منا الكلام مع تأخيرنا البحث عن التدوين والتصنيف الى مابعد الكلام على الشعر حتى يلتصق الجانب الأدبى فى المنظوم بجوانبه فى المنثور .

الكتابة الانشائيه

أولا – نماذجها

أ – فى الرسائل والتوقيعات

١ – لما خرج محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية على المنصور كتب إليه المنصور .

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم؛ ولك عهد الله وذمته وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك ومن تابعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهم وأنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ماشئت من الحاجات وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتتبع أحدا منكم بمكروه. فان شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

٢ – فكتب إليه محمد بن عبد الله . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد أما بعد « طسم

تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى، وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء، وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وأنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم [1] وبنو ابنته فاطمة فى الاسلام من بينكم فأنا أوسط بنى هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا، لم تلدنى العجم ولم تعرق فىّ أمهات الأولاد. وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علما وأكثرهم جهادا على بن أبى طالب، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى القبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولود فى الاسلام الحسن

«١» ينتهى نسبها إلى كعب بن لؤى وكانت زوجا لعبد المطلب بن هاشم فأولدها عبد الله أبا رسول الله وأبا طالب أبا العلويين واسمه عبد مناف ثم الزبير وعبد الكعبة .

والحسين سيدا شباب أهل الجنة[١] ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدى الحسن والحسين[٢] فما زال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار فولدنى أرفع الناس درجة فى الجنة وأهون أهل النار عذابا فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله إن دخلت فى بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك فى ذلك فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان، فأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على أم أمان أبى مسلم والسلام[٣].

٣ — فكتب إليه المنصور بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله

«١» أبوه عبد الله بن حسن بن حسن بن على، وأمه فاطمه بنت الحسين ابن على، فهو يرجع إلى رسول الله من الجهتين.

«٢» يرجع على إلى هاشم من قبل أبيه أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ومن قبل أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويرجع الحسن إلى عبد المطلب من قبل أبيه على بن أبى طالب ومن قبل أمه فاطمة بنت رسول الله، ويرجع محمد هذا إلى رسول الله من الجهتين كما تقدم.

«٣» هؤلاء الثلاثة أمنهم المنصور ثم غدر بهم، وابن هبيرة هذا هو يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراقين لمروان بن محمد.

عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء ؛ ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام « واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب » . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحدهما أبى وكفر اثنان أحدهما أبوك (١) فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه. فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب فان الله لم يهد أحدا من ولدها للاسلام ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الآخرة والأولى وأسعدهم بدخول الجنة غدا ولكن الله أبى ذلك فقال « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ؛ فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة ؛ وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله فان الله عز وجل أبى ذلك فقال « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ولكنكم بنوا بنته وإنها

«١» المجيبان حمزة والعباس والكافران أبو لهب وأبو طالب والثانى أهون أهل النار عذابا .

لقرابة قريبة غير أنها امرأة لاتحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلا فأبى الناس إلا تقديم الشيخين ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان فى أصحاب الشورى فكل دفعه عنها وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعد وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسامه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم فى يديه شيعته وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فان كان لكم فيها شىء فقد بعتموه. فأما قولك إن الله اختار لك فى الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس فى الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون. وأما قولك إنك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بنى هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا وقدمت نفسك على هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا، فخرت على ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غدا وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر، وهو خير منك. ولقد علمت أن جدك عليا حكم حكمين

وأعطاها عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه، ثم خرج عمك الحسين بن علي، على ابن مرجانه [١] فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطية كالسبي المجلوب إلى الشام، ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل علي أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا سالمين مسلما منهم وابتلي أبوك بالدماء. ولقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون اخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر عليه، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث. ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات عماك طالب وعقيل جوعا أو يلحسا جفان عتبة وشيبة [٢] فأذهب عنهما العار والشنار ولقد جاء الاسلام والعباس

---

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ومرجانة أمه .

(٢) يؤيد الكره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر «من لقي منكم العباس فلا يقتله فانه أخرج كارها » . وطالب وعقيل ابنا أبي طالب أسرا

يمون أبا طالب للأزمة التى أصابتهم ثم فدى عقيلا يوم بدر[١] فقد مناكم فى الكفر وفدينا كم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء وأدركنا من ثأركم ماعجزتم عنه ووضعنا كم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

٤ — وكتب عبد الله بن المقفع « المتوفى سنة ١٤٣ » وإمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الأول «طريقة الترسل» فى التعريف بكتابه كليلة ودمنة فكان مما كتب فى أول باب عرض الكتاب

هذا كتاب كليلة ودمنة وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ماوجدوا من القول فى النحو الذى أرادوا. ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل ويبتغون إخراج ماعندهم من العلل حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير فاجتمع لهم بذلك خلال: أما هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها. وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا فاختاره الحكماء لحكمته والسفهاء للهوه والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ماصار اليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ماهو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم وكان كالرجل الذى لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغني بها عن الكدح فيما يعمله من أمر

يوم بدر ، فكانا من الآكلين على جفان العباس، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من المطعمين لقريش يوم بدر .

(١) كما فدى نوفل بن الحارث أيضا أبا طالب ففدى نفسه.

معيشته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

٥ — ومما كتب فى الدرة اليتيمة وهى رسالة دونها الخليفة المنصور فى وجوب طاعة الناس لبنى هاشم ويسميها الجاحظ الهاشمية قوله على ماذكر أبو الفضل احمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ فى كتابه المنثور والمنظوم (١)

فتفكروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين فى معدنه وفى سيرته وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك وفيما عسى لقائل أن يبتغى فيه الغمز والمقال، فلعمرى إن الشيطان من أهواء الناس وألسنتهم فى الأمر لمصيب وإن له لمستراحا حين يستوفى أمنيته ويصدق عليهم ظنه ويوحى اليهم بمكايده، فجعل الله كيده ضعيفا وحزبه مغلوبا وجعله وإياهم نصيبا لجهنم من أجزائها المقسومة لأبوابها وحطبها ووقودها وحصبها ليعدل لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين فى معدنه فان أعظم حقوق الناس منزلة وأكرمها نسبة وأولاها بالفضل حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة وامام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهما وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بعثه الله

«١» الدرة اليتيمة مفقودة الآن ولم تعرف إلا بالتنبيه عنها أو النقل منها فى بعض الكتب، وأما الرسالة المطبوعة باسمها فى بيروت فهى الأدب الكبير أخذ اسم الدرة اليتيمة خطأ لأن مشتملاتها لا تتفق وما تذكر تلك الكتب عن مشتملات الدرة بل تتفق مع مشتملات الأدب الكبير المنوه عنها فى كثير من الكتب وهى السلطان ثم الصديق

بشيراً ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا ثم هو باعثه يوم القيامة مقاما محمودا؛ شرع الله له دينه وأتم به نوره ومحق به رءوس الضلالة وجبابرة الكفر وخوله الشفاعة وجعله فى الرفيق الاعلى ﷺ

٦ — ومما كتب فى رسالة الصحابة وهى رسالة دونها للخليفة المنصور أيضا لتكون دستورا فيما يجب على كل ذى مشاركة للسلطان فى عمل نحو هذا العمل حتى يحسن القيام به قوله: من أولها

أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة؛ فان أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والاستماع كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء ؛ ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص على أمورهم كما كان أولئك يكتفون بالدعة ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر فى الامتناع أن يجترىء عليهم أحد برأى أو خبر مع تسليط الديان، وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله ومكن له فى الارض وآتاه ملكها وخزائنها من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفتيش، والتأثل والاخلاد وأن يرضى ممن آوى بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه وذلك من أبين علامات السعادة وأنجح العوامل على الخير؛ وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الاحاديث وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه واخوته ؛ أثنى على الله عز وجل بنعمته ثم سلا عما كان فيه وعرف أن الموت ومابعده هو أولى فقال « توفني مسلما وألحقني بالصالحين ». وفي الذي قد عرفنا من

طريقة أمير المؤمنين مايشجع ذا الرأى على تناوله بالخبرة فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره وبالتذكير بما قد انتهى اليه ؛ ولا يزيد صاحب الرأى على أن يكون مخبرا أو مذكرا، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله.

٨٤٧ — ومما كتب فى الأدب الكبير وقد جعل بابه الاول فى السلطان والثانى فى الصديق وهو الكتاب المطبوع باسم الدرة اليتيمة خطأ كما تقدم قوله فى أول الباب الاول بعد الديباجه

إن ابتليت بالامارة فتعوذ بالعلماء ، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها فى ساعات دعته وشهوته. وإنما الرأى له والحق عليه أن يأخذ لعماله من جميع شغله فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه . فاذا تقلدت شيئا من الأعمال فكن فيه أحد رجلين: إما رجلا مغتبطا به فحافظ عليه مخافة أن يزول عنه، وإما رجلا كارها فالكاره عامل فى سخرة إما للملوك إن كانوا هم سلطوه وإما لله ان كان ليس فوقه غيره . وإياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وبابا يفتتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها ؛ واعلم ان قابل المدح كمادح نفسه والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده فان الراد له محمود والقابل له معيب

وقوله فى آخر الباب الثانى يصف صاحبا له

إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عيني ؛ وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان بطنه فلا

يشتهى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه فلا يدعو اليه مئونة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا : وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة . وكان أكثر دهره صامتا فاذا قال بذ القائلين ؛ وكان يرى متضاعفا مستضعفا فاذا جاء الجد فهو الليث عاديا ؛ وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشترك فى مراء ولا يدلى بحجة حتى يجد قاضيا عدلا وشهودا عدولا ؛ وكان لا يلوم أحدا على ماقد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ؛ وكان لا يشكو وجعا إلا الى من يرجو عنده البرء ؛ ولا يصحب الا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا ؛ وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ولا ينتقم من المولى ولا يغفل عن العدو ولا يخص نفسه دون اخوانه بشىء من اهتمامه بحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق ان أطقت ولن تطيق ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع

٩ ــ ومما كتب فى الأدب الصغير وهو آداب منثورة فى غير موضوع قوله عن صناعة الكتابة

ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره فتكلم به فى موضعه وعلى وجهه فلا ترين عليه فى ذلك ضئولة؛ فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدي للاقتداء بالصالحين ووفق للاخذ عن الحكماء ولا عليه أن يزداد فقد بلغ الغاية وليس بناقصه فى رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه فانما إحياء العقل الذى يتم به ويستحكم خصال سبع. الايثار بالمحبة والمبالغة فى الطلب والتثبت فى الاختيار والاعتقاد للخير وحسن الوعى والتعهد لما اختير واعتقد ووضع ذلك

موضعه قولا وعملا .

١٠ وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجه .

أما بعد فان من قضى الحوائج لاخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم ؛ والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لابد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده . وكتبت اليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة أول مافيها معروف تستوجب به الشكر علينا وتدخر به الايادى قبلنا

١١ — وكتب الى بعض أصدقائه وقد تفارقا يخبره ويستخبره.

كان من خبرى بعدك أنى قدمت بلد كذا فتهيأ لى بعض ماشخصت له والمحمود على ذلك الله عز وجل وانا الى أن يأتينى خبرك محتاج فاما جملة خبرى فى فراقك فقلبى مكة كل ماسواك حرام فيها .

١٢ — وكتب إلى صديق ولدت له جاريه.

بارك الله لكم فى الابنة المستفادة وجعلها لكم زينا وأجرى لكم بها خيرا.فلا تكرهها فانهن الامهات والاخوات والعمات ومنهن الباقيات الصالحات؛ ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم

١٣ — وكتب يعزى صديقا عن بنت له

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفا لك عما رزئته وعوضا من المصيبة به،ورزقك من الثواب عليها أضعاف مارزأك منها فماأقل كثير الدينا فى قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

١٤ — وكتب يعزى من ولد .

إنما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه فأنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى المرزئتين لك . أخلف الله عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب .

١٥ — وكتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنىء بمولود .

أما بعد فانه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهجا أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقك وعرفنى من جميل رأيك ؛ فزادك الله خيرا وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سريا أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثرت حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله بارا تقيا يشد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك .

١٦ — وكتب عمرو بن مسعدة وزير المأمون عن لسانه إلى الحسن ابن سهل يهنئه بمولود

أما بعد فان هبة الله لك هبة لامير المؤمنين وزيادته إياك فى عددك زيادة له فى عدده لمحلك عنده ومكانك من دولته ولكن بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سريا فبارك الله لك فيه وجعله بارا تقيا مباركا سيدا زكيا

١٧ — وكتب عن لسان المأمون أيضا إلى نصر بن شبث حين قويت شوكته وهزم جيوش الخلافة

أما بعد فانك يانصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها وبرد ظلها

وطيب مرتدها وما فى خلافها من الندم والخسارة . وإن طالت مدة الله بك فانه إنما يملى لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم وقد رأيت إذكارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به اليك موقع منك،فان الصدق صدق والباطل باطل وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يعنون به.ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك منى فى مالك ودينك ونفسك ولا أحرص على إنقاذك والانتياش لك من خطئك منى،فبأى أول أو آخر أو سابقة أو إمرة إقدامك يانصر على أمير المؤمنين تأخذ أمواله وتتولى دونه ماولاه الله وتريد أن تبيت آمنا مطمئنا أو وادعا ساكنا أو هادئا. فوعالم السر والجهر لئن لم تكن للطاعة مراجعا وبها خانعا لتستوبلن وخم العاقبة ثم لأبدأن بك قبل كل عمل فان قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة فى الأرض وفسادا كبيرا،أما لأطأن بمن معى من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ومن تأشب اليك من أدانى البلدان وأقاصيها وأوباشها ومن انضوى إلى حوزتك من خراب الناس ومن لفظه بلده ونفته عشيرته لسوء موضعه فيهم وقد أعذر من أنذر والسلام .

١٨ــوكتب محمد بن عبد الملك بن الزيات وزير المعتصم والواثق عن لسان الخليفة إلى أحد العمال

أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ولاتخلومن إحدى منزلتين ليس فى واحدة منهماعذر يوجب حجة ولايزيل لائمة، إما تقصير فى عملك دعاك للاخلال بالحزم والتفريط فى الواجب،

وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لاهل الريب، وأية هاتين كانت منك محاله النكر بك وموجبة العقوبة عليك لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة والتقدم فى الاعتذار والانذار وعلى حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والاضاعة والسلام .

١٩ـ وكتب إلى ابراهيم بن العباس الصولى أيام مقامه بالأهواز فى تقصيره بنفسه يقول

قلة نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة، وإغفالك حظك حطك عن الدرجة وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة، حتى صرت من قوة الأمل معتاضا شدة الوجل ؛ ومن رجاء الغد متعوضا يأس الأبد وركبت مطية المخافة بعد مجلس الامن والكرامة، وصرت معرضا للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة، وقد قال الشاعر

إذا ما بدأت امرأ جاهلا ببر فقصر عن حمله
ولم تره قابلا للجميل ولا عرف الفضل من أهله
فسمه الهوان فان الهوان دواء لذى الجهل من جهله

وقد فهمت كتابك وإغراقك وإطنابك وإضافة ما أضفت بتزويق الكتب بالاقلام وفى كفاية الله غنى عنك يا ابراهيم وعوض منك وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠ ـ وكتب ابراهيم بن العباس الصولى الى ذى نعمة يتوصل .
لا أزال أبقاك الله أسأل الكتاب اليك ، فمرة أتوقف توقف المخفف عنك من المئونة ومرة أكتب كتاب الراجع منك الى الثقة

والمعتمد منك على المقيل لا أعدمنا الله دوام عزك ولا سلب الدنيا بهجتها بك ولا أخلانا من الصنع لك،فانا لا نعرف الا نعتمك ولا نجد للحياة طعما الا فى ظلك،ولئن كانت الرغبة الى بشر من الناس خساسة وذلا لقد جعل الله الرغبة اليك كرامة وعزا لأنك لاتعرف حرا قعد به دهره الا سبقت مسألته بالعطية وصنت وجهه عن الطلب والذلة .

٢١ـ وكتب أبو عثمان عمرو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الثانى «طريقة الازدواج» من رسالة فى مدح التجار وذم عمل السلطان بعد أن ذكر احتجاج حشوة الاتباع يقول :

وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان. فأما عليتهم ومصاصهم وذوو البصائر والتميز منهم ومن فيقته الفطنة وأرهقه التأديب وأرهفه طول التفكير وجرى فيه الحياء وأحكمته التجارب فعرف العواقب وأحكم التفصيل وأنطق غوامض التحصيل فانهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكون لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة ويعلمون أنهم أورع الناس أبدا وأهنؤهم عيشا وآمنهم سربا لانهم فى أفنيتهم كالملوك على أسرتهم يرغب اليهم أهل الحاجات وينزع اليهم ملتمسو البياعات لا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم ولا يستعبدهم الضرع لمعاملاتهم وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه وقاربه بخدمته فان أولئك لباسهم الذلة وشعارهم الملق وقلوبهم ممن هم لهم خول مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل وصحبها ترقب الاحتياج فهم من هذا فى تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب

وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هي حات بهم وكثيرا ماتحل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلا عن الاولياء فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحديه وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الاثراء وقضاء اللذات من غير منة لأحد ولا منة يعتد بها وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الضيعة وطوق عنقه الامتنان واسترهن بتحمل الشكر.

٢٢ ـ ومن كلامه يصف الكتاب

الكتاب ـ نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعمدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء ملىء علما وظرف حشى ظرفا وإناء شحن مزاحا إن شئت كان أعيا من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل وإن شئت سرتك نوادره وشجتك مواعظه ومن لك بواعظ مله وبناسك فاتك وناطق أخرس، ومن لك بطبيب أعرابي وروى هندى وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشىء يجمع الاول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده. وبعد فما رأيت بستانا يحمل فى ردن وروضة تنقل فى حجر وناطقا ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ومن لك بمؤنس لاينام الا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من فى الأرض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعه.

ولا أعلم جارا آمن ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاية وعناية ولا أقل املالا ولا ابراما ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال من كتاب. ولا أعم بيدنا ولا أحسن مواتاة ولا أعجل مكافأة ولا شجرة أطول عمرا ولا أطيب ثمرا ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا ولا أوجد فى كل إبان من كتاب. ولا أعلم نتاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والامثال السائرة والامم البائدة مايجمعه كتاب. ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا ووروده خمسا وان شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك. والكتاب هو الجليس الذي لايطريك والصديق الذى لايقليك والرفيق الذى لايملك والمستمتع الذى لايستزيدك والجار الذى لايستبطئك والصاحب الذى لايريد استخراج ماعندك بالملق ولايعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق. والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك وشحذ طبعك وبسط لسانك وجود بيانك وفخم الفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك. يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفى السفر طاعته فى الحضر. وهو المعلم ان افتقرت اليه لم يحقرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وان عزلت لم يدع طاعتك وان هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقا منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة

إلى جليس السوء وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد فى تجربة وعقل ومروءه وصون عرض وإصلاح دين وتثمير مال ورب صنيعة وابتداء انعام ، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالتهم المذمومة لكان فى ذلك السلامة والغنيمة وإحراز الاصل مع استفادة الفرع ، ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المني واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهيه لقد كان له فى ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنن وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يمل لأنه وإن كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة فى خطابة والعلم بالشريعة والاحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير .

٢٣ — ومن كلامه فى محاسن الضحك ومنافعه وقد ساقه إليه الاستطراد فى مقدمة كتابه البخلاء .

وإذا كان البكاء ما دام صاحبه فيه فانه فى بلاء وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع وشبه الامة اللكعاء وبالحدث الضرع كذلك فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه . ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر

كأنه يضحك ضحكا وقد قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت وأنه لايضيف الى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لايكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا وهو شيء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق ، وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز ، واذا رموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا وهو مكفهر أبدا وهو كريه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار متى جازهما أحد وقصر عنهما أحد صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا،فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ولم يعيبوا المزح الا بقدر ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذى جعل له الضحك صار المزح جدا والضحك وقارا

٢٤ — وكتب الى الفتح بن خاقان فى يوم عيد مهنئا

أخرتني العلة عن الوزير أعزه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ويعمر ما أخلته العوائق منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الاعياد السالفة بركة على الوزير ودون الاعياد المستقبلة فيما يحب

ويحب له ، ويقبل ماتوسل به الى مرضاته ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية . ولا يريه فى مسرة نقصا ولا يقطع عنه مزيدا ، ويجعلنى من كل سوء فداءه ويصرف عيون الغير عنه وعن حظى منه .

٢٥ — وكتب الى قليب المغربى معاتبا :

والله ياقليب لولا أن كبدى فى هواك مقروحة وروحى بك مجروحة لساجلتك هذه القطيعة وماددتك حبل المصارمة ، وأرجو الله تعالى أن يديل صبرى من جفائك فيردك الى مودتى وأنف القلى راغم ، فقد طال العهد بالاجماع حتى كدنا نتنا كر عند اللقاء .

٢٦ — وكتب مستنجزا عدة طال مطلها .

أما بعد فقد رسفنا فى قيود مواعيدك وطال مقامنا فى سجون مطلك ، فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها ، بنعم منك مثمرة أو لامر يحة

٢٧ — وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٢٦٥ فى الشكر

من شكرك على درجة رفعته اليها أو ثروة أفدته اياها ، فان شكرى لك على مهجة أحييتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى اليه ومدى يوقف عنده وغاية من الشكر يسمو اليها الطرف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل غاية، رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود، فنحن نلجأ منك الى ظل ظليل وكنف كريم ،فكيف يشكر الشاكر وأين يبلغ جهد المجتهد.

٢٨ — وكتب أبو الحسن على بن العباس الرومى المتوفى سنة ٢٨٢ معتذرا

ترفع عن ظلمى إن كنت بريئا وتفضل بالعفو إن كنت مسيئا ، ووالله إنى لأطلب عفو ذنب لم أجنه وألتمس الاقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وأزداد تذللا ، وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك

٢٩ — وكتب عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ إلى عليل يرجو شفاءه

أذن الله فى شفائك وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ووجه وفد السلامة اليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك.

٣٠ — وله يذكر كيف يكون اكتساب المحامد واستيجاب الشرف

لن تكسب أعزك الله المحامد وتستوجب الشرف إلا بالحمل على النفس والحال والنهوض بحمل الأثقال وبذل الجاه والمال ، ولو كانت المكارم تنال بغير مئونة لاشترك فيها السفل والأحرار وتساهمها الوضعاء من ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص بها الكرماء الذين جعلهم أهلها فخفف عليهم حملها وسوغهم فضلها ، وحظرها على السفلة لصغر أقدارهم عنها وبعد طباعهم منها ونفورها عنهم واقشعرارها منهم .

٣١ — وكتب أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الثالث « السجع » إلى عضد الدولة فى انقراض العلوم بتملك الجهلة الظالمين ونمائها بتملك العلماء العادلين ، رسالة كان من فصولها قوله :

وقد يعد أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض

مدها وانتقاض مررها والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها ؛ الطوفان بالنار والماء ، الموتان العارض من عموم الاوباء ، وتسلط المخالفين فى المذاهب والآراء ، فان كل ذلك يخترم العلوم اختراما وينتهكها انتهاكا ويجتث أصولها اجتثاثا ، وليس عندى الخطب فى جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته وتتسع قدرته فان البلاء به لا يعد له بلاء . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة فى تملك سلطان عالم عادل كالامير الجليل الذى أحله الله من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ؛ وهى نور نوافر ممن لا قت حتى تصير اليه . وشرد نوازع حيث جلت حتى تقع عليه تلفتت اليه تلفت الوامق وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق وقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع .

فان تغش قوما بعده أو تزرهم   فكالوحش بدنيها من الآنس المحل

٣٢ — وكتب عن ركن الدولة الى بلكا بن ونداد خورشد ، عند استعصائه عليه رسالة قامت فى رد غوايته مقام الكتائب يقول فيها على ما ذكر الثعالبي فى اليتيمه .

كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك وإعراض عنك فانك تدلى بسابق حرمة وتمت بسالف خدمة أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانه وتتبعهما بآنف خلاف ومعصيه ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ويمحق كل ما يراعى لك ، لاجرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلا لصدمك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك

واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنا بالنعمة عندك ومنافسة فى الصنيعة لديك وتأميلا لفيئتك وانصرافك ورجاء لمراجعتك وانعطافك . فقد يغرب العقل ثم يئوب ويعزب اللب ثم يذوب ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم يصلح ويضاع الرآى ثم يستدرك ويسكر المرء ثم يصحو ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء وكل غمرة فالى انجلاء . وكما أتيت من اساءتك بمالم يحتسبه أولياؤك فلا بدع أن تأتى من إحسانك بمالا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت واخترت ما اخترت فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت ؛ وسأقيم على رسمى فى الابطاء والمماطلة ما صلح وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن ، طمعا فى انابتك وتحكيما لحسن الظن فيك فلست أعدم فيما أظاهره من إعذار وأردافه من إنذار احتجاجا عليك واستدراجا لك فان يشأ الله يرشدك ويأخذ بك إلى حظك ويسددك فأنه على كل شىء قدير وبالاجابة جدير .

وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها وحلبت شطريها . فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك . كيف وجدت ما زلت عنه وكيف تجد ما صرت اليه ؟ ألم تكن من الأول فى ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل وهواء ندى وماء روى ومهاد وطى وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين ، يقيك المتالف ويؤمنك المخاوف ويكنفك من نوائب الزمان ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة وكثرت بعد القلة وارتفعت بعد

الضعة وأيسرت بعد العسرة وأثريت بعد المتربة واتسعت بعد الضيقة، وظفرت بالولايات وخفقت فوقك الرايات ووطىء عقبك الرجال وتعلقت بك الآمال وسرت تكاثر ويكاثر بك وتشير ويشار اليك ويذكر على المنابر اسمك وفى المحاضر ذكرك؛ ففيم الآن أنت من الأمر وماالعوض عما عددت والخلف مما وصفت، وماالستفدت، حين أخرجت من الطاعة نفسك ونفضت منها كفك وغمست فى خلافها يدك، وماالذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب لاظليل ولا يغنى من اللهب، قل نعم كذلك فهو والله أكثف ظلالك فى العاجلة وأروحها فى الآجلة إن قمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود. تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى إليك فستنكرها والمس جسدك وانظر هل يحس وأجسس عرقك هل ينبض وفتش ماانحنت عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوت سريح أو موت مريح ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله

٣٣ ـ وكتب الى عبد الله الطبرى فى الشوق

كتابى اليك وأنا بحال لو لم ينغصها الشوق اليك ولم يرنق صفوها النزوع نحوك، لعددتها من الاحوال الجميلة وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة. فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ونعمة تامة، وحظيت منها فى جسمى بصلاح وفى سعيي بنجاح. لكن مابقى أن يصفولى عيش مع بعدى عنك ويخلو ذرعى مع خلوى منك ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى وناظم لشمل أنسى وقد حرمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك، وهل تسكن

نفس متشعبة ذات انقسام وينفع أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلأت سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك فى لفظك . وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندى وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك فان كان كذلك والا فقد غطى هواك وما ألقى ، على بصرى

٣٤ ـ وكتب اليه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ الملقب بالصاحب لطول ماصاحبه جوابا عن كتابه اليه فى وصف البحر يقول .

وصل كتاب الاستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف ماشاهد من عجائبه وعاين من مراكبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها واستجابة أدواتها لها متى نادتها ، وركوب الناس أشباحها والخوف بمرأى ومسمع والمنون بمرقب ومطلع، والدهر بين أخذوترك والارواح بين نجاة وهلاك ، إذافكروا فى المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حبب اليهم الغرر ، وعرفت ماقاله من تمنيه كونى عند ذلك بحضرته وحصولى على مساعدته ، ومن رأى بحر الاستاذ كيف يزخر بالفضل وتتلاطم فيه أمواج الادب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفيته من منظر البحر . ولا فضيلة له عندى أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله واستعظامه لأهواله ، كما لاشىء أبلغ فى مفاخره وأنفس فى جواهره من وصف الاستاذ له ، فانى قرأت منه الماء السلسال لا الزلال والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علمت أنه

كتب ولما يخطر بفكره سعة صدره ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لايفضل عن التبرض وثمدا لايكثر عن الترشف .

وكم من جبال جبت تشهد أنك الـــجبال وبحر ساهد أنك البحر

٣٥ – وكتب إلى صديق أهدى إليه مصحفا فأجاد نعت القرآن والخط .

البر آدم الله الشيخ أنواع تطول به أبواع ، فان يكن فيها ماهو أكرم منصبا وأشرف منسبا ، فتحفة الشيخ إذ أهدى مالا تشاكله النعم ولاتعادله القيم، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله وهداه وسبيله ومعجزة رسول الله ﷺ ، ودليله : طبع دون معارضته على الشفاه وختم على الخواطر والافواه فقصر عنه الثقلان وبقى مابقى الملوان . لائح سراجه واضح منهاجه منير دليله عميق تأويله يقصم كل شيطان مريد ويذل كل جبار عنيد ، وفضائل القرآن لاتحصى فى ألف قرآن ، فأصف الخط الذى بهر الطرف وفاق الوصف . وجمع صحة الاقسام وزاد فى نخوة الاقلام ، بل أصفه بترك الوصف ، فأخباره آثاره وعينه قراره ، وحقا أقول إنى لاأحسب أحد ماخلا الملوك جمع من المصاحف ماجمعت وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت ، وإن هـذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الفرعة على الغرة بل زيادة الحج على العمرة .

لقد أهــديته علقا نفيسا ومايهدى النفيس سوى النفيس

٣٦ – وكتب إبراهيم بن هلال بن هرون الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ إلى الصاحب يعتذر له عن تأخر كتبه عنه ويثنى عليه فقال .

أنا أعتذر الى سيدي أطال الله بقاءه من تأخر كتبي عن حضرته الجليلة ، بعذر إذا تأمله حق تأمله وعرضه على نقده وتمييزه وعرف صدق منطقه وخلوص مصدره ، علم أنني مواصل بباطن مرادي وان صرمت بظاهر فعلي وملازم بخافي مقصدي وأن أخللت ببادي مسلكي ، وهو أنني جربت مكاتبته أيده الله مواظبا عليها مكبا ، ومراخيا بين أوقاتها مغبا ، لأتبع أحب الأمرين اليه وأوقعهما لديه . فلما لاح لي أن الاجمام أنفق ، والترفيه أرفق ، ووثقت بأن رأيه على الحالين محروس النواحي والجوانب محمي الشرائع والمشارب : اقتصرت على أن أتعرف أخباره وأسر باستقامتها وانتظامها ، وأتنسم أحواله وأسكن الى اطرادها والتئامها . وأبتهج بما يصير اليه أيده الله من ذروة مرتبة يعتليها وغارب مرقبة يمتطيها ، وأنا أول المتحدثين عنهما والسامعين بهما . على أنه لم يستوف بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه فان للدنيا مواعيد فيه : لا بد أن ينتجزها بمساعيه .

٣٧ — ومن كتاب له عن عضد الدولة إلى أخيه مؤيد الدولة إذ قبض على ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد وكان أبوه صدر وزراء أبيهما ركن الدولة يستشفع له

وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة فى شدة الاحتمال والصبر على الادلال ، واجتمع له إلى ذلك التقلب فى نعمة حازها حياز وارث لها ، لم يكدح فى تأثيلها ولا مسه النصب فى تثميرها ولا اهتدى الى طريق استيفائها ولا تحزن من طرق دواعى انتقالها ، ومن ألزم اللوازم فى حكم الرعاية ، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها

وأن نعتذر عن هفوة قد شاركناه فى إيجاد أسبابها ، وأن تكون نفسه محروسة والبقية من حاله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة ، وأن يتحدث الناس بأن سيدى الأمير أصاب غرض الحزم فى القبض عليه ثم طبق مفصل الكرم فى التجاوز عنه .

٣٨ – وكتب رسالة عن صديق له بعث بها مع رسول إلى عظيم يخطب إليه كريمته جاء منها

ولو لم يكن للخاطب إلى المخطوب سبب غير ابتدائه إياه بالثقة والتماس المشابكة ورضاه به شريكا مفوضا فى الولد واللحمة والحال والنعمة لكفاه وأجزاه وأغناه عن كل ما سواه حتى إنه لو خطب إلى زاهد لوجب عليه أن يرغب أو إلى معتاص للزمه أن ينقاد ، لأن هذا المطلب إذا صدر عن الاحرار إلى الاحرار استهجن الرد عنه والمقابلة له بضد فكيف وقد انتظمت بيننا دواعى الاجابة وارتفعت دواعى المدافعة ، وبالله جهد المقسم إن والدى أيدهما الله تعالى يسومانى التأهل منذ سنين كثيرة ، فأحمل نفسى على التقاعس عما آثراه مع ما افترض على من طاعتهما اشتطاطا منى فى شرائط أحببت أن تجتمع لى فى الخبيئة التى أواصلها ، وقلما تتكامل الا فيمن طهر الله أصله وجمل أمره وأظهر فضله . وقد دعانى بالدعاء الى ذلك كثير من الرؤساء الأكابر وذوى الاخطار الأفاضل ، بفارس والبصرة وبغداد ، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائطى عليهم . حتى إذا أوجدنيها الله فى جهتك الجليلة وجمعها لى فى منازلك المصونة ، بعثتنى البواعث وحفزتنى الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل ويتصل بنا الحبل فكتبت اليك هذه الرقعة خاطبا كريمتك

فلأنه ، على أن أكون لها كالجفن الواقى لمقلته والصدر الحاوى لمهجته، ولك كالولد المطيع لأبيه، ولأخيها كالأخ العاضد لأخيه فان رأيت ياسيدى أن تتأمل ما كتبت به من هذه الجملة وتسمع من موصلها ما تحمله عنى من تفصيلها وتتوخى بأجابتى إلى ما سألت تحقيق ظنى وتصديق أملى، فعلت إن شاء الله .

٣٩ — وكتب أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ بعد إبلاله من مرض ، يعاتب صديقا لم يعده فى مرضه ولم يهنئه بشفائه

كتابى وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبروز البدر من الظلماء ، وقد فارقتنى المحنة وهى مفارق لا يشتاق إليه وودعتنى وهى مودع لا يبكى عليه والحمد لله تعالى على محنة يجليها ونعمة ينيلها ويوليها . كنت أتوقع أمس كتاب سيدى بالتسلية واليوم بالتهنئة .فلم يكاتبنى فى أيام البرحاء بأنها غمته ولا فى أيام الرخاء بأنها سرته ، وقد اعتذرت عنه إلى نفسى وجادلت عنه قلبى ، فقلت أما إخلاله بالأولى فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحب أن يوفر على مرتبه السابق الى الابتداء ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء، لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليه ومحفوفة من كل بيئة به ، فأن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدى فليعرف لى حق الاحسان وليكتب لى الاستحسان ، وإن كنت أسأت فليخبرنى بعذره فانه أعرف منى، بسره وليرض منى بأنى حاربت عنه قلبى واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبى ، وقلت يانفس اعذرى أخاك وخذى منه ما أعطاك ، فع اليوم غدا والعود أحمد .

٤٠ — وكتب الى تلميذ له قطع زيارته بعد أن أتم تخريجه.

إن كنت أعزك الله لاترانا موضعا للزيادة فنحن فى موضع الاستزارة ، وإن كنت تعتقد أنك قد أستوفيت ماكان لدينا فسقط حقنا عنك وبقى حقك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه واستغنائه عن دوائه ؛ وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له ولاتعيره عزله، ولو لم تزرنا إلا لترينا رجحانك كما طالما رأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلا صائبا وفى القياس واجبا.

٤١ — وكتب بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ وإمام القصص مع الرسائل فى العصر الثالث الى صديق هنأه بمرض الخوارزمى الذى عاداه بعد مناظرته إياه يقول

الحر أطال الله بقاءه ولاسيما إذا عرف الدهر معرفتى ووصف أحواله صفتى ، اذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهى أمانى فأن وجدت فهى عوارى ، وأن محن الزمان وإن طالت فستنفد وإن لم تصب فكأن قد ، فكيف يشمت بالمحنة من لايأمنها فى نفسه ولا يعدمها فى جنسه ؛ والشامت إن أفلت فليس يفوت وإن لم يمت فسوف يموت،وماأقبح الشماتة بمن أمن الاماتة فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الاخيار وظمآن شربه الأحرار وهل يشمت المرء بأنياب آكله أو يسر القاتل بسلاح قاتله . وهـذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرنا بالعداوة قليلا فقد باطناه ودا جميـلا ، والحر عند الحمية لايصطاد ولكنه عند الكرم ينقاد وعند الشدائد تذهب الأحقاد ؛ فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته

والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه بحوله ووقاني سماع السوء فيه بلطفه ، والسلام عليك ورحمة الله .

٤٢ — وكتب إلى بعض إخوانه . وقد أخبره بموت أبيه يعزيه ويحذره التبذير والتقتير .

وصلت رقعتك ياسيدى والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع جدير ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة رشد كأنه ألغى وقد مات الميت فليحى الحي ، والآن فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم غيرك بالأمس . قد كان ذلك الشيخ رحمه الله يكيلك تضحك ويبكي لك وقد مولك بما ألف في سراه وسيره وخلفك فقيرا إلى الله غنيا عن غيره وسيعجم الشيطان عودك فان استلانه رماك بقوم يقولون خير المال ما أتلف بين الشراب والشباب وأنفق بين الحباب والاحباب والعيش بين الاقداح والقداح ، ولولا الاستعمال لما أريد المال . فأن أطعتهم فاليوم في الشراب وغدا في الخراب واليوم واطربا للكأس وغدا واحربا من الافلاس . يامولاى ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نقرا والعاقل فقرا وذلك المسموع في الناى هو الآن في الآذان زمر وغدا في الابواب سمر والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار في هذا العمل بضاعة . فأن لم يجد الشيطان مغمزا في عودك من هذا الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك وتراه في الآخرة في ميزان غيرك . لا . ولكن قصدا بين الطريقين وميلا عن الفريقين لا منع ولا اسراف فالبخل فقر حاضر وضير عاجل وإنما يبخل

المرء خيفة ما هو فيه فليكن لله فى مالك قسط وللمروءة قسم . صل الرحم ما استطعت وقدر اذا قطعت ، فلأن تكون فى جانب التقدير خير لك من أن تكون فى جانب التبذير .

٤٣ — وكتب أبو منصور عبد الملك الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ يهنىء بقدوم من سفر .

أهنىء سيدى ونفسى تطيب بما سر الله من قدومه سالما ، وأشكر الله على ذلك شكرا دائما . جعل الله قدومك مقرونا بالخيرة التامة العامة والكفاية الشاملة الكاملة ، غيبة المكارم مقرونة بغيبتك وأوبة النعم موصولة بأوبتك ؛ فوصل الله قدومك من الكرامة بأضعاف ما قرن به سيرك من السلامة ؛ وهنأك بإيابك وبلغه غاية محابك . ما زلت بالنبأ معك مسافرا وباتصال الذكر والفكر ملاقيا . الى أن جمع شمل سرورى بأوبتك وسكن فرند قلبي بعودتك .

٤٤ — وكتب أبو محمد القاسم بن على الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الرابع « استخدام البديع » يفاضل بين صناعتى الأنشاء والحساب .

اعلموا أن صناعة الانشاء أرفع وصناعة الحساب أنفع ، وقلم المكاتبة خاطب وقلم المحاسبة خاطب ، وأساطير البلاغة تنسخ لتدرس ودساتير الحسبانات تنسخ وتدرس . والمنشىء جهينة الأخبار وحقيبة الأسرار ، ونجى العظماء وكبير الندماء ، وقلم لسان الدولة وفارس الجولة ، ولقمان الحكمة وترجمان الهمة ، وهو البشير والنذير والشفيع والسفير . به تستخلص الصياصى وتملك النواصى ويقتاد العاصى

ويستدنى القاصى ، وصاحبه برء من التعبات آمن قيد السعاة مقرظ بين الجماعات غير معرض لنظم الجماعات . إلا أن صناعة الحساب موضوعة على التحقيق وصناعة الانشاء مبنية على التلفيق، وقلم الحاسب ضابط وقلم المنشىء خابط ، وبين إثاره توظيف المعاملات وتلاوة طوامير السجلات ، بون لا يدوكه قياس ولا يعتوره التباس ، إذ اثاره تملأ الاكياس والتلاوة تفرغ الرأس . وخراج الأوراج يغنى الناظر واستخراج المدارج يعنى الناظر . ثم إن الحسبة حفظة الأموال وحملة الأثقال ، والنقلة الأثبات والسفرة الثقات ، وأعلام الانصاف والانتصاف والشهود المقانع فى الاختلاف . ومنهم المستوفى الذى هو يد السلطان وقطب الديوان وقسطاس الأعمال والمهيمن على العمال ، وإليه المآب فى السلم والهرج وعليه المدار فى الدخل والخرج ، وبه مناط الضر والنفع وفى يده رباط الاعطاء والمنع . ولولا قلم الحساب لأودت ثمرة الاكتساب ولا تصل التغابن إلى يوم الحساب ، ولكان نظام المعاملات محلولا وجرح الظلامات مطلولا وجيد التناصف مغلولا وسيف التظالم مسلولا . على أن يراع الانشاء متقول ويراع الحساب متأول ، والمحاسب مناقش والمنشىء أبو براقش ، ولكليهما حمة حين يرقى إلى أن يلقى ويرقى ، وإعنات فيما ينشأ حتى يغشى ويرشى؛ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم .

٤٥ — وكتب رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ فى التهنئة بالقدوم من سفر .

بلغنى إياب سيدى زانه الله بصنوف المعالى وصانه من صروف

الليالى، من سفرته الميمونة التى أسفرت عن نيل المراد وتسهيل البغية إلى دار إقامته ومستقر كرامته، لم يؤثر فيه نصب السير وعناؤه وكلال السفر ووعثاؤه ؛ فبلغ سرورى بذلك مبلغا يضاهى ما كنت بصدده من الجزع لغيبته فحمدت الله تعالى على ما يسره له من الرجوع إلى مغانيه والطلوع على بلدة جر فيها ذيول أمانيه، وسألته جلت قدرته أن يجعل ما أنعم به عليه من قرب الدار ودنو المزار موصولا بطول العمر والبقاء مقرونا بدوام العز والعلاء إنه سميع الدعاء .

٤٦ — وكتب القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على المتوفى سنة ٥٩٦ه وهو الذى أفرط فى استخدام البديع فرسم طريقة التكلف المنسوبة إليه عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين إلى أحد الملوك فى شأن كتاب أنفذه إليه فلم يجب عنه .

كتابنا أطال الله بقاء الملك عن مودة طاهرة الأسباب متظاهرة الأنساب ضافية جلباب الشباب ؛ وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها ومساعى مساعد لا ينقص معروفها، ولا ينفض مسوفها ؛ وسعادة بالخلافة التى عدق إليها أمرها وأوضح سرها وملأ سرأوها وسريرها وأطلع شمسها وقمرها، بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تتوالى ميامنها وتتلألأ محاسنها وتشرف درجاتها وتتضاعف سعاداتها والكلمة قائمة على أصولها وأمور الخلق جارية على مأهولها، ونظام الاسلام بسياستها لا يهى وسياقة لدوام فى سعادتها لا تنتهى، والله الموزع شكر هذه المنن المسئول فى الانهاض لما نهضت فيه النية

وقصرت عنه المنن.ولم نزل أدام الله إقبال الملك المعظم معظمين لأمره عارفين نبل قدره وجليل فخره مشيدين بجميل ذكره وجزيل نصره معيدين لما تتهادى الألسن من مستطاب نشره قارئين من صفحات الأيام ما أمدها به من بشره غير مستيمنين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره،موردين مما هو يبلغه من بارع ضرائبه بالمقامات الشريفة من آثار سلفه ومآثرهم ومأثور مكارمهم ومفاخرهم واستناد المكرمات إلى أولهم وآخرهم، ومشهور ذبهم عن الملة ودفاعهم عن أهل القبلة، وسَدادهم فى الأمور وسِدادهم الثغور وسيادتهم الجمهور ؛واستقلالهم بالمشقات المتقدمة وإخمادهم نيران الخطوب المضطرمة وكفهم سيول السيوف العرمة ،وموالاتهم أمور الدولة العلوية التى اشتهر بها منهم الأكابر وورثها كابر عن كابر ؛وحافظوا منها على سيرة معروف لاينسخ وعقد صفاء لايفسخ وسريرة صدق تستقر فى الضمائر وترسخ وتتوضح بها غرة فى جباه السبق وتشدخ ؛وتستهدى عند إيراد هذا الذكر العطر والثناء المشتهر ،من الدعوات الشريفة العاضدية المعضودة بالنجح المتوضحة عن مثل فلق الصبح، مايتهلل لمساعيه بالميامن المستهلة ولمراميه بالاصابة المتصلة، بينه وبين هذه الدولة العالية والخلافة الحالية، بكتاب منه نهجنا فيه طريقها اللاحب واستدعينا به إجابته التى تتلقى بالمراحب؛ وأعلمناه أن تمادى الأيام دون المراسلة وتطاولها وتنقل الأحوال والدول وتناقلها،لايزيد مودته إلا استحكام معاقد وانتظام عقائد ووفاء مواعد وصفاء موارد،وأنه لاتباعد بين القلوب بغرض المرمى المتباعد ولاتفرق المسافات القواصى مابين النيات القواصد.فلما تأخرت الاجابة تقدمت

الاسترابة، وتناجت الظنون المعتلجة وتراجعت الآراء المختلجة، بأن الرسول عاقته دون المقصد عوائق وتقسمته من الاحداث دون الطريق طرائق، فلم ترد المكاتبة إلى جنابه ولا أسعد السعى بطروق جنابه الذى تنال السعادة وتجنى به . وإلا فلو أنه أم له بلغ ما أمله ولو وصله لأجاب عما أوصله، لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض وشرائف طرائقه تأبى للحقوق الواجبة أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض فجددناهذه المكاتبة مشتملة على ذلك المراد، وفاوضناه بما يعيره الاصغاء ويجنبه الالغاء، ويحسن له الانصات ولا يحتاج فيه إلى الوصاة ؛ ورسمنا أن يكتمه حتى عن لسانه وأن يطويه حتى عن جنانه وأن يتمسك بالأمر النبوى فى استعانته على أمره بكتمانه. فمن حسن الحزم سوء الظن وهل لأرباب الاسرار فرج إلا ما دامت فى السجن ؛ وقد استلزمنا المرتهن لما استعظمنا الرهن وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن، ونحن نحببنا بما يعلم به حسن موقع رسالة الاسترسال وبما يبين به عن دلالة الادلال وبما يرحب بعودته مجال الجمال، والله سبحانه يؤيد الملك بنصر تستخدم له الاقدار وسعادة لاتتصرف فى تصريفها أحكام الفلك المدار وإقبال يقابل آراءه وآدابه فى فاتحة الورد وعاقبة الاصـــدار وعز لا يزال منه متوقلا فى درجات الاقتدار، إن شاء الله تعـالى .

٤٧ — وكتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن الأثير الموصلى المتوفى سنة ٦٣٧ إلى عراقى حديث العهد بصداقته يستهديه رطبا فقال.

هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذى تزف كلمه زفيف الأوراق

وتسجع سجع ذوات الاطواق وتهتف وهى مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق ، وأبرح الشوق ما كان عن فراق غير بعيد وود استجدت حلته واللذة مقترنة بكل شيء جديد ، وأرجو ألا يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباسا وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لا يخشى جنة ولا باسا، وقد قيل إن للمودة طعما كما أن لها وسما وإن ذا اللب يصادق نفسا قبل أن يصادق جسما. وإنى لأجد لمودة سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطعامها .وقد أذكرتنى الآن بحلاوة الرطب الذى هو من أرضها وغير عجيب لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها ببعضها، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالاسرار وفرق بين ما يغترس بالأرض وما يفترس بالقلب فى شرف الثمار ،فلا ينظر سيدنا على فى هذا التمثيل ولربما كان ذلك تعريضا ينوب مناب التطفيل،

ب — فى القصص والمقامات(١)

سنكتفي فى هذا النوع من الانشاء بنموذج من كل عصر لامام الكتابة فيه .

١ — قال ابن المقفع فى باب عرضه كتاب كليلة ودمنة وهو من إنشائه.

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر ويأخذ بالحزم ويحب للناس مايحب لنفسه ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره فانه من فعل ذلك كان خليقا أن يصيبه ماأصاب التاجر من رفيقه فانه يقال

---

(١) انتقلنا إلى نماذج القصص والمقامات دون تمثيل للتوقيعات، لأن إيجاز نماذجها حسن إلينا تركها إلى حيث الكلام عليها.

إنه كان رجل تاجر وكان له شريك فاستأجرا حانوتا وجعلا متاعهما فيه وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت فأضمر فى نفسه أن يسرق عدلا من أعدال رفيقه ومكر الحيلة فى ذلك وقال إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدالى أو رزمة من رزمى ولا أعرفها فيذهب عنائى وتعبى باطلا، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذى أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال والله هذا رداء صاحبى ولا أحسبه إلا قد نسيه وما الرأى أن أدعه هاهنا ولكن أجعله على رزمه فلعله يسبقنى إلى الحانوت فيجده حيث يحب ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه وأقفل الحانوت ومضى إلى منزله فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ماعزم عليه وضمن له جعلا على حمله فصار إلى الحانوت فالتمس الأزار فى الظلمة فوجده على العدل فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلا يتراوحان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعبا فلما أصبح افتقده فاذا هو بعض أعداله فندم أشد الندامة ثم انطلق نحو الحانوت فوجد شريكه قد سبقه اليه ففتح الحانوت ووجد العدل مفقودا فاغتم لذلك غما شديدا وقال واسوأتاه من رفيق صالح قد ائتمننى على ماله وخلفنى فيه ماذا يكون حالى عنده ولست أشك فى تهمته إياى ولكنى قد وطنت نفسى على غرامته ثم أتى صاحبه فوجده صاحبه مغتما فسأله عن حاله فقال إنى قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلا من أعدالك ولا أعلم بسببه وإنى لاأشك فى تهمتك إياى وإنى قد وطنت نفسى على غرامته فقال له ياأخى لاتغتم فان الخيانة

شر ماعمله الانسان والمكر والخديعة لايؤديان إلى خير وصاحبهمامغرور أبدا وماعاد وبال البغى إلا على صاحبه وأنا أحد من مكر وخدع واحتال فقال له صاحبه وكيف كان ذلك فأخبره بخبره وقص عليه قصته فقال له رفيقه مامثلك إلا مثل اللص والتاجر فقال له وكيف كان ذلك ؟ قال

زعموا أن تاجرا كان له فى منزله خابيتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهبا فترقبه بعض اللصوص زمانا حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل فتغفله اللص ودخل المنزل وكان فى بعض نواحيه فلما هم بأخذ الخابية التى فيها الدنانير أخذ التى فيها الحنطة وظنها التى فيها الذهب ولم يزل فى كد وتعب حتى أتى بهـا منزله فلما فتحها وعلم مافيها ندم .فقال له الخائن ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس وقد اعترفت بذنبى وخطئى عليك وعزيز على أن يكون هـذا كهذا غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء فقبل الرجل معذرته وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به وندمهوعندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله

٢ — وقال الجاحظ من قصـة أهل البصرة عن المسجديين فى كتابه البخلاء

قال أصحابنا من المسجديين اجتمع ناس فى المسجد ممن ينتحل الاقتصاد فى النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب وكالحلف الذى يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا فى حلقهم تذاكروا هـذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماسا للفائدة واستمتاعا بذكره .

فقال شيخ منهم. ماء بئرنا كما قد علمتم ملح أجاج لا يقربه الحمار

ولا تسيغه الابل وتموت عليه النخل ، والنهر منا بعيد وفى تكلف العذب علينا مئونة . فكنا نمزج منه للحمار فاعتل منه وانتقض علينا من أجله فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا وكنت أنا والنعجة كثيرا ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا من الملح مثل ما اعترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب الصافى يذهب باطلا ثم انفتح لى فيه باب من الاصلاح فعمدت إلى المتوضأ فجعلت فى ناحية منه حفرة وصهرجتها وملستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة وصوبت اليها السيل ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء اليها صافيا لم يخالطه شىء والحمار لا تقزز له من ماء الجنابة وليس علينا حرج فى سقيه منه وما علمنا أن كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه فربحنا هذه منذ أيام وأسقطنا مئونة عن النفس والمال وهذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال . اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابنى فأمرنى قوم بالفانيذ السكرى وأشار على آخرون بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز وأشباه ذلك فاستثقلت المئونة وكرهت الكلفة ، فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لى بعض الموفقين ، عليك بماء النخالة فاحسه حارا فحسوت فاذا هو طيب جدا وإذا هو يعصم فما جعت ولا اشتهيت الغداء فى ذلك اليوم إلى الظهر ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى حتى قاربت العصر فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى طويت العشاء وعرفت قصدى ، فقلت للعجوز لم لا تطبخين لعيالنا فى كل غداة نخالة فان ماءها جلاء للصدور وقوتها غذاء وعصمة ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبيعينها بمثل الثمن الاول ونكون

قد ربحنا فضل مابين الحالين . قالت أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق .

ثم اندفع شيخ منهم فقال. لم أر فى وضع الأمور مواضعها وفى توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية : قالوا وما شأن معاذة هذه ؟ قال أهدى اليها العام ابن عم لها أضحية فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة فقلت لها مالك يامعاذة قالت أنا امرأة أرملة وليس لى قيم ولا عهد لى بتدبير لحم الاضاحى وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئا لامنفعة فيه ولكن المرء يعجز لامحالة ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف وهو أن يجعل فيه كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف فيعلق عليه الزبل والكيران وكل ماخيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات ورداز والحيات وغير ذلك. وأما المصران فانه لأوتار المندفه وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللأدام والعصيدة ولغير ذلك ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لهبا منه واذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر لقلة مايخالطها من الدخان . وأما الاهاب فالجلد نفسه جراب وللصوف وجوه لاتدفع . وأما الفرث والبعر فحطب إذاجفف

عجيب . ثم قالت بقى الآن الانتفاع بالدم وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به صار كية فى قلبي وقذى فى عيني وهما لا يزال يعاودني « قال الشيخ » ثم لم ألبث أن رأيتها قد تطلقت وتبسمت فقلت ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم قالت أجل ذكرت أن عندى قدورا شامية جددا وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ لها ولا أزيد فى قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شيء موقعه. قال ثم لقيتها بعد ستة أشهر فقلت لها كيف كان قديد تلك الشاة قالت بأبى أنت لم يجيء وقت القديد بعد، لنا فى الشحم والألية والعظم المعرق وغير ذلك معاش ولكل شيء إبان . فقبض صاحب الحمار والماء العذب لى قبضة من حصا ثم ضرب بها الأرض وقال: لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين

٣ — المقامة الأسدية للبديع .

حدثنا عيسى بن هشام قال كان يبلغني من مقامات الاسكندرى ومقالاته ما يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل الله بقاءه حتى أرزق لقاءه وأتعجب من قعود همته بحالته مع حسن آلته وقد ضرب الدهر شئونه بأسداد دونه وهلم جرا إلى أن اتفقت لى حاجة بحمص فشحذت إليها الحرص فى صحبة أفراد كنجوم الليل أحلاس لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ونستأصل شأفته

ولم نزل نفرى أسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصى ورجعن كالقسى وتاح لنا واد فى سفح جبل ذى آلاء وأثل كالعذارى يسرحن الضفائر وينشرن الغدائر ومالت الهاجرة بنا إليها ونزلنا نغور ونغور وربطنا الأفراس بالأمراس وملنا مع النعاس فما راعنا إلا صهيل الخيل ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه وطمح بعينيه يجذ قوى الحبل بمشافره ويخد خد الارض بحوافره ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال وقطعت الحبال وأخذت نحو الجبال وطار كل واحد منا إلى سلاحه فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه منتفخا فى إهابه كاشرا عن أنيابه بطرف قد ملىء صلفا وأنف قد حشى أنفا وصدر لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب وقلنا خطب ملم وحادث مهم وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى

أخضر الجلدة فى بيت العرب　　يملأ الدلو إلى عقد الكرب

بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر . وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه حتى سقط ليده وفمه وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ودعا الحين أخاه بمثل ما دعاه فصار إليه وعقل الرعب يديه فأخذ أرضه وافترش الليث صدره ولكنى رميته بعمامتى وشغلت فمه حتى حقنت دمه وقام الفتى فوجأ بطنه وقد هلك الفتى من خوفه والأسد للوجأة فى جوفه ونهضنا فى أثر الخيل فتألفنا منها ماثبت وتركنا منها ما أفلت وعدنا إلى الرفيق لنجهزه

فلما حثونا الترب فوق رفيقنا　　جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد

ونفد الزاد أو كاد يدركه النفاد ولم نملك الذهاب ولا الرجوع وخفنا القاتلين الظمأ والجوع عن لنا فارس فصمدنا صمده وقصدنا قصده ولما بلغنا نزل عن حر فرسه ينقش الأرض بشفتيه ويلق التراب بيديه وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى وتحرم بجنابى ونظرت فاذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل وعارض قد اخضر وشارب قد طر وساعد ملآن وقضيب ريان ونجار تركى وزى مالكى .فقلنا مالك لا أبالك فقال أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم فهمت على وجهى حيث ترانى .وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله ثم قال أنا اليوم عبدك وما لى مالك فقلت بشرى لك وبك أداك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب وهنأتنى الجماعة وجعل ينظر فتقتنا ألحاظه وينطق فتفتننا ألفاظه .فقال يا سادة إن فى سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء فخذوا من هنالك الماء فلوينا الأعنة إلى حيث أشار وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركبت الجنادب العيدان فقال ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب على هذا الماء العذب فقلنا أنت وذاك فنزل عن فرسه وحل منطقته ونحى قرطقته فما استترعنا إلا بغلالة تنم على بدنه فما شككنا أنه خاصم الولدان ففارق الجنان وهرب من رضوان وعمد إلى السروج فحطها وإلى الأفراس فحشها وإلى الأمكنة فرشها وقد حارت اليه ائرفيه ووقفت الابصار عليه .فقلت يافتى ما ألطفك فى الخدمة وأحسنك فى الجملة فالويل لمن فارقته وطوبى لمن رافقته فكيف شكر الله على النعمة بك .فقال ماسترونه منى أكثر أتعجبكم خفتى فى الخدمة وحسنى فى الجملة فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة أريكم من حذقى طرفا

لتزدادوا بي شغفا فقلنا هات فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوق سهما فرماه فى السماء وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء، وقال سأريكم نوعا آخر ثم عمد إلى كنانتى فأخذها وإلى فرسى فعلاه ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدره وآخر طيره من ظهره فقلت ويحك ما تصنع قال اسكت يالكع والله ليشدن كل منكم يد رفيقه أو لأغصنه بريقه فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة وأسلحتنا بعيدة وهو راكب ونحن رجالة والقوس فى يده يرشق بها الظهور ويمشق بها البطون والصدور، وحين رأينا الجد أخذنا القد فشد بعضنا بعضا وبقيت وحدى لا أجد من يشد يدى فقال اخرج باهابك عن ثيابك فخرجت ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه وصار إلى وعلى خفان جديدان فقال اخلعهما لا أم لك فقلت هذا خف لبسته رطبا فليس يمكنني نزعه فقال على خلعه ثم دنا إلى لينزع الخف ومددت يدى إلى سكين كان معى وهو فى شغله فأثبته فى بطنه وأبنته من متنه فما زاد على فم فغره وألقمه حجره وقمت إلى أصحابى فحللت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه وصار لرمسه وصرنا إلى الطريق ووردنا حمص بعد ليال خمس فلما انتهينا إلى فرضة من سوقها رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبنية بجراب وعصية وهو يقول:

رحم الله من حشا فى جرابى مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه
إنه خادم لكم وهى لاشك خادمه

قال عيسى بن هشام فقلت إن هذا الرجل هو الاسكندرى الذى سمعت به

وسألت عنه فاذا هو هو فدلفت إليه وقلت احتكم حكمك فقال درهم فقلت

لك درهم فى مثله ... مادام يسعدنى النفس

فاحسب حسابك والتمس ... كيما أنيل الملتمس

وقلت له درهم فى اثنين فى ثلاثة فى أربعة فى خمسة حتى انتهيت إلى العشرين ثم قلت كم معك قال عشرون رغيفا فأمرت له بها وقلت: لا نصر مع الخذلان ولا حيلة مع الحرمان.

٤ — المقامة السنجارية للحريرى

حدث الحارث بن همام قال. قفلت ذات مرة من الشام أنحو مدينة السلام: فى ركب من بنى نمير ورفقة أولى خير ومير: ومعنا أبو زيد السروجى عقلة العجلان وسلوة الثكلان وأعجوبة الزمان المشار اليه بالبنان فى البيان، فصادف نزولنا سنجار أن أولم بها أحد التجار فدعا إلى مأدبته الجفلى من أهل الحضارة والفلا: حتى سرت دعوته الى القافلة وجمع فيها بين الفريضة والنافلة. فلما أجبنا مناديه وحللنا ناديه أحضر من أطعمة اليد واليدين ماحلا بالفم وحلى بالعين، ثم قدم جاما كأنما جمد من الهواء أو جمع من الهباء أو صيغ من نور الفضاء أو قشر من الدرة البيضاء، وقد أودع من لفائف النعيم وضمخ بالطيب العميم وسيق اليه شرب من تسنيم وسفر عن مرأى وسيم وأرج نسيم. فلما اضطربت بمحضره الشهوات وقرمت الى مخبره اللهوات وشارف أن تشن على سربه الغارات وينادى عند نهبه بالاشارات: نفر أبو زيد كالمجنون وتباعد عنه تباعد الضب من النون، فراودناه على أن يعود وألا يكون كقدار فى ثمود، فقال والذى ينشر الأموات من الرجام

لاعدت دون رفع الجام فلم نجد بدا من تألفه وإبرار حلفه ، فأشلناه والعقول معه شائلة والدموع عليه سائلة.فلما فاء الى مجثمه وخلص من مأثمه سألناه لم قام ولأى معني استرفع الجام فقال إن الزجاج نمام وإنى آليت مذ أعوام ألا يضمنى ونموما مقام فقلنا له وما يمينك الصرى وأليتك الحرى فقال :

إنه كان لى جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب ولفظه شهد ينقع وخبؤه سم منقع.فملت لمجاورته الى محاورته واغتررت بمكاشرته فى معاشرته واستهوتنى خضرة دمنته لمنادمته وأغرتنى خدعة سمته بمناسمته، فمازجته وعندى أنه جار مكاسر فبان أنه عقاب كاسر وآنسته على أنه حب موانس فظهر أنه حباب موالس وماذقته ولا أعلم أنه عند نقده ممن يفرح بفقده وعاقرته ولم أدر أنه بعد فره ممن يطرب لمفره،وكانت عندى جارية لايوجد لها فى الجمال مجارية إن سفرت خجل النيران وصليت القلوب بالنيران وان بسمت أزرت بالجمان وبيع المرجان بالمجان وان رنت هيجت البلابل وحققت سحر بابل وان نطقت عقلت لب العاقل واستنزلت العصم من المعاقل وان قرأت شفت المفئود وأحيت الموءود وخلتها أوتيت من مزامير آل داود وان غنت ظل معبد لها عبدا وقيل سحقا لاسحق وبعدا وان زمرت أضحى زنام عندها زنيما بعد أن كان لجيله زعيما وبالاطراب زعيما وان رقصت أمالت العمائم عن الرءوس وأنستك رقص الحبب فى الكئوس .فكنت أزدرى معها حمر النعم وأحلى بتمليها جيد النعم وأحجب مرآها عن الشمس والقمر وأذود ذكراها عن شرائع السمر،وأنا مع ذلك أليح من أن تسرى بريا هاريح

أو يكهن بها سطيح أو ينم عنها برق مليح . فاتفق لوشك الحظ المبخوس ونكد الطالع المنحوس أن أنطقتنى بوصفها حميا المدام عند الجار النمام ثم ثاب الفهم بعد أن صرد السهم فأحسست الخبال والوبال وضيعة ما أودع ذلك الغربال، بيد أنى عاهدته على حكم مالفظته وأن يحفظ السر ولو أحفظته فزعم أنه يخزن الأسرار كما يخزن الأثيم الدينار وأنه لا يهتك الاستار ولو عرض لأن يلج النار فما إن غبر على ذلك الزمان إلا يوم أو يومان حتى بدا لأمير تلك المدرة وواليها ذى المقدرة أن يقصد باب قيله مجددا عرض خيله ومستمطرا عارض نيله وارتاد أن تصحبه تحفة تلائم هواه ليقدمها بين يدى نجواه وجعل يبذل الجعائل لرواده ويسنى الرغائب لمن يظفره بمراده فأسف ذلك الجار المختار الى بذوله وعصى فى ادراع العار عذل عذوله، فأتى الوالى ناشرا أذنيه وأبثه ما كنت أسررته اليه، فما راعنى إلا انسياب صاغيته الى وانثيال حفدته على تسومنى ايثاره بالدرة اليتيمة على أن أتحكم عليه فى القيمة فغشينى من الهم ما غشى فرعون وجنوده من اليم ولم أزل أدافع عنها ولا يغني الدفاع وأستشفع اليه ولا يجدى الاستشفاع وكلما رأى منى ازدياد الاعتياص وارتياد المناص تجرم وتضرم وحرق على الأرم ونفسى مع ذلك لا تسمح بمفارقة بدرى ولا بأن تنزع قلبى من صدرى حتى آل الوعيد إيقاعا والتقريع قراعا فقادنى الاشفاق من الحين إلى أن قضته سواد العين بصفر ذا العين ولم يحظ الواشى بغير الاثم والشين، فعاهدت الله تعالى منذ ذلك العهد ألا أحاضر نماما من بعد، والزجاج مخصوص بهذه الطباع الذميمة وبه

يضرب المثل فى النميمة فقد جرى عليه سيل يمينى ولذلكم السيب لم يمتد اليه يمينى

فلا تعذلونى بعد ما قد شرحته ... على أن حرمتم بى اقتطاف القطائف
فقد بان عذرى فى صنيعى وإننى ... سأرتق فتقى من تليدى وطارفى
على أن مازودتكم من فكاهة ... ألذ من الحلوى لدى كل عارف

قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره وقبلنا عذاره وقلنا له قدما وقذت النميمة خير البشر حتى انتشر عن حمالة الحطب ما انتشر ثم سألناه عما أحدث جاره القتات ودخلله المفتات بعد أن راش له نبل السعاية وجذم حبل الرعاية فقال أخذ فى الاستخذاء والاستكانة والاستشفاع إلى بذوى المكانة وكنت حرجت على نفسى ألا يسترجعه أنسى أو يرجع إلى أمسى فلم يكن له منى سوى الرد والاصرار على الصدوهو لا يكتئب من النجه ولا يتئب من وقاحة الوجه بل يلط بالوسائل ويلح فى المسائل فما أنقذنى من إبرامه ولا أبعد عليه نيل مرامه الا آبيات نفث بها الصدر الموتور والخاطر المبتور فانها كانت مدحرة لشيطانه ومسجنة له فى أوطانه وعند انتشارها بت طلاق الحبور ودعا بالويل والثبور ويئس من نشر وصلى المقبور كما يئس الكفار من أصحاب القبور، فناشدناه أن ينشدنا إياها وينشقنا رياها فقال أجل خلق الانسان من عجل ثم أنشد لا يزويه خجل ولا يثنيه وجل .

ونديم محضته صدق ودى ... إذ توهمته صديقا حميما
ثم أوليته قطيعة قال ... حين ألفيته صديدا حميما
خلته قبل أن يجرب إلفا ... ذا ذمام فبان جلفا ذميما
وتخيرته كليما فأمسى ... منه قلبي بما جناه كليما
وتظنيته معينا رحيما ... فتبينته لعينا رجيما
وتراءيته مريدا فجلى ... عنه سبكي له مريدا لئيما
وتوسمت أن يهب نسيما ... فأبى أن يهب الا سموما
بت من اسمه الذى أعجز الرا ... قى سليما وبات منى سليما
وبدا نهجه غداة افترقنا ... مستقيما والجسم منى سقيما
لم يكن رائعا خصيبا ولكن ... كان بالشر رائعا لى خصيما
قلت لما بلوته ليته كا ... ن عديما ولم يكن لى نديما
بغض الصبح حين نم الى قلـ ... ـبي لأن الصباح يبدى نموما
ودعانى الى هوى الليل اذ كا ... ن سواد الدجى رقيبا كتوما
وكفى من وشى ولو فاه بالصد ... ق أثاما فيما أتاه ولوما

قال فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه واستملح تقريظه وسبعه بوأه مهاد كرامته وصدره على تكرمته ثم استحضر عشر صحاف من الغرب فيها حلواء القند والضرب وقال له لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ولا يسع أن يجعل البرىء كذى الظنة وهذه الآنية تنزل منزلة الأبرار فى صون الأسرار فلا تولها الأبعاد ولا تلحق هودا بعاد ثم أمر خادمه بنقلها الى مثواه ليحكم فيها بما يهواه فأقبل علينا

أبو زيد وقال اقرءوا سورة الفتح وأبشروا باندمال القرح فقد جبر الله ثكلكم وسنى أكلكم وجمع فى ظل الحلواء شملكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ولما هم بالانصراف مال الى استهداء الصحاف فقال للآدب إن من دلائل الظرف سماحة المهدى بالظرف فقال كلاهما لك والغلام فاحذف الكلام وانهض بسلام فوثب فى الجواب وشكر شكر الروض للسحاب ثم اقتادنا أبو زيد إلى حوائه وحكمنا فى حلوائه وجعل يقلب الأوانى بيده وينض على عددها عدده ثم قال لست أدرى أأشكو ذلك النمام أم أشكر وأتناسى فعلته التى فعلها أم أذكر فانه وان كان أسلف الجريمة ونم النميمة فمن غيمه انهلت هذه الديمة وبسيفه انحازت لى هذه الغنيمة وقد خطر ببالى أن أرجع الى أشبالى وأقنع بما تسنى لى وألا أتعب نفسى ولا أجمالى وأنا أودعكم وداع محافظ وأستودعكم خير حافظ ثم استوى على راحلته راجعا فى حافرته ولاويا الى زافرته فغادرنا بعد أن وخدت عنسه وزايلنا أنسه. كدست غاب صدره أو ليل أفل بدره.

ثانيا ـ حياتها

١ ـ الرسائل

أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها

ا ـ فى العصر الاول ـ ما كاد العصر الأموى يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعى لا أثر للصناعة فيه الى ترسل صناعى أرسى أساسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب

ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين، وقد عرفت حيث وقع الكلام منا على الانشاء اذ ذلك أن عبد الحميد أظهر تلك الصناعة أكثر ما أظهر، فى رسوم رسمها المبادىء والخواتيم، وفى جولات بعيدة الاطراف بين طرفى الايجاز والاطناب، ثم فى تنويع الرسائل الاخوانية الى أنواع، وفى طرق أبواب لم تكن معروفة قبله للناس . غير أن صناعته هذه وقد جاءت آخر العصر لم تقض القضاء كله على الترسل الطبيعى لدى جمهرة الناس فكان للكتابة حينئذاك طابعان ورثهما العباسيون فيما ورثوا عن الأمويين. وإذ كان صدر العصر العباسى الأول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد فان لنا أن نتوقع فيه تراجع الترسل الطبيعى الى الوراء واطراد الانشاء الصناعى الى الأمام حتى يعظم هذا ويفنى ذاك وهذا ما كان، فلم نكد نلمح الأسلوب الفطرى فى كلام الخليفتين الأولين وأضرابهما كما رأيت فى الرسائل التى سقناها بين المنصور ومحمد بن عبدالله بجوار ما كان يصدر عن جماعة الكتاب حتى توارى بعدهما واحتضنه التاريخ ولذا نصدف عنه ونعتبر الكتابة مذ جاء العصر العباسى صناعة حمل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط عبدالله بن المقفع واتبعه فيما رسم الجميع وحق لذلك أن نخصه بكلمة لا غنى عنها فى الموضوع .

نشأ ابن المقفع بالبصرة حيث كان والده يتولى خراج فارس لخالد ابن عبد الله القسرى والى العراق : وهى حينئذ حلبة العربية ومجتمع الرواة وقرارة المربد عكاظ الاسلام والحاضرة التى يفد اليها فصحاء الأعراب ، والدولة إذ ذاك عربية محضة لا تستكتب فارسيا فى الدواوين العربية الا إذا أجاد العربية كأهلها . فدفع به أبوه وهو خير من يعرف

ذلك إلى تعلم العربية فى هذه البيئة الغنية بها الصالحة لتنشىء الاحداث عليها، فحذق فنونها وتخرج فى آدابها. وكان من حسن حظه وحظ العربية معا أن كان ولاؤه وولاء أبيه فى بيت خطابة ومعدن فصاحة هو بيت الأهتم المنقرى فكان فى نشأته قرين خالد بن صفوان وابن عمه شبيب ابن شيبة وناهيك بهما فصاحة منطق وذرابة لسان. ولما تمت آلته فى العربية تماما فى الفارسية لغة آبائه وأجداده تطلع الى التخرج فى صناعة الكتابة وكان الحميد المذكور كاتبا لمروان بن محمد والى الجزيرة إذ ذاك فتقرب عبد الله اليه تقرب الصديق الملازم وأخذ يتأثر كتابته ذات الديباجة العربية والعقلية اليونانية ويحتذى فنه ذا النواحى المبتدعة والطرائق المستحدثة ضاما إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية حتى صار كاتبا يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة فارس. فاستكتبه فى عصر بنى أمية داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أيام ولاية أبيه العراق. ولما دالت دولتهم استكتبه فى زمن بنى العباس عيسى بن على والى كرمان، وعلى يديه أسلم وتسمى عبد الله وكان اسمه روزبة ومن بعد عيسى كتب لأخيه سليمان أيام ولايته على البصرة وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالانبار فاتصل به وترجم له كتاب كليلة ودمنة ونقل إلى العربية كثيرا من آداب الفرس وسياستها كما نقل إليها بعض كتب اليونان التى كان كسرى أنو شروان قد أمر بترجمتها إلى الفارسية فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية بعد تلك التى كانت له من عبد الحميد الذى عرف الكثير منها عن أستاذه سالم كاتب الخليفة هشام.

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ولسان حسن التعبير

زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب الترسل الذى كان لعبد الحميد، وقصاراه التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة دون نظر إلى مزاوجة أو سجع إلا ماجاء عفوا غير متعمل ولا مقصود. والذى يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب مع أنه فارسى الجنس واللغة، ولغة فارس ذات عناية بزخرفة الألفاظ وحبك الاساليب، أنه فعل ذلك صادرا عن أمرين. أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة فى شرف المعانى وسهولة الألفاظ مع رصانة القول ورشاقة الاسلوب ولذا كان يقول « عليك بما سهل من الالفاظ مع التجنب لالفاظ السفلة » ويقول « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة فان ذلك هو العى الأكبر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يقصد أنها السهل الممتنع. وثانيهما توجيه همه فى تغذية العربية بالفارسية إلى ناحية المعانى لا الالفاظ وللفرس فى المعانى مجال ، فهم ذوو فلسفة أصيلة عرفت لهم كما عرفت للهنود وقد غذوها منذ القديم بالفلسفة الهندية التى ترجموها إلى لغتهم كما فعلوا فى كتاب كليلة ودمنة، ثم قبل أن ينقرض ملكهم نقلوا كثيرا من فلسفة اليونان ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون الحكم عن علم وتثقيف لا عن غريزة وفطرة كما كانت تفعل العرب ، ولم تكن للعرب غنية عن ترجمة كثير من هذه الحكم فى هذا الطور العباسى الذى حصلوا فيه على قسط وافر من التعليم. ولعل أول من نقل هذه الحكم وتلك الفلسفة إلى العربية عن أمثال يزدجرد وقباذ وبهرام وسابور وأنوشروان وأزدشير وغيرهم فى السياسة والاجتماع وسائر أحوال الناس، رجلنا

الذى نتكلم عنه، وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب المعنوى إلى الجانب اللفظى بحال

هذا وكما يمثل مانقلناه من نماذج أسلوب الترسل السهل الممتنع كما قلنا يمثل كذلك ماأشرنا إليه فى ناحية المعانى أتم تمثيل فكل ماكتب ابن المقفع كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة. وعلى هذا الذى رسم سار من ورائه كتاب عصره كيحيى بن زياد وعمارة بن حمزة والقاسم بن صبيح وغيرهم ممن أدركوا الدولتين وكتبوا للمنصور وهم رجال الطبقة الاولى، وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبى عبيد الله معاوية بن يسار وأبى عبد الله يعقوب بن داود ويوسف بن القاسم ويحيى ابن خالد وغيرهم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد؛ ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابنى يحيى والفضل والحسن ابنى سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات وابراهيم بن العباس الصولى ونحوهما ممن تربوا فى عصر المأمون وأدركوا العصر الثانى فاعتبروا رجال طبقته الاولى كما سيأتى بعد. فهذه الطبقات الثلاث حذت حذو ابن المقفع فى الألفاظ السهلة الممتنعة البعيدة عن المزاوجة والسجع الا ماجاء عفوا، وفى المعانى الشريفة النبيلة المشعرة بسعة العقل وقوة المنطق؛ ولذلك نقول إن إستفادة العربية من الفارسية فى العصر العباسى الأول فى ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها فى ناحية الالفاظ ولسنا نقول ذلك عن غير دليل نتقدم به فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور فى كتاب بغداد يقول «حدثنى أبو الحسن أحمد بن محمد المهلبى قال

حدثنى يحيى بن الحسن بن على بن معاذ بن مسلم قال . إنى بالرقة بين يدى محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بغلام لى فكلمته بالفارسية فدخل العتابى [1] وكان حاضرا فى كلامنا فتكلم معى بالفارسية فقلت له أبا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لى قدمت بلدتكم هذه ثلاث قدمات وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرو وكانت الكتب سقطت إلى ماهنالك مع يزدجرد فهى قائمة الى الساعة فكتبت منها حاجتى ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ الى قرية فذكرت كتابا لم أقض حاجتى منه فرجعت الى مرو فأقمت أشهرا ـ قال فقلت ـ أبا عمرو ولم كتبت كتب العجم فقال لى «وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، البلاغة فى اللغة لنا والمعانى لهم» قال ثم كان يذاكرنى ويحدثنى بالفارسية كثيرا» .

ولهذا الذى كان من الكتاب فى هذا العصر من العناية بالمعانى لبست الكتابة فيه ثوب الايجاز أكثر مما جررت ذيول الاطناب وكان الكتاب يجدون لذلك حسن وقع فى نفوس الخلفاء روى أحمد بن يوسف وزير المأمون قال دخلت على المأمون وهو يمسك كتابا بيده وقد أطال النظر فيه زمانا وأنا متلفت اليه فقال ياأحمد أراك منكرا منى متفكرا فيما تراه فقلت نعم وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه

---

(١) هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابى ينتهى نسبه الى عمرو بن كلثوم التغلبى ،وهو شاعر رقيق مطبوع وكاتب مترسل بليغ قال الجاحظ «كان العتابى ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة » وقال يحيى البرمكى لولده وكان العتابى منقطعا اليهم « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم ابن عمرو العتابى فضلا عن رسائله وشعره فافعلوا فلن تروا أبدا مثله ».

من المخاوف. قال فانه لا مكروه فيه ولكنى قرأت كلاما وجدته نظير ماسمعته من الرشيد يقوله فى البلاغة فانه كان يقول « البلاغة التباعد عن الاطالة والتقرب من معنى البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وماكنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة فى هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب ـ ورمى به الى وقال ـ هذا كتاب من عمرو بن مسعدة الى: قال فقرأته فاذا فيه « كتابى الى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم . وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم واختلت لذلك لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم » فلما قرأته قال إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله فى صناعته . هذا وإنك لتجد الايجاز باديا فيما تقدم لابن المقفع من إخوانيات بل فيما تقدم له من رسائل أخذت اسم الكتب وان طالت لأن العبرة فى الايجاز ليست فى طول مايكتب لنفس الطول وانما هى فى طول مايكتب بالنظر الى ماعبر عنه من معان، ولذلك قد يوجد الطول مع الايجاز كما هى حال تلك الرسائل . وقد يوجد الاطناب مع قلة كم الكتاب اذا كان معناه أقل من لفظه . ثم إنك لتجده كذلك فى كتاب العصر الاول طرا . وهذان اللذان جاء ذكرهما فى الكتاب السابق كانا من أعلام الموجزين . كتب أحمد الى ابراهيم بن المهدى وقد استقل هدية ألطفه بها « بلغنى استقلالك لما ألطفتك : والذى نحن عليه من الانس سهل علينا قلة الحشمة لك فى البر فأهدينا هدية من لا يحتشم الى من لا يغتنم » وكتب فى التهنئة بافراق من مرض « قد أذهب الله وصب

العلة ونصبها ووفر أجرها وثوابها وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها ». وكتب عمرو موصيا بشخص « كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه معنى بمن كتب له ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية » وكتب الى المأمون يستشفع فى رجل بالزيادة له فى منزلته ويعرض لنفسه « أما بعد فقد استشفع بى فلان ياأمير المؤمنين لتطولك على فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام » فكتب إليه المأمون « قد عرفنا تصريحك بصاحبك وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما ووقفناك عليهما ». وقال الرشيد يوما ليحيى بن خالد قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت اليه فكتب يحيى الى الفضل « أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت ماأمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه ». ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى كتب الى الفضل بن سهل كاتب المأمون « أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشنؤك فداءك ، كتبت اليك ورأس على بن عيسى فى حجرى وخاتمه فى يدى والحمد لله رب العالمين » .

ب ـ فى العصر الثانى ـ منذ عهد الرشيد قد استبحر العمران وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الجميع التمتع بما كان

للفرس من متعات وأصبح كل انسان لا يرضى مما هو فيه بغير الكثير، فكان من الطبيعي وقد فاضت الفارسية على العربية اذ ذاك بكل ماهو معروف عنها من بسط وإطناب، أن شب الكتاب الناشئون في آخر هذا العصر نشأة طفولة، على غير ماعليه كتابه من ترسل وايجاز فهم لابد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعاني فضفاضة ذات ذيول ولن يكون هذا بغير الاكثار من المفردات والجمل على سبيل الترادف والازدواج . وقد شاءت الاقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب فلا يكاد هذا العصر الأول ينقضى حتى يستوى في العصر الثاني حامل لواء هذه الطريقة الجديدة أمام الكتاب، ذلكم هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الذي يقتضينا مقامه كلمة عنه في هذا المقام .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهي على ماعلمت عنها فيما ذكرنا عن ابن المقفع، عش الادب . فأدرك طبقة الاصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد وأخذ عنهم ماخصوا به من أدب وفكاهة وغريب، ولازم أبا اسحاق ابرهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي المعروف فتخرج عليه في علم الكلام، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فقرأ جميع ماترجم أيام المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون فخرج بذلك كله أديبا فكها عالما فيلسوفا، وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لايدع كتابا حتى يستوفيه قراءة وفهما، وكثيرا ما كان يكترى دكاكين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتثبت وإن فيما أودعه وصف الكتاب آنفا لأنصع دليل على ما للكتب في نفسه من منزلة وعلى تنوع ماجناه منها من فائدة، وكان محبوبا من كل من في

البصرة من الولاة والأعيان عربا وفرسا ؛ لا يزال يحبوهم بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ولا يزالون يحبونه بجزيل العطايا وسنى الصلات. وبعد قليل ذاع صيته ببغداد وسر من رأى ، فكان ينتجع اليها الخلفاء والوزراء والعظماء حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان ؛ ولما قتل ابن الزيات عاد إلى البصرة فأقام بها كما كان عالما مصنفا وأديبا كاتبا الى أن فلج وبقى بالفالج طويلا ومع هذا لم ينقطع عما نصب نفسه له وطالما حمل مفلوجا الى بغداد يستمتع به وفى إحدى هذه الحملات مات بها سنة خمس وخمسين ومائتين .

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والادب والكتابة ، زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل فكان أعجوبة الزمان وينبوع الافتتان ، إن ذكر أدب العلماء فهو آدبهم وإن ذكر علم الادباء فهو أعلمهم ، وقد استخلص مما قرأ علوما جمة شارك بها أهل كل علم وآدابا ممتعة ضرب فيها بكل سهم ، فكان واسع الاطلاع لطيف البحث طيب الفكاهة مخترعا لدقيق المعانى صواغا لبليغ العبارات. اذا ألف ألف بين الاشتات واذا كتب استنزل العصم من العبارات صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات. فكان راوية متكلما وفيلسوفا مسامرا وأديبا مؤرخا وشاعرا عالما ثم دارسا أحوال الحيوان والنبات والجماد دراسته أحوال الناس والجماعات ، وهو فى كل ذلك الكاتب المكثار الذى لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار حتى لكأنه المعني بقول أبى نواس

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

لذلك عد أحد الأفذاذ وإحدى حجج اللسان. قال يصف كتبه ابن العميد

«كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والادب ثانيا» وقال يصفها المسعودى أيضا على تشيعه وعثمانية الجاحظ «وكتب الجاحظ مع انحرافه - أى عن التشيع - تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان . لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الاشعار ومستحسن الاخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء . وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يقصد منها الى تعصب أو الى دفع حق : ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب فى هذا العصر العباسى الثانى . وكما قامت ميزة العصر الاول على الترسل والايجاز تقوم ميزة الثانى بما سن الجاحظ على الازدواج والاطناب . وإن عودة الى ما اخترنا له فى مدح التجار وذم عمل السلطان وفى وصف الكتاب وفى محاسن الضحك لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف وإتباع الشىء بمثله والقرين بقرنه فى فقرات يغلب أن تكون قصيرات حتى ليسلخ فى المعنى الواحد عبارات كثيرة فى ابتداع مستحدث وابتكار ليس له فيما سبق مثيل : وها نحن أولاء ناقلون هنا شيئا مما قال فى الحسد مسبوقا بما قال ابن المقفع إمام العصر الاول فيه : حتى تكون الموازنة متحدة الموضوع .

قال ابن المقفع فى الحسد من الادب الكبير « ليكن مما تصرف به الاذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسودا. فان الحسد خلق لئيم ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالادنى من الاقارب والاكفاء الخلطاء . فليكن ماتقابل به الحسد أن تعلم أن خير ماتكون حين تكون مع من هو خير منك وأن غنمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك فى العلم فتقبس من علمه ؛ وأفضل منك فى الجاه فتصيب حاجتك بجاهه وأفضل منك فى الدين فيزداد صلاحك بصلاحه . وليكن ماتنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لاينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك قبل الاعداد والفرصة فتحمله على التسلح لك وتوقد ناره عليك » .

وقال الجاحظ مما قال فى رسالة الحسد « وهب الله لك السلامة وأدام لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك الله تسألنى عن الحسد ماهو ومن أين هو ومادلائله وافعاله وكيف تفرقت أموره وأحواله وبم يعرف ظاهره ومكتومه ولم صار فى العلماء أكثر منه فى الجهلاء ولم كثر فى الاقرباء وقل فى البعداء وكيف دب فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين وكيف خص به الجيران من جميع الاوطان؟

الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ويفسد الاود علاجه عسر وصاحبه ضجر وهو باب غامض وأمر متعذر فما ظهر منه فلايداوى وما بطن منه فمداويه فى عناء ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دب اليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء » وقال بعض الناس لجلسائه أى الناس

أقل غفلة فقال بعضهم صاحب ليل إنما همه أن يصبح فقال إنه لكذا وليس كذاك وقال بعضهم المسافر انما همه أن يقطع سفره فقال انه لكذا وليس كذاك فقالوا له فاخبرنا بأقل الناس غفلة فقال الحاسد انما همه ان ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها فلا يغفل أبدا . ويروى عن الحسن أنه قال الحسد أسرع فى الدين من النار فى الحطب اليابس ».وما أتي المحسود من حاسد الا من قبل فضل الله تعالى اليه ونعمته عليه قال الله تبارك وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » . والحسد عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان وقد ذم الله تعالى اهل الكتاب فقال « ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » فمنه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الخلطاء يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر . ولو لم يدخل رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكان الحزن فى جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكد لذاذة عيشه الا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده وسخطه على سيده بما أفاده الله عبده وتمنيه عليه أن يرجع فى هبته إياه ولا يرزق احدا سواه لكان عند ذوى العقول مرحوما وكان عندهم فى القياس مظلوما وقد قال بعض الأعراب « ما رأيت ظالما اشبه بمظلوم من الحاسد نفس دائم وقلب هائم وحزن لازم » فالحاسد مخذول ومأزور والمحسود محبوب

ومنصور،والحاسد مهموم ومهجور والمحسود مغشى ومزور — الى أن قال فى آخر الرسالة وهى اثنتا عشرة صفحة — وما أرى السلامة الا فى قطع الحاسد ولا السرور الا فى افتقاد وجهه ولا الراحة الا فى صرم مداراته ولا الربح الا فى ترك مصافاته. فاذا فعلت ذلك فكل هنيئا واشرب مريئا ونم رضيا وعش فى السرور مليا ، ونحن نسأل الله الجليل أن يصفى كدر قلوبنا ويجنبنا واياك دناءة الاخلاق ويرزقنا وإياك حسن الألفة والاتفاق.أحسن الله توفيقك والسلام .

على هذا النحو من المزاوجة الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالبا لملاءمة القصر للزواج :كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفى وطبع رخى فيطنب ما شاء له الاطناب كما يتضح ذلك حتى فى قصار رسائله مالم يتعمد فيها مساواة كما فى تهنئته الفتح بن خاقان ومعاتبته قلبيا المغربى أو إيجازا كما فى كتابه السابق معهما يستنجز مماطلا.فان القلة كقلة لاتأتى الاطناب، كمالاتأتى الكثرة الايجاز :وهذه رسالة له فى ثلاثة سطور ولكنها من الاطناب قال «أما بعد فما أقبح الاحدوثة من مستمنح حرمته وطالب حاجة رددته ومثابر حجبته ومنبسط إليك قبضته ومقبل عليك بعنايته لويت عنه :فتثبت فى ذلك ولا تطلع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ».ولم يكن موضوع الكتاب مهما تجافى عن الادب والفن ولج فى السيرة والعلم ليقف بالجاحظ دون تلك الطريقة الفذة ويصرفه عن تناولها ؛ انظر إليه و[illegible] يقول من تأريخه قريش « قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها وكيف عقولها ودهاؤها وكيف رأيها

وذكاؤها وكيف سياستها وتدبيرها وكيف إيجازها وتحسيرها وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم وحدة أذهانها إذا كل الحديد وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها فى اللأواء وكيف وفاؤها اذا استحسن الغدر وكيف جودها اذا حب المال وكيف ذكرها الأحاديث غد وقلة صدورها عن جهة القصد وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه وكيف وصفها له ودعاؤها اليه وكيف سماحة أخلاقها وصونها الاعراضها وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم وكيف أشبه علانيتهم سرهم وقولهم فعلهم وهل سلامة صدر أحدهم الاعلى قدر بعد غدره وهل غفلته إلا فى صدق ظنه وهل ظنه إلا كيقين غيره » وانظر اليه يرسم الخطة المثلى لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون منه بإزاء المعانى والالفاظ : لتستفيد وتعرف كيف استفاد قال « ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعانى فهو على سبيل الصواب ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ : والخسران ها هنا فى وزن الربح هناك . لان من كانت غايته انتزاع الالفاظ حمله الحرص عليها والاستئثار بها الى ان يستعملها قبل وقتها ويضعها فى غير مكانها ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه أنا اشعر منك فلما قال له ولم ذاك قال لانى أقول البيت واخاه وأنت تقول البيت وابن عمه وإنما هى رياضة وسياحة . وسماع الألفاظ ضار ونافع : فالوجه النافع أن تدور فى مسامعه وتغيب فى قلبه وتخيم فى صدره فاذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت وكانت نتيجتها أكرم نتيجة وثمرتها أطيب ثمرة لانها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر ، اذ لم يكن القصد الى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره ،

وبين اللفظ إذا عشش فى الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن يكون اعتسافا واغتصابا فرق بين . ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينى والوكل وعلى السرقة والاحتيال لم ينل طائلا وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان واستهلكه سوء العادة . والوجه الضار أن يحفظ ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعد لتلك الالفاظ قسمها من المعانى فهذا لا يكون الا بخيلا فقيرا وحائفا سروقا ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه متكلفا لمعانيه مضطرب التأليف منقطع النظام فاذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعانى استخفوا عقله وبهرجوا علمه .

وقد اقتدى بالجاحظ فى هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا إنهم تربوا فى عصر المأمون نقصد بذلك أنهم جمعوا إلى الآداب العربية الآداب الدخلية نامة الأنى والاستواء بما استبحر من آداب الفرس والهنود وبما أعيد نقله وفقهه على أصله من فلسفة اليونان وقد ذكرنا منهم الصولى وابن الزيات ونضم اليهم الآن الحسن وسليمان ابنى وهب وسعيد بن حميد وأحمد بن اسرائيل وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم والواثق والمتوكل وجاوزوهم الى المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد وهم رجال الطبقة الاولى فى العصر الثانى . وقد أعقبتهم طبقة ثانية أمثال عبيد الله بن سليمان بن وهب وأبى العباس بن ثوابة وأبى الحسن على بن الفرات وعلى بن الجراح وغيرهم من كتب بعد المعتمد للمعتضد والمكتفى والمقتدر . وأعقبت هذه طبقة ثالثة منها الحسين بن

عبيد الله بن سليمان بن وهب وأبو الفضل جعفر بن الفرات وأبو على ابن مقلة وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضى والمتقى والمستكفى الذى انتهى على أيامه العصر الثانى بدخول بنى بويه بغداد . فكل هؤلاء كانوا للجاحظ فى طريقته محتذين ولأسلوبه مترسمين كما ترى فيما اخترنا لبعضهم من إخوانيات . وكذلك كانوا فى غيرها مما يكتبون من الرسائل المطولة أو المصنفات فهذا حمزة الأصفهانى جامع ديوان أبى نواس يقول فى مقدمة هذا الديوان « سألتنى أبقاك الله وأعلى قدرك وبلغك أقصى أملك وزادك من أفضل ماخولك وأحسن مامنحك ولاأعدمك جميل ماعودك : أن أصرف لك عنايتى الى عمل مجموع من شعر أبى نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره وقد أسعفتك أيدك الله بطلبتك وأجبتك إلى ملتمسك » إلى آخر ماقال على هذا النمط الذى ابتدأه بالدعاء كما كان يبتدىء الجاحظ وعاد يكرر الدعاء فى ثناياما يقول بعد الابتداء كما كان يكرر . وهذا أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة تأثر الجاحظ فيما خاف من مصنفات جاءت فى الاسلوب والاطناب على نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات وستقرأ نبذة منها بعد قليل .

وكما أوحى العصر الاول الى كتابه أن يحمدوا ويحمد لهم الايجاز ، أوحى هذا العصر الثانى الى رجاله أن يكرروا ويطنبوا اعتقادا منهم أن فى التكرار قوة بلاغ للمعنى وشدة تأثير فى النفس ، ثم غلوا فى هذا الاعتقاد حتى أوصوا به وحادوا عما كان شائعا فى العصور قبلهم من ايجاز قال ابن قتيبة فى أدب الكاتب « ولو كتب كاتب الى أهل بلد فى الدعاء الى الطاعة والتحذير عن المعصية كتاب يزيد بن الوليد

إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه فى بيعته ـ أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت ـ لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله فى نفس مروان ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدىء ويحذر وينذر » ونحن نقول ولهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعانى كما كانت لدى أولئك الاسلاف بل صارت فى ناحية اللفظ والمعنى سواء .

على أننا لا ننكر أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الامر لجهلهم، عن التشجيع، وانصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان، ثم نصرة الشعوبية الداعية الى احتقار العرب وتهوين مالهم من كفايات، قد أصاب الأدب والأدباء فأثر ذلك فى صناعة الكتابة فيه بعض التأثير وظهر الضعف فى كتابات الكتاب. ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتاب أدب الكاتب فاسمع إليه يقول فى مقدمته « أما بعد فانى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ومن اسمه متطيرين ولأهله كارهين . أما الناشىء منهم فراغب عن التعليم، والشادى تارك للازدياد، والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين. فالعلماء مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون حين هوى نجم الخير وكسدت سوق البر وبارت بضائع أهله وصار العلم عارا على صاحبه والفضل نقصا وأموال الملوك وقفا على النفوس، والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق، وآضت المروءات فى زخارف النجد وتشييد البنيان، ولذات النفوس فى اصطفاف المزاهر ومعاطاة الندمان، ونبذت الصنائع وجهل

قدر المعروف وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس وزهد فى لسان الصدق وعقد الملكوت. فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا فى مدح قينة أو وصف كاس - الى أن قال - فانى رأيت كثيرا من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكر حين نالوا الدرك بغير سبب وبلغوا البغية بغير آلة »

ج — فى العصر الثالث — كانت الثروة على ماعامت فى العصر الثانى ممدودة الرواق وكانت الحضارة وارفة الظلال وكان الأثرياء منغمسين فى المتع غارقين فى النعيم. غير أن جهل القائمين بالامر على الدولة فيه جعل الأدب كما تقدم تركد ريحه وتفتر حركته وجعل الكتاب وهم قطب الادب الذى عليه يدور رحاه بعيدين فى جمهرتهم أن يشركوا أولئك القائمين فى سعة النفوذ وبالتالى فى الاستمتاع بمباهج الحياة. ولكن ما كاد هذا العصر الثالث يقضى على سابقه برفع نفوذ الخدم الاتراك عن بغداد وجعله فى أيدى آل بويه الذين وإن شلوا نفوذ الخلافة كانوا من العلماء الادباء؛ حتى علا نجم الادب وارتفع شأن الكتابة ونافست بغداد فى ذلك حواضر كثيرة إن نقص عنها بعض فقد أوفى عليها آخر؛ وكانت هذه المنافسة أشد ماتكون بين رجال الكتابة الحالين اذ ذاك من الملوك محل السمع والبصر؛ وكان قد مهد لذلك بالدويلات التى انسلخت عن الخلافة قبيل حلول العصر الذى نتكلم فيه. فكانت منها دولة السامانيين ببخارى التى زهت بنفوذهم

وصارت منتدى العلم والادب على أيامهم وشارك ملوكها فى سعة النفوذ وعراضة الجاه ووداعة العيش ورفاهة الحضارة عددمن الكتاب كانوا يلقبون بالشيوخ منهم أبو محمد عبد الله بن الحسين الذى لقب فوق الشيخ بلقب العميد زيادة فى التعظيم أيام نوح بن نصر. فكان بيته بيت غنى ونعمة وثروة وجاه. وقد نشأ فى هذا البيت ابنه أبو الفضل محمد بن العميد نشأة محوطة بكل هـذا النعيم فأحسن فى هذه البيئة تربيته ورشحه لصناعته وهيأه لمنزلته وكان ذا ذهن صاف وطبع مواتٍ فعرف علوم العرب والعجم ونبغ فى العربية والفارسية وتضلع فى آدابهما حتى لقب بالاستاذ والرئيس. ثم نبه شأنه وضاقت الدولة السامانية عن قدره فاجتذبته دولة آل بويه فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ وامتد به العمر فى هذا السلطان ثلث قرن كان فيه محط الرحال وكعبة الآمال والممدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان حتى توفى سنة ٣٦٠.

ذاك ما أردنا التنويه به عن بيت ابن العميد وشخصه ونعمة عصره وخفض عيشه ؛ لنخرج منه إلى أن الكتابة لابد ظافرة بهذين الأمرين بأسلوب تخطه روح العصر وتقيم دعائمه يد ابن العميد ، فان الزخرف تناول كل مظاهر الحياة من المسكن والملبس والمطعم والمشرب وحمل ذوى الشرف واليسار أن يتأنقوا فى كل ذلك ماوسعهم التأنق فغلوا فيما حملوا عليه وتنافسوا فيه حتى ظهرت آثار ذلك فيما ذكرنا وفيما لم نذكر واضحة للعيان تبهر الأبصار. ومن أولى من ابن العميد؛ واللغة كائن يتأثر كما تتأثر الكائنات وهو الناشىء يحوطه الشرف ويحدوه النعيم؛ أن يحكى فى كتابته مايشاهد فى عيشه ويعكس

على أسلوبه ما يشع من ضوء نفسه ؛ اللهم لا غيره يصلح لأن يكون صاحب الأسلوب الجديد. فبأى شيء يا ترى يحدث الزخرف ويحصل التنميق ؟ لا شك أن الخطوة الطبيعية بعد الزواج تكون السجع فانه أول ما يدل فى صاحبه على ذلك وهو إذا جودت صياغته أكسب المعنى قوة فوق تحليته الألفاظ ؛ وبعد السجع يكون الالمام بأجمل الحلى اللفظية من جناس وأجمل الحلى المعنوية من طباق على أن تبقى الصورة الظاهرة للاسجاع .

رسم ابن العميد هذا الأسلوب الجديد صادرا فيه عن فنان صناع قد امتلأت نفسه بشتى الصور والألوان وأرهف حسه حتى أصبح يشعر بما يدق عن الكهان ؛ فجاء ممثلا فى السجع ملتزم وما يصحبه الجناس قليلا والطباق نادرا ويسيرا مع الالمام بما كان للطريقة الجاحظية من إطالة واكثار وترادف واطناب ولكن فى عدول غالبا عما كان لها من تقصير الفقرات الى اطالتها التى أصبحت لا تتنافى والسجع كما كانت تتنافى مع الزواج ؛ فمت بها الى العصر الأول وجمع بذلك كله بين محاسن العصور.

على أن العناية بالالفاظ لم تكن لتشغل ابن العميد عن العناية بالمعانى وهو الحكيم الفيلسوف الجامع بين سعة المنقول وغور المعقول فيما كان لفارس والهند والعرب ويونان فكانت معانيه كالفاظه ذات حظ فيما لكلامه من بهاء وكلتاهما لصاحبتها زين وجمال

تزين معانيه ألفاظه   وألفاظه زائنات المعانى

وحسبه أن يظفر فى وصف بلاغته بأبيات من المتنبى قد طلعت على الأكوان شمسا وسارت فى الآفاق مثلا ؛ فهو القائل فيه

اذا سمع الناس ألفاظه خلقن له فى القلوب الحسد

وهو القائل فيه

عربى لسانه ، فلسفى رأيه ، فارسية أعياده

خلق الله أفصح الناس طرا فى بلاد أعرابه أكراده

بل حسبه أن يكون المقول عنه « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » فان الحسن الذى وصلته على يده لم يزد على يد أحد وان ماثله من بعده ولذا اطمأن الناس الى طريقته حتى لكأنها كانت أمل رجال العصر يريدونه ولا يدركونه وطابع كتابه يودون رسمه ولا يعرفونه . فما إن عبد لهم طريقها حتى سلكوه ثم تسابقوا فيه تسابق الجياد فى الميدان ، فكانت الطبقة التى لم يعد الدهر يسمح لها بمثال ويكفى أن يكون فيها صاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ وأبو اسحق الصابى ابراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤ وأبو بكر الخوارزمى محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ وأبو الفضل بديع الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ وابو منصور الثعالبى عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ وغير هؤلاء ممن عطروا الوجود بأريج أنفاسهم وجعلوا للكتابة مضاء السيوف بأسنة أقلامهم ، فكان لها على ايديهم من مزايا الابتكار أو فضل الزيادة والاكثار ما نشير الآن الى اهمه فى ناحية الاسلوب .

١ — جعلوا الطابع المميز لها فى هذا العصر السجع مع الاطناب يصحبه الجناس على قلة والطباق نادرا على أن تكون الصورة الظاهرة للأسلوب هى السجع دون غيره ولهذا أغرم القوم به اغراما والتزموه التزاما

فى تمكن وقوة فجاء عفوا صفوا كسجع الحمائم حسن وقع وجمال انسجام.
وقد بلغ من التزامهم إياه أن انتقل ببعضهم من ميدان الادب الى ميدان التأليف كما فعل أبو نصر العتبي محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ فى تاريخه المسمى اليمينى نسبة الى يمين الدولة السلطان محمود الغزنوى فقد ترجم فيه حياته وحياة أبيه سبكتكين ، وكان كاتبا لهما فى أسلوب كله مسجوع بعيد عن التكلف وإلا ستكراه ؛ وكما فعل الثعالبي المذكور فى يتيمة الدهر وإن لم يبلغ مداه. وكما جاء سجع الكتاب فى هذا العصر على ماقدمنا لا تكلف فيه جاء كذلك ماقد يلمون به مع السجع من جناس وطباق. انظر الى الخوارزمى يقول مستخدما لهما فى كتاب منه الى نائب الوزير ابن عباد هو ذا «كتبت الى الأستاذ معاتبا مره ومستعتبا كره فما وجدت للعتاب إعتابا ولا قرأت عن الكتاب جوابا، وليت شعرى ما الذى منعه عن صلة لاتضره وتنفعنى وعن تواضع لايضعه ويرفعنى» .

٢ — أكثروا تضمين رسائلهم الحكم والجوامع والأمثال والأشعار والعبارات التاريخية والعامية والنكت الأدبية والملح الفكاهية وبخاصة إذا كان التراسل بين أخوين توثقت بينهما عرى المحبة وارتفعت رسوم الكلفة كالذى كان من ابن العميد الى أبي العلاء السروى فى رسالة يشكو فيها رمضان سنة شديدة الحر فانها من أجمع الرسائل لكل ماذكرنا ولذا آثرنا الاستشهاد بها على ماذكر قال .

كتابى جعلنى الله فداك وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان وفى جهد ونصب من شهر رمضان، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر

من ألم الجوع ووقع السموم ، ومرتهن بتضاعيف .

حرور لو آن اللحم يصلى بعضها ۔ غريضا أتى أصحابه وهو منضج

وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرباء عن التحنف ويزويه عن التنصر ويقبض يدها عن إمساك ساق وإرسال ساق .

ويترك الجأب فى شغل عن الحقب ۔ ويقدح النار بين الجلد والعصب

ويغادر الوحش وقد مالت هواديها

سجودا لدى الأرطى كأن رءوسها ۔ علاها صداع أو فواق بصورها

وكما قال الفرزدق

ليوم أتى دون الظلال شموسه ۔ تظل المها صورا جماجمها تغلى

وكما قال مسكين الدارمى

وهاجرة ظلت كأن ظباءها ۔ اذا ما اتقتها بالقرون سجود

تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها ۔ كما لاذ من وخز السنان طريد

وممنو بأيام تحاكى ظل الرمح طولا وليال كإبهام القطا قصرا ، ونوم كلا ولا قله وكحسو الطائر من ماء ثماد دفقه وكتصفيقة الطائر المستحر خفه

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة ۔ فلما رأوها أقشعت وتجلت

ومثل

نقر العصافير وهى خائفة ۔ من النواطير يانع العنب

وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفنى فضل بركته ويقينى الخير فى باقى أيامه وخاتمته ، وأرغب اليه فى أن يقرب على القمر دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته

ويزيل بركة الطول من ساعاته ويرد على غرة شوال فهى أسر الغرر عندى وأقرها لعينى ويسمعنى النعرة فى قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله أخفى من السر وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بنى عامر وأضنى من قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر، ويسلط عليه الحور بعد الكور ويرسل على رقاقته التى يغشى العيون ضوءها ويحط من الأجسام نوءها كلفا يغمرها وكسوفا يسترها ويرينيه مغمور النور مقمور الظهور قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة، وينقص من أطرافه كما تنقص النيران من أطراف الزند ويبعث عليه الأرضة ويهدى اليه السوس ويغرى به الدود ويبايه بالفأر ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل ويجتحفه بالذر ويجعله من نجوم الرجم ويرمى به مسترق السمع ويخلصنا من معاودته ويريحنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ويفعل به فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالالوان ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق اذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه «ويرحم الله عبدا قال آمينا». وأستغفر الله جل وجهه مما قلته إن كرهه وأستعفيه من توفيق لما يذمه وأسأله صفحا يفيضه وعفوا يسيغه. وحالى بعد ما شكوته صالحة وعلى ما تحب وتهوى جاريه ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر

٣ — أغرموا بالخيال الشعرى إغراما شديدا فهاموا فى أوديته كما يهيم الشعراء واستخدموا صوره كما يستخدمون حتى صار كلامهم والشعر سواء، لولا أنه غير موزون. ولذلك بالغوا فى الاستشهاد به حتى كان يصل أحيانا قدر النثر كما يقول الصاحب بن عباد فى كتاب يصف به فصلا من كتب ابن العميد

فصل رأيته فصيح الاشاره لطيف العباره

إذا اختصر المعنى فثمرته حاسم	وإن رام إسهابا أتى الفيض بالمد

فصل قد نظرته فرأيت جسما معتدلا وفهما مشتعلا

ونفسا تفيض كفيض الغمام	وظرفا يناسب صفو المدام

فصل قدعمهم بنعمه وغمرهم بشيمه

وغزاهم بسوابغ من فضله	جعلت جماجهم بطائن نعله

وهكذا ـ ثم جاوزوا هذه المبالغة فى الاستشهاد إلى ترصيع الكتاب بالشعر شطرا بشطر كأول ما كان من البديع الى الخوارزمى فى الشوق قبيل رحلته إليه إذ يقول

أنا القرب دار الأستاذ	كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه	كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه	كما التقت الصهباء والبارد العذب

ومن الابتهاج بمزاره	كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

ولقد ساعد كتاب هـذا العصر ـ على ذلك : أن جمهرة كبيرة منهم ـ وهذه ميزة له ـ كانوا شعراء كما كانوا كتابا وإن غلبت إحدى الموهبتين على صاحبتها (١) ومن هـذا تسنى لـكثير منهم أن يضمن كتابته أشعاره ويذيل رسائله بأبياته. كتب الصاحب الى قاضى القضاة أبى محمد

---

(١) من هؤلاء من ذكرنا آنفا من الكتاب ومنهم أبو الطيب المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ وأبو الفتح كشاجم محمـد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ ، والقاضى الجرجانى على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٦٦ والشريف الرضى ابو الحسن محمد بن الطاهر المتوفى سنة ٤٠٦ وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩

ابن معروف وكان قد زاره فى معتقله أيام عضد الدولة وواساه يقول.

لقد قوى دخول سيدنا القاضى القضاة إلى نفسى وجددأنسى وأغرب نحسى ووسع حبسى فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع اليه وسمعه له فان لم أكن أهلا لأن يستجاب منى فهو أيده الله أهل لان يستجاب فيه وأقول مع ذلك .

دخلت حاكم حكام الزمان على صنيعة لك رهن الحبس ممتحن
أخنت عليه خطوب جار جائرها حتى توفاه طول الهم والحزن
فعاش من كلمات منك كن له كالروح عائدة منه الى البدن

ولنصوع الجمال الذى فاض على الكتابة بما تقدم من الميزات الثلاث كثر وصفها فى هذا العصر بمثل ما كان يوصف به الشعر قبله وفيه. من حسن وبهجة ورواء كما توصف سائر المحاسن فى مجالى الطبيعة ومبدعات الحضارة على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب .

قال بعض معاصرى الصابى يصف رسائله نظما .

أصبحت مشتاقا حليف صبابة برسائل الصابى أبى إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة سلوة العشاق
طورا كما رق النسيم وتارة يحكى لنا الاطواق فى الاعناق
لايبلغ البلغاء شأو مبرز كتبت بدائعه على الأحداق

وكتب ابن العميد الى القاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى يصف كتابا وصله منه بهدية « وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعهدك، فارتحت لكل ما أوليت وابتهجت بكل ما أهديت، وأضفت إحسانك فى كل

تعدل الى نظائره التى وكلت بها ذكرى ووقفت عليها شكرى، وتأملت النظم فملكنى العجب به وبهرنى التعجب منه؛ وقد رمت أن أجرى على العادة فى تشبيهه بمستحسن من زهر جنى وحلل وحلى؛ وشذور الفرائد فى نحور الخرائد.

بالعذارى غدون فى الحلل البيــض وقد رحن فى الخطوط السود

فــلم أره الشىء عدلا ولا أرضى ما عددته له مثلا، والله يزيدك من فضله ولا يخليك من إحسانه وطوله، ويلهمك من بر إخوانك ماتتمم به صنيعك اليهم وترب معه إحسانك عليهم.

٤ ــ أغرقوا فى عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء تهويلا بشأنهم وأقدارهم. وانما كان ذلك لأن أغلب كتاب الدول الشرقية فرس مثلها والفرس أميل الناس الى الغلو فى عبارات التمجيد والتكبير جريا على عاداتهم وإجابة لطبائعهم فهم قد جبلوا على تملق ذوى الأمر بهذا التعظيم وبالاطناب لهم فى جمل الدعاء والتفخيم ثم اشتهر ذلك عنهم فحاكاهم فيه أبناء العرب من كتاب الدول الغربية ولكن جاء فيها أقل حدة منه فى الشرقية لما ذكر من عربيتها وعربية كتابها، وهذا الصابى يقول فى فصل له من كتاب الى عضد الدولة يهنئه بغرة سنه

« أسأل الله تعالى مبتهلا لديه مادا يدى اليه أن يحيل على مولانا هــذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات وبالزائدات الغامرات، ليكون كل دهر يستقبله وأمد يستأنفه موفيا على المتقدم له قاصرا عن المتأخر عنه؛ ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ومن العيش أعذبه وأرغده؛ عزيزا منصورا محببا موفورا، باسطا يده فلا يقبضها إلا

على نواصي أعداء وحساد ساميا طرفه فلا يغضه الا على لذة ورقاد، مستريحة ركابه فلا يعملها الا لاستضافة عزيز وملك فائزة قداحه فلا يجيلها الا لحيازة مال وملك حتى ينال اقصى ماتتوجه إليه أمنيته جامحا وتسمو له همته طامحا . هذا.

ثم لم يبق ذلك مقصورا على ذوي السلطان والنفوذ فتعدى إلى ما كان بين الاخوان كما قرأت سابقا في كتاب ابن عباد الى الطبري وكتاب الصاحب إلى ابن عباد وكتاب الثعالبي في التهنئة بالقدوم وغيرها في هذا المعنى كثير.

ولقد كان من نتيجة هذه الظاهرة أن حاد الكتاب عن التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وبألقابهم الى الكناية عنها تنزيها لها وتصونا عن ذكرها فصاروا يكنون عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية أو السدة النبوية أو الخدمة الشريفة أو الديوان الشريف يعنون ديوان الانشاء،كما يكنون عن الوزراء بالحضرة الوزيرية وهكذا حتى صار لكل طبقة من رجال الدولة والاعيان نعوت خاصة لايخاطبون الا بها تبعا لاختلافهم في مقادير النفوذ ودرجات المنازل. وقد نال الكتاب من ذلك مانال غيرهم فاخذوا ألقاب الشيخ والرئيس والاستاذ والصاحب .

على أنهم تعدوا في هذا الالقاب الى الدعاء فنوعوا في جمله مراعاة لمكانة المكتوب إليه كأن يقولوا للخليفة أطال الله بقاء مولانا.ولولى العهد أطال الله بقاء الامير وللوزير أطال الله بقاءك وهكذا .

٥ - اتخذوا للرسائل نمطا خاصا هو أن يبدءوها بمخاطبة المرسل اليه بلقبه أو نعته بعد الاشارة إلى كتابه إن كان ثم منه كتاب،ويعقبوا ذلك بالدعاء الملائم له بصيغة الغائب أيضا،ثم ينتقلوا إلى المقصود بنفس

هذه الصيغة غالبا وبصيغة الخطاب فى بعض الأحيان وهذا ظاهر فيما أسلفنا من نماذج فلا داعى هنا إلى تمثيل .

وأخيرا بهذا النمط وما تقدمه من ميزات صار الانشاء فى العصر العباسى الثالث فنا قائما له شخصية وحدود واضحتان فى الأسلوب وأصبحت الكتابة حرفة ذات مصطلحات كمصطلحات العلوم والفنون . فلنتركه إلى العصر الأخير لنرى ماذا كانت حال الأسلوب فيه .

د ـ فى العصر الرابع ـ ورث العصر العباسى الرابع أسلوب الكتابة عن سلفه قوى النسج جميل الرونق قد حالفه السجع فى غير تكلف وظهر به الجناس والطباق من غير إكثار فبهر القارىء باشراق معانيه كما راقه بحلى ألفاظه وشهد للكاتب بسعة الاطلاع فى فنون الادب وقوة العتاد فى صناعة القلم . وقد دعت سنة الرقى المطردة ورغبة النفس الدائبة فى الزيادة أن يأخذ الكتاب منذ أواخره فى الاكثار من الجناس والطباق وأن يضموا اليهما ما وسعهما من سائر البديعيات وكان البديع إذ ذاك قد كثرت فنونه وتعددت محاسنه واتفق أن ولد فى آخر العصر الثالث رجل قدر له أن يكون حامل لواء الكتاب فى هذا العصر الذى يليه هو أبو محمد القاسم بن على المعروف بالحريرى .

ولد الحريرى بقرية مشان القريبة من البصرة مدينة ابن المقفع والجاحظ سنة ٤٤٦ ولما كان قد خلق مفطورا على الأدب مهيأ لما ذكرنا ، غادر قريته إلى البصرة فاقام منها فى محلة بنى حرام وتعلم بها علوم العربية حتى برع فيها وعنى عناية خاصة بمفردات اللغة وفنون البلاغة حتى صار فى كلتيها إماما ودعت شهرته الناس إلى الأخذ عنه فيهما واتصل

بالخلفاء العباسيين والأمراء السلجوقيين وما زال علما من أعلام العلم والأدب والكتابة والشعر حتى توفى بالبصرة سنة ٥١٦ . مخلفا من الكتب العلمية درة الغواص فى أوهام الخواص، وملحة الاعراب وهى أرجوزة فى النحو، ومن الرسائل ديوانا مفقودا تحدثت عنه الفهارس ثم المقامات التى شخصته شاعرا ونصبته فى الكتابة إماما .

أبدع رحمه الله فى كتاباته الابداع كله وتلاعب بالألفاظ تلاعب الصولجة بالاكر فلم يدع فنا من البديع الا استخدمه فى قدرة عليه وتمكن منه : مكثرا الالفاظ اللغوية والحكم المختارة والامثال السائرة والفكاهات المستملحة والاقتباس من القرآن والحديث والالمام بكثير من دقائق العلوم ومتناولات الجدل وغرائب الحيل الى غير ذلك مما جعله فذا فى ابتكاره وجعل الناس بعده عاجزين عن الجرى فى مضماره لشدة ما تكلفه حتى صار له طبعا وعلى غيره عبئا، فأخذت الفاظهم تكتم أنفاس المعانى حتى خفيت واستكرهت المحسنات حتى سمجت وقبحت ثم نضب معين الاجادة من الكاتبين والفهم من القارئين بما أناخ على الأدب وعصف بذويه من تسلط الاتراك شرقا والاكراد غربا على الفاطميين العرب والبويهيين المتعربين وظهرت آثار ذلك من تكلف واستكراه منذ أواسط العصر ظهورا حاد باسلوب الكتابة فى نصفه الثانى عما كان عليه فى النصف الأول وخلع على طريقتها فيه اسم الطريقة الفاضلية نسبة الى القاضى الفاضل عبدالرحيم بن على المتوفى سنة ٥٩٦ فقد أغرق فى استخدام البديع وغالى فى التأنق حتى تجاوز الحد

فانقلب الحسن بهذا الغلو كما يقولون الى الضد وقد تقدمت له رسالة فارجع اليها تجد التكلف باديا والمعنى خافيا. ولقد كان هذا الخفاء أبدى فى الكتب العلمية التى تكلفوا فيها البديع اذ ذاك منه فى رسائل الانشاء كما هى الحال فى كتاب «الفتح القسى فى الفتح القدسى» الذى أرخ فيه عماد الدين الاصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ فتح صلاح الدين لبيت المقدس. فان من عباراته مالا يفهم إلا بالتأمل ومن ألفاظه مالا غنية عن المعاجم فى معرفة معناه على عكس ماذكرناه عن كتاب اليمينى آنفا.

وقدهالت هذه الغلبة للالفاظ على المعانى بعض أدباء العصر إذذاك فعملوا على مقاومتها وحضوا على مراعاة حرمة المعنى مع عدم الاجحاف بحق الألفاظ وذلك بما ألفوا ورسموا كأبى الفتح ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ صاحب كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » فقد بين فيه مايتطلبه الأدب من كليهما فى المعنى واللفظ على السواء، وله رسالة استهداء سابقة ليس فيها ماكان لعصره من تكلف الالفاظ وإخفاء المعانى .

هذا ولا يفوتنا وقد انتهينا من وصف الاسلوب الكتابى فى كل عصر من العصور الأربعة العباسية وصفا مميزا أن نقول إن ذلك واقع على اعتبار مجموع كتاب كل عصر لا كل كاتب فيه. فقد يحدث فى عصر متقدم أن ينشأ كاتب سابق لزمانه يلبس أسلوبه ثوب عصر بعده كالزهرة تتفتح مبكرة فى بستان ولما يتفتح بعد شىء من الأزهار. واليك فى هذا رسالة إبرهيم بن سيابة الى يحي بن خالد البرمكى التى

يقول فيها مستعطفا : ـ للأصيد الجواد الوارى الزناد الماجد الاجداد، الوزير الفاضل الأشم الباذل اللباب الخلاحل : من المستكين المستجير البائس الضرير ، فانى أحمد اليك الله ذا العزة القدير ولى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاغنم واسلم واعلم إن كنت لاتعلم أنه من يرحم يرحم ومن يحرم يحرم ومن يحسن يغنم ومن يصنع المعروف لايعدم . وقد سبق الى تغضبك على واطراحك لى وغفلتك عنى بما لا أقوم به ولا أقعد ولا أنتبه ولا أرقد . فلست بحى صحيح ولا بميت مستريح . فررت بعد الله منك اليك وتحملت بك عليك ولذلك قلت

أسرعت بى حثا اليك خطائى   فأناخت بمذهب ذى رجاء
راغب راهب اليك يرجى   منك عفوا عنه وفضل عطاء
ولعمرى مامن أصر ومن تا   ب مقرا من ذنبه بسواء

فان رأيت أراك الله ماتحب وأبقاك فى خير ألا تزهد فيما ترى من تضرعى وتخشعى وتذللى وتضعفى . فان ذلك ليس لى بنحيزة ولا طبيعة ولا على وجه تصنع ولا تخدع . ولكنه تذلل وتخشع وتضرع من غير ضارع ولا مبين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف » ـ ومثله من يجيد فى عصر ضعف وتأخر كصاحب المثل السائر المذكور . وقد يحدث أن يكتب كاتب فى عصر لاحق متأثرا بأسلوب كاتب سابق نشأ يتعشقه ويحتذى رسمه فتجىء كتابته كأنها بقامه عن محاكاة أو معارضة لا عن عجز وقصور . على أنه فى جميع هذه الاحوال لابد أن يكون هنـــاك خضوع من الجميع لمؤثرات العصر العامة وظروفه الشامله

دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة رجالها

ما من داعية دعت الى الخطابة فى العصر العباسى الأول الا دعت إلى الكتابة فيه ؛ وما من غرض قصد اليه الخطيب ثمت إلا قصد الى مثله الكاتب اذ ذاك ؛ ولهذا نرانا فى حل من العودة الى تفصيل الدواعى والاغراض هنا اتكالا على مافصلنا هناك ؛ وإن هى الا كرة منا نذكر فيها بما كان ونشير الى موطن الشاهد فى النماذج أو نأتى بجديد إذا دعت الحاجة الى جديد ثم نخلص بعدها الى ما انفردت به الكتابة دون الخطابة فى ذلك العصر وفيما أعقبه من عصور

فالكتابة قد استخدمت فى تثبيت قواعد الملك الجديد ضد الطامعين فيه من العلويين والخارجين عليه من غيرهم وها أنت ذا قد قرأت ماصدرنا به نموذجها من الرسائل القوية الطويلة الممتعة بين أبى جعفر المنصور والنفس الزكية محمد بن عبدالله ؛ والآن فاقرأ ما كان بين أبى جعفر هذا وبين أبى مسلم الخراسانى اذ بعث اليه من يحصى عليه المغانم عقب انتصاره على عمه عبد الله بن على ، فغضب وقال « أكون أمينا على الدماء غير أمين على الأموال » وحدثته نفسه بالخروج وهم أن يعود الى خراسان فكتب اليه المنصور « إنى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه الى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فان أحب لقاءك أتيته من قريب » — فكتب اليه أبو مسلم وقد فهم أنه يريد بقاءه قريبا منه لقتله كما حدث بعد «إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه

الله منه؛ وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون من الوزراء اذا سكنت الدهماء. فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ماوفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة . فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك وان أبيت الا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى »

فكتب اليه المنصور — « قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فان راحتهم فى انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ماأنت به». وقد حمل اليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن اليها ان أصغيت اليها . وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك » . فأثر فيه ذلك على مافهم آنفا وقدم عليه فلقى حتفه .

والكتابة قد استخدمت فى الاستعطاف والوعيد والعتاب المصحوب بالعفو مما يدور حول الملك، وتعدته دون الخطابة الى مالا يدور حوله .

فمن الأول فى الاستعطاف كتاب الصابى عن عضد الدولة الى أخيه مؤيد الدولة بشأن ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد، ومنه فى الوعيد كتاب عمرو بن مسعدة عن المأمون الى نصر بن شبث وكتاب ابن العميد عن ركن الدولة الى ابن ونداد ؛ ومنه فى العتاب المصحوب بالعفو كتاب ابن الزيات عن الخليفة الى بعض العمال .

ومن الثانى فى الاستعطاف كتاب ابن الرومى السابق ، ومنه فى الوعيد كتاب ابن الزيات الى الصولى، ومنه فى العتاب كتاب الخوارزمى الى صديقه الذى لم يعده فى مرضه ولم يهنئه بابلاله وكتابه الى تلميذه الذى لم يزره بعد أن تخرج عليه .

والكتابة قد استخدمت فى الحوار بين الخصماء وفيه بين الأحباء وفيه بين المتفاصحين . فمن الاول الرسائل المذكورة بين المنصور والنفس الزكية، ومن الثانى كتاب يحى بن خالد الى ابنه الفضل فى تنازله عن الخاتم لجعفر ورد الفضل عليه. أما الثالث فاليك منه رسالتين مما كان بين الخوارزمى والبديع، فان الخوارزمى لما لم يحسن مقابلة البديع على ما كتب له قبل لقائه فى رسالة الشوق الماضية كتب اليه البديع ـ الأستاذ والله يطيل بقاءه ويديم تأييده ونعماءه، أزرى بضيفه أن وجده يضرب آباط القلة فى أطمار الغربة، فأعمل فى ترتيبه أنواع المصادفة وفى الاهتزازله أصناف المضايقه، من إيماء بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف ودفع فى صدر القيام عن التمام ومضغ الكلام وتكلف لرد السلام وقد قبلت هذا الترتيب صعرا واحتملته وزرا واحتضنته نكرا وتأبطته شرا ولم آله عذرا، فان المرء بالمال وثياب الجمال وأنا مع هذه الحال وفى هذه الاسمال لا أتقزز من صف النعال. ولو حاملته العقاب وناقشته الحساب وصدقته المتاع، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح وراغية رواح وقوما يجرون المطارف ولا يمنعون المعارف .

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم حق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

ولوطوحت بالاستاذ أيدى الغربة إليهم لوجد منال البشر قريبا ومحط الرحل رحيبا ووجه المضيف خصيبا . ورأيه أيده الله فى أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ويوسع أعطاف ظنه بموقع هذا العتاب الذى معناه ود والمر الذى يتلوه شهد موفق إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الخوارزمى —

إنك إن كلفتني مالم أطق ساءك ماسرك مني من خلق

فهمت ما تناوله سيدى من حسن خطابه ومؤلم عتبه وعتابه وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه من نبابه دهر، ومسه من الأيام ضر، والحمد الله الذى جعلني موضع أنسه ومظنة مشتكى ما فى نفسه . أما ماشكاه سيدى من مضايقتى إياه زعم فى القيام وتكافى لرد السلام، فقد وفيته حقه كلاما وسلاما وقياما على قدر ماقدرت عليه ووصلت إليه، ولم أرفع عليه غير السيد أبى القاسم وماكنت لأرفع أحدا على من أبوه الرسول وأمه البتول وشاهداه التوراة والانجيل وناصراه التأويل والتنزيل والبشير به جبريل وميكائيل . وأما عدم الجمال ورثاثة الحال فما يضعان عندى قدرا ولا يضران نجرا وإنما اللباس جلدة والزى حلية بل قشره، وإنما يشغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل ونحن بحمد الله نعرف الخيل عارية من جلالها ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لا بآلاتها وأحوالها ؛ وأما القوم الذين صدر سيدى عنهم وانتمى اليهم، ففيهم لعمرى فوق ماوصف حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فنلت المراد وأحمدت المراد .

فإن أك قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بذميم

والله يعلم نيتى للاحرار عامة ولسيدى من بينهم خاصة .فأن أعانى على مرادي له ونيتى فيه بحسن العشرة بلغت له بعض مافى النية وجاوزت مسافة القدرة . وإن قطع على طريق عزمى بالمعارضة وسوء المؤاخذة صرفت عنانى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار

فماالنفس الا نطفة بقرارة اذا لم تكدر كان صفوا غديرها

وعلى هذا فحبذا عتاب سيدى إذا صادف ذنبا واستوجب عتبا. فأما أن يسلفنا العربدة ويستكثر المعتبة والموجدة؛ فتلك حال نصونه عنها ونصون أنفسنا عن احتمال مثلها. فليرجع بنا الى ماهو أشبه به وأجمل له ولست أسومه أن يقول « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لى ولكم وهو أرحم الراحمين » .

والكتابة قد استخدمت فى التعازى والتهانى وقد سلفت فى النماذج تهنئة ابن المقفع بمولودة وتعزيته عن بنت ثم عن ابن، وتهنئة أحمد بن يوسف بمولود، وتهنئة عمرو بن مسعدة عن المأمون صهره الحسن بن سهل بمولود أيضا، وتهنئة الجاحظ الفتح بن خاقان فى يوم عيد، وتهنئة الثعالبى بالقدوم من سفر وكذا تهنئة رشيد الدين الوطواط وغيرها مما جاء بعدها.

وباب التعزية والتهنئة من أحفل أبواب التراسل وأكثرها مقولا لاتصاله بنعماء الايام وبأسائها . ويتصل به مايكتب الى المكروبين بمرض أو غيره تصبيرا لهم وتمنيا لزواله عنهم كما كتب ابن المعتز سابقا.

والكتابة قد استخدمت فى التزلف والتقرب عن طريق المدح والثناء كما فعل ابن العميد فى كتابه الى ركن الدولة عن نماء العلوم به، وكما كتب الصاحب الى ابن العميد وقد وصف له البحر ، وكما كتب

عبد الله بن طاهر من خراسان الى المأمون يقول

« بعدت دارى عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته وإن كنت حيث تصرفت لا أتفيأ إلا به. وقد اشتد شوقى إلى النظر إلى رؤيته المباركة والتزين بحضور مجلسه وتلقيح عقلى بحسن رأيه. فلا شيء عندى آثر من قربه وإن كنت فى سعة من عيش وهبه الله جل ذكره لى به. فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى المصير إلى دار السلام لأحدث عهدا بالنعم على وأتهنأ بالنعمة التى أقرها لدى بفعل — فكان جواب المأمون اليه ـ قربك إلى ياأبا العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك فالزم مكانك واتبع قول الشاعر

رأيت دنوا للدار ليس بنافعى اذا كان ما بين القلوب بعيدا

والكتابة قد استخدمت فى بيان وجه الرأى لمن طلبه مستشيرا، كما كتب ابن المعتز آنفا مجيبا من يسأل كيف يكون كسب المحامد، وكما كتب البديع إلى ابن تحدثه نفسه بصحبة الملوك يقول « إن الملوك إذا خدمتهم ملوك وان لم تخدمهم أذلوك، وإنهم يستعظمون فى الثواب رد الجواب ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب، وإنهم ليعثرون على عثرة من خدمهم فيبنون لها منارا ثم يوقدون لها نارا ويعتقدونها ثارا. فكن من الملوك مكانك من الشمس. إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والارض لك دار، فكيف لو أسفت قليلا وتدانت يسيرا، وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد، فيتخذ سربا لواذا وهربا ويبتغى فى الارض نفقا فرارا وفرقا ». ومما يتصل بهذا ما يصدر فى كتب الترفع

عما لاينبغى أن يكون إلى مايجب أن يكون كما تقدم فى كتاب البديع إلى من هناه بمرض الخوارزى، وكما كتب محمد بن يحي والى أرمينية للرشيد إلى بعض عماله وقدوشي إليه برجل ليأخذ مالا له يقول «قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها.وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة وألسنة السعاة كليلة خاسئة . فاذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك وخذهم بما فى ديوانك ؛ فانا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ولاحياء الأعلام الدائرة . وجنبني وتجنب قول جرير يخاطب الفرزدق

وكنت إذا حللت بدار قوم　　　رحلت بخزية وتركت عارا

وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا ؛ واعلم أنها مدة تنتهى وأيام تنقضى فاما ذكر جميل وإما خزى طويل »

والكتابة قد استخدمت فى النصائح والوصايا وفى العظات أيضا على النهج الذى أوضحناه فيها وإن كثر استعمالها فى الأولين وكان فى الأخرى قليلا . فمنها فى الوصية ما كان يكتب به الخلفاء لأولياء عهودهم،وذوو الاقدار لنابهى أبنائهم كما كتب المنصور لولى عهده المهدى وطاهر بن الحسين لابنه عبد الله، ثم ماكان يكتب به كل رجل لمن يهتم بأمره من ذوى قرباه كما فعل البديع مع ابن أخته إذ كتب إليه يقول « أنت ولدى مادمت والعلم شانك والمدرسة مكانك والدفتر أليفك والمحبرة حليفك.فان قصرت ولا أخالك فغيرى خالك ». ومنها فى النصيحة ما كتب البديع إلى صديقه الذى مات أبوه يحذره التبذير والتقتير وما كتب ابن المقفع فى أدبه الصغير من شتيت النصح والإرشاد ,

أما العظة فمنها ما كان من سفيان الثورى إلى الرشيد إذ كتب يدعوه إلى زيارته ويذكر له أن العلماء زاروه حين استخلافه وهنئوه وأنه فتح لهم بيوت المال وأجزل لهم الصلات . فانه حين وصل إليه الرسول بالكتاب وهو بمسجد الكوفة يعظ أصحابه وقرأ مافيه كتب إلى الرشيد على ظهره يقول : ـ بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى العبد المغرور هرون الرشيد الذى سلب حلاوة الايمان . أما بعد فانى قد كتبت اليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقليت موضعك، فانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه وأنفذته فى غير حكمه ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت لى تشهدنى على ذلك . أما إنى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدى الله تعالى . ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله تعالى والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد ياهرون مئزرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل ، فقد رزئت فى نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الاخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما . يا هرون قعدت على السرير وأسبلت سترا دون بابك

وتشبهت بالحجبة برب العالمين ثم أقعـدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ،يظلمون الناس ولاينصفون ويشربون الخمور ويضربون من شربهـا ويزنون ويحـدون الزانى ويسرقون ويقطعون يد السارق . أفلا كانت هـذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحـكم بها الناس فكيف بك ياهرون غدا اذا نادى المنادى من قبل الله تعالى « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فقدمت بين يدى الله تعالى ويداك مغلولتان الى عنقك لايفكهما إلا عدلك وانصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وامام الى النار. كأنى بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق وردت المساق وأنت ترى حسناتك فى مـيزان غيرك وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة فى سيآتك. بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة فاحتفظ بوصيتى واتعظ بموعظتى التى وعظتك بهـا،واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية فاتق الله ياهرون فى رعيتك واحفظ محمدا صلى الله عليـه وسلم فى أمته وأحسن الخلافة عليهم واعلم أن هذا الامر لو بقى لغيرك لم يصل اليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيـا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد فنهم من تزود زادا نفعه ومنهم من خسر دنيـاه وآخرته، وإنى أحسبك ياهرون ممن خسر دنياه وآخرته فاياك اياك أن تـكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام[1]

(١) قيل إن هرون لما وصله هذا الكتاب جعل يقرؤه ودموعه تتحدر فقال له بعض الحاضرين قد اجترأ عليك ياأمير المؤمنين سفيان فلو أثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن فقال لهم «اتركونا ياعبيد الدنيا فالمغرور من غررتموه والشقى من أهلكتموه إن سفيان وحده » ثم أبقى الكتاب الى جنبه يقرؤه» رحمه الله عند كل صلاة حتى توفى

هذا على أنه قد بقيت من النماذج السالفة بقية تمثل أغراضا أخرى للكتابة لم تتناولها الخطب بل لم يتناول بعضها الشعر.
وهاهى ذى مصحوبة بما يتصل بها وبما لايتصل من سائر الاغراض التى لم يسبق لها فى النماذج شىء.

١ — الاخبار والاستخبار — كما كتب ابن المقفع فيما سلف وكما كتب ابراهيم بن المهدى الى صديق له يقول « كتابى اليك كتاب مخبر وسائل. فأما الاخبار فعن تصرف الخطوب على مايوجب العذر عند صديقى العزيز على فى إبطائى بالتعاهد له. وأما السؤال فعن إمساك هذا الاخ الودود المودود عن مثل هذا، فان السؤال كاشف ماساف مصلح لما استأنف »

٢ — الاستمناح والتوصل — كما كتب ابن المقفع والصولى آنفا.
ومن أجمل ماوقع فى هذا الباب ماكتب العتابى الى أحد أصدقائه وهو:—
«أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه والجنة فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها وتستريح القلوب اليها، وكنا نعفيها من النجعة استتماما لزهرتها وشفقة على خضرتها وادخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف اشتد علينا كلبها وغابت قطتها وكذبتنا غيومها وأخلفتنا بروقها وفقدنا صالح الاخوان فيها، فانتجعتك وأنا بانتجاعى اياك شديد الشفقة عليك عظيم الثقة لك والثقة بك مع علمى بأنك موضع الرائد وأنك تغطى عين الحاسد وأنك غاية أمل القصاد وأعذب مناهل الوراد، والله يعلم أنى ماأعدك الا فى حومة الاهل. واعلم أن الكريم اذا استحيا من

إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يعرف جوده ولم تظهر همته »
فشاطره ذلك الصديق ماله ومرافقه .

ومن أدق أنواع التوصل ماكان فى طلب المصاهرة: ولعل من أوقع الرسائل فيه رسالة الصابى السابقة عن صديقه.

٣ — الاستنجاز — وقد تقدم للجاحظ نموذج منه، وهو مثل ما كتب العتابى قبله يقول « أما بعد فقد تركتنى منتظرا لوعدك متنجزا لرفدك، وطالب الحاجة محتاج الى نعم هنيئة أو لا مريحة والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل وقد قلت

بسطت لسانى ثم أوثقت نصفه فنصف لسانى بامتداحك مطلق
فان أنت لم تنجز عداتى تركتنى وباقى لسان الشكر باليأس موثق

وأرفق منهما ما كتب به يحيى بن أكثم الى المأمون « أنت ياأمير المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز ونقابلك بالادكار وأنت شاهدى على وعدك، لاتأمر بشىء لم تتقدم أيامه ولم يقدر زمانه ونحن أضعف من أن يستولى علينا صبر انتظار نعمتك وأنت الذى لايؤوده إحسان ولايعجزه كرم. فعجل لنا ياأمير المؤمنين مايزيدك كرما وتزداد به نعما ونتلقاه بالشكر الدائم »

٤ — الاعتذار — كما كتب الصولى سابقا يعتذر عن تأخر كتبه، وكما كتب البديع يقول « يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ويسعد برؤيته رسولى قبل وصولى ويرد مشرع الانس به كتابى قبل ركابى، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة

وعلى أن أسعى وليس على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره ومابى حب للحيطان ولكن شغف بالقطان،ولاعشق للجدران ولكن شوق الى السكان

٥ — الشكر ـ كما كتب الحسن بن وهب سابقا وكما كتب العتابى الى بعض الرؤساء « كتبت اليك ونفسى دائمة القيام بشكرك ولسانى لهج بالثناء عليك والغالب على ضميرى لائمة نفسى واستقلال جهدى فى مكافأتك،وأنت أعزك الله فى عز الغنى عنى وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك. وليس من أخلاقك أن تولى جانب النبوة منك من هو عان فى الضراعة إليك ». ومن لطيفه وغريبه ما كتب به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى أحد الرؤساء وقد عاده « ما أعرف أحدا جزى العلة خيرا غيرى فانى جزيتها الخير وشكرت نعمتها على ، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية.فأنا كالاعرابى الذى جزى يوم البين خيرا فقال

جزى الله يوم البين خيرا فانه أرانا على علاته أم حارث

أرانا ربيبات الخدور ولم نكن نراهن الا بانبعاث الحوادث

٦ ـ الاستهداء ـ كما كتب الموصلى فيما سبق يستهدى صديقه العراقى تمرا،وكما كتب ذو الكفايتين ابن ابن العميد يستهدى شرابا فقال « قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاى رقدة من عين الدهر وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا.فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام،عدنا كبنات نعش والسلام»

٧— الاهداء — كما كتب عبد الله بن طاهر الى المأمون وقد أهدى اليه فرسا « قد بعثت الى أمير المؤمنين بفرس يلحق الأرانب فى

الصعداء ويجاوز الظباء فى الاستواء ويسبق فى الحدور جرى الماء فهو كما قال تأبط شرا

ويسبق وفد الريح من حيث تنتحى بمنخرق من شده المتدارك

وكتبت جارية من جوارى المأمون له وقد أهدت اليه تفاحه، «إنى لما رأيت تنافس الرعية فى الهدايا اليك وتواتر ألطافهم عليك فكرت فى هدية تخف مئونتها وتهون كلفتها ويعظم خطرها ويكمل موقعها فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت ويكمل فيه هذا الوصف الا التفاح، فأهديت اليك منه واحدة فى العدد كثيرة فى التقرب وأحببت ياأمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها وأكشف لك عن محاسنها وأشرح لك لطيف معانيها وما قالت الاطباء فيها وتفنن الشعراء فى أوصافها حتى ترمقها بعين الجلالة وتلحظها بمقلة الصيانة ولكن أقول كما قال أبوك الرشيد رضى الله عنه أحسن الفاكهة التفاح اجتمع فيه الصفرة الدرية والحمرة الخمرية والشقرة الذهبية وبياض الفضة ولون التبر، يلذبها من الحواس العين ببهجتها والانف بريحها والفم بطعمها»

٨ ـ الشوق ـ كما تقدم للجاحظ إلى قليب ولابن العميد إلى الطبرى، وكتب العتابى «لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك ولم أتجشم مراراة تماديك. ولكن استخفتنا صبابتنا فاحتملنا قسوتك لعظيم قدر مودتك، وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه ولشوقنا من إبطائه». وكتب عبد الله بن العباس العلوى الى ابراهيم بن المهدى «ما أدرى كيف أصنع، أغيب فأشتاق ونلتقى فلا أشتفى، ثم يجدد

لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء نوعا من تجديد الحرقة بلوعة الفرقة »
فكتب اليه ابراهيم « أنا الذى علمتك الشوق لأنى شكوت ذلك اليك
فهيجت مثله منك». ومما يتصل بالشوق الكتابة فى التعرف قبل اللقاء
كما كتب البديع الى الأمير أبى نصر الميكالى يقول « كتابى أطال الله
بقاء الامير وبودى أن أكونه فاسعد دونه، ولكن الحريص محروم،
لو بلغ الرزق فاه لولاه قفاه. وبعد فانى فى مفاتحته فى ثقة تعدو بد ترتعد،
ولم ذاك والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره ومن رأى من السيف أثره
فقد رأى أكثره والليث وان لم ألقه فلم أجهل خلقه. وما وراء ذلك
من تالد أصل ونسب وطارف فضل وأدب فعلوم تشهد به الدفاتر والخبر
المتواتر وتنطق به الأشعار كما تحالف عليه الآثار والعين أقل الحواس
إدراكا والأذن اكثر استمساكا »

٩- الاستزارة - كما سبق من الخوارزمى الى تلميذه، وكما كتب
بعضهم الى صديق يقول « ليس من قدرى أدام الله سعادتك أن أقول
لك جعلت فداك، لأنى أراك فوق كل قيمة نضيرة وثمن معجز ولأن
نفسى لاتساوى نفساً فتقبل فى فديتك، وعلى كل حال جعلنى الله فداء
ساعة من أيامك. واعلم أيها السيد العلى المنزلة أنه لو كان لعبدك من شدة
الخطب أمر يقف عند حده النعت لاجتهدت أن يصف من ذلك ماعسى
أن يعصف به زمام قلبك ويحنو على الرقة والتحفى أثناء جوانحك، ولكن
ما أمسيت وأصبحت ممتحنا به فيك منع كل بيان ونزح عن كل لسان،
والود أيها الصديق لم يشبه قذى ريبة ولم يختلط به ثاب معاب، فلا
ينبغى لمن كرمت أخلاقه أن يعاف قرابة صاحبه المدل بحسن نيته،

والذى أتمناه أيها المولى الحبيب مجلس أقف فيه أمامك ثم أبوح بما أضنى جسدى وفتت كبدى، فان خف ذلك عليك ورأيت نشاطا من نفسك اليه كنت كمن فك أسيرا وأبرأ عليلا وسلك من الخير سبيلا يتوعر سلوكها على من كان قبله ويكون بعده، ثم أضاف إلى ذلك منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر فرأيك أيها السيد المعتمد، فى الاسعاف قبل أن يبدرنى الموت فيحول بينى وبين مانزعت اليه النفس مواصلا برا إن شاء الله (١)

ومما جرت العادة بالاستزارة فيه مجالس الأنس والمنادمة كما كتب إسحق بن ابراهيم لبعض الكبراء «يومنا يوم لين الحواشى وطىء النواحى وسماؤنا قد أقبلت ورعدت بالخير وبرقت وأنت قطب السرور

(١) كان جواب هذه الرسالة الممعنة فى الضراعة والتزلف رسالة مثلها فى ذلك وهى «تولى الله تعالى ماجرى به لسانك بالمزيد ولا أوحش مابيننا بطائر فرقة ولا حافر تشتت رضمنا وإياك فى أوثق حبال الأنس وأوكد أسبا الألفه. وقفت على ماتضمنته من العجز عن بلوغ ماخامر قلبك وانطوى فى ضميرك من الشغف المقلق والهوى المضرع. ولعمرى لو كشف لك عن معشار مااشتمل عليه مضمر صدرى لأيقنت أن الذى عندك اذا نسبته إلى ماعندى كالمتلاشى الزائل، ولكنك بفضل الانعام سبقتنا الى كشف مافى الضمير. وأما طاعتى لك وزمامى اليك فطاعه العبد المقتنى الطائع لما يحكم به وعليه مولاه ومالكه وأنا صائر اليك وقت كذا فتأهب لذلك بأجهد عافية وأتم عاقبة وأسعد نجم جرى بألفة إن شاء الله تعالى»

ونظام الأمور فلا تفردنا فنقل ولا تنفرد عنا فنذل » . وكما كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح فى يوم دجن لم يمطر « وأما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس فى يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كثير عزة

وأنى وتهيامى بعزة بعدما　　تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما　　تبوأمنها للمقيل اضمحلت

وما أصبحت أمنيتى إلا فى لقائك فليت حجابا هتك بينى وبينك ، ورقعتى هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلى ولم تتحيفه وبعثت فى نشاطا حركني للكتابة اليك . فرأيك فى إمطارى سرور وابسار خبرك إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم موفقا إن شاء الله »[(١)] . وكتب الحسن بن سهل أيضا فى مثل ذلك إلى صديق « نحن فى مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسنا وقد باتت السماء تعلها فهى مشرقة بمائها حالية بنوارها فرأيك فى أن تكون سواء فى استمتاع بعضنا ببعض » . فكان الجواب » هذه صفة لو كانت فى أقاصى الاطراف لوجب انتجاعها وحث المطى فى ابتغائها فكيف فى موضع أنت تسكنه وتجمع إلى

---

(١) كانت إجابة ابن وهب له » وصل كتاب الأمير أيده الله وفى طاعم ويده عاملة ولذا تأخر الجواب قليلا . وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته وما استوجب ذنبا يستحق به عتبا . لأنه إذا أشمس حكى حسنك وضياءك وان أمطر حكى جودك وسخاءك وان غام أشبه ظلك وفناءك ، وسؤالى الآن عن نعمة من نعم الله عزوجل على ، أعفى بها آثار الزمان السيء عندى ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف الله الحوادث عنه وعن حظى منه .

آنيق منظره حسن وجهك وطيب شمائلك وأنا الجواب » .

وقد رقت المكاتبات فى هذا الباب وماتقدمه حتى أصبحت غزلا منثورا لايفرقه عن غزل الشعر إلا القافية والوزن كما قرأت فيما مر .

١٠ — شكوى الدهر — كتب الصولى إلى بعض إخوانه «ياأخى أشكو إلى الله واليك تحامل الايام على، وسوء أثر الدهر عندي ، وأنى معلق فى حبائل من لايعرف موضعى ولا يحلو عنده موقعى . أطلب منه الخلاص فيزيدنى كلفا وأرتجى منه الحق فيزداد به ضنا . فالثواء ثواء مقيم والنية نية ظاعن وبزمام الرأى مرتحل . ما أذهب إلى ناحية فى الحيلة إلا وجدت من دونها مانعا من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع إلى الله بالشكر وأسأله جميل العقبى وحسن الصبر » .

وكتب ابن العميد فى مثل ذلك « إنما أشكو اليك جعلنى الله فداك دهرا خئونا غدورا وزمانا خدوعا غرورا لايمنح مامنح إلا ريثما ينتزع ولا يبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعا ثم ينقطع ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة وسجية معروفة أن يشفع مايبرمه بقرب انتقاض ويهدى لما يبسطه وشك انقباض . وكنانلبسه على ماشرط وإن حاف فيه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونسلم ونستنم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجىء محذوره مصمتا بلا انفراج ولا يأتى مكروهه صرفا بلامزاج ، ونتعلل بمانختلسه من غفلاته ونسترقه من ساعاته . وقد استحدث غير ماعرفناه سنة مبتدعة وشريعة متبعة وأعد لكل صالحة من الفساد حالا وقرن بكل خلة من المكروه خلالا »

١١ — الموازنة والمناقضة — فأما الموازنة فهى المفاضلة بين شيئين بذكر محاسن كل ومقابحه أو منافعه ومضاره كما فعل الحريرى سابقا فى الموازنة بين صناعتى الانشاء والحساب وقد راجت سوقها حتى ألفت فيها كتب . وأما المناقضة فهى أن يعمد الكاتب إلى الشىء يكون ذا فضل على غيره فيسلبه ماله من فضل ويثبت لهذا المفضول ما يجعله فاضلا كما فعل سهل بن هرون فى تفضيل الزجاج على الذهب من رسالة يقول فيها. « الزجاج مجلو نورى والذهب متاع سائر ، والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل اليد ولا يرتفع فى السوم . واسم الذهب يتطير منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام ، وهو فاتن فاتك لمن صانه وهو أيضا من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال الاحمران والزجاج لا يحتمل الوضر ولا يداخله الغمر ومتى غسل بالماء وحده عاد جديدا ، وهو أشبه شىء بالماء ، وصفته عجيبة وصناعته أعجب »

١٢ — التفكه والتندر — كما كتب الجاحظ إلى صديق له يوصيه برجل لا يعرفه يقول « هذا كتابى مع من لا أعرفه وقد كلمنى فيه من لا أوجب حرمته فان قضيت حاجته لم أحمدك وإن رددته لم أذممك » . وكما كتب أبو هرون العبدى إلى السيدة زبيدة وقد هلك لها قرد مستأنس « أيتها السيدة الخطيرة إن موقع الخطب بذهاب الصغير المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح . ومن جهل قدر التعزية عن التافه الخفى عمى عن التهنئة بالجليل السنى . فلا نقصك الله الزائد فى سرورك ولا حرمك أجر الذاهب من صغيرك . وكتب البديع إلى رجل ألح عليه فى طلب العطاء وقال له « لم لا تديم الجود بالذهب كما تديمه بالادب »

« عافاك الله ، مثل الانسان فى الاحسان كمثل الأشجار فى الثمار،سبيله إذ أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنه ، وأنا لا أملك عضوين من جسدى وهما فؤادى ويدى . أما الفؤاد فيعلق بالوفود وأما اليد فتولع بالجود ، لكن هذا الخلق النفيس ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الذهب والأدب فلم جمعت بينهما ؟ والأدب لا يمكن ثرده فى قصعه ولاصرفه فى ثمن سلعه ، ولى من الأدب نادرة . جهدت فى هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ لى من جيمية الشماخ لو نافلم يفعل،وبالقصاب أن يسمع أدب الكاتب فلم يقبل،وأنشدت فى الحمام ديوان أبى تمام فلم ينفذ،ودفعت الى الحجام مقطعات اللجام فلم يأخذ،واحتيج فى البيت إلى شىء من الزيت فأنشدت من شعر الكميت ألفى ومائتى بيت فلم تغن،ولو وقعت أرجوزة العجاج فى توابل السكباج ماعدمتها عندى ولكنها ليست تقع فما أصنع .فان كنت تحسب اختلافك إلى إفضالا على، فراحتى فى ألا تطرق راحتى ، وفرجى فى ألا تجى » .

ولعل من هذه الناحية مايكتب به فى المواطن التى لا تحسن فيها الكتابة كما فعل ابن العميد إذ كتب إلى شخص تزوجت أمه يقول : « الحمد لله الذى كشف عنا ستر الحيرة وهدانا لستر العورة وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة،ومنع من عضل الامهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرض للجزيل من الاجر من استسلم لواقع قضائه وعوض جزيل الثواب والذخر من صبر على نازل بلوائه . وهنأك الله الذى شرح للتقوى صدرك ووسع فى البلوى صبرك ، ماألهمك من التسليم لمشيئته والرضا بقضيته،

وماوفقك له من قضاء الواجب فى أحد أبويك وفى عظم حقه عليك . وجعل الله تعالى جدة ماتجرعته من أنف وكظمته من أسف معدودا فيما يعظم عليه أجرك ويجزل به ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعلها المنتظر من ارتماضك لدفنها فتستوفى بها المصيبة وتستكمل عنها المثوبة . ووصل الله سيدى من الصبر على عروسها . بما يستكسبه من الصبر على نفسها وعوضه من أسرة فراشها أعواد نعشها . وجعل تعالى جده ماينعم به عليه بعدها من نعمة معرى من نقمة ومايوليه بعد قبضها من منحة مبرأ من محنه . فأحكام الله تعالى جده وتقدست أسماؤه جارية على غير مراد المخلوقين لكنه تعالى يختار لعباده المتقين ماهو خير لهم فى العاجلة وأبقى لهم فى الآجله . اختار الله لك فى قبضها اليه وقدومها عليه ماهو أنفع لها وأولى بها وجعل الغير كفؤا لها والسلام.

١٣ — الذم والتهكم — وهو باب حافل فى الكتابة بكثير من أنواع المذام حفل الشعر به — كتب أحمد بن يوسف يهجو بنى سعيد ابن سلم « لولا أن الله ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن لنزل فيكم نبى نقمة وأنزل فيكم قرآن غدر ، وماعسيت أن أقول فى قوم محاسنهم مساوى السفل ومساويهم فضائح الامم وألسنتهم معقولة بالعى وأيديهم مغلولة بالبخل وهم كما قال الشاعر

لايكبرون وإن طالت حياتهم ولاتبيد مخازيهم وإن بادوا

وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة «أمابعدفانى توسلت اليك فى طلب نائلك بأسباب الأمل وذرائع الحمدفرارا من الفقرورجاء للغنى فازددت بهما بعدا مما إليه تقربت وقربا مما عنه تباعدت. وقدقسمت

اللائمة بيني وبينك لأني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي، وأمرت باليأس من أهل البخل فسألتهم ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم»

وكتب ابراهيم بن المهدي «أما بعد فانك لو عرفت فضل الحسن لتجنبت شين القبيح. وقد رأيتك وآثر القول عندك ما يضرك فكنت فيما كان منك ومنا كما قال زهير بن أبي سلمى

وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلمم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو بارد مقاتله

وكتب بشر بن أبي كبار البلوي إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبي وإلى صنعاء لهرون الرشيد حين هم بتوليته بعض النواحي فمنعه هشام بن يوسف الأبناوي «أما بعد فأن رأى الامير أمتع الله به ألا يعلم هشاما ما يريد من صلتي فعل، فأنه لم يردني وآلى قط بخير ولم يفتح لي الامير باب صلة فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله وحده ولا يرجو بها إلا ثوابه إلا عرض هشام من دونها فتقلها وكرهها وأدار القياس عليها وضرب لها الامثال، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمهما بالله أني لكما لمن الناصحين ومدحني بما لم يسمع به من أخلاقي وانتقصني فيما لا يطمع بغيره مني، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة، ثم زخرف ذلك بالموعظة وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من ناحية الشفقة وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فاذا الحاجب يزلقني ببصره وإذا الكاتب يسلقني بلسانه وإذا الخادم يعرض عني بجانبه وإذا الوالي ينظر في نظر المغشي عليه من الموت. فصارت وجوه النفع مردودة

وأبواب الطمع مسدودة وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشيما تذروه الرياح والعلة التى كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا . فأسأل الله الذى جعل لكل نبي عدوا من المجرمين أن يكفيني شره ويصرف عنى كيده فانه يرانى هو وقبايته من حيث لا أراهم والسلام »

١٤ — الوصف — وكما أن هذا الباب جاء فى الشعر أحفل أبوابه كذلك جاء فى الكتابه وقد تقدم منه وصف ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة، ووصف الجاحظ للكتب ووصفه للضحك ، ووصف الصاحب لمصحف قرآنا وخطا . وهاك منه بعضا منوعا — كتب عبد الله بن طاهر وهو بخراسان إلى اسحق بن ابراهيم ببغداد يسأله أن يوجه إليه بأقلام « أما بعد فأنا على طول الممارسة لهـذه الصناعة التى غلبت على الاسم ولزمت لزوم الرسم فحلت محل الانساب وجرت مجرى الألقاب، وجدنا الاقلام القصبية أسرع فى الكواغد وأمر فى الجلود ، كما أن البحرية منها أملس فى القراطيس وألين فى المعاطف وأكل عن تمزيقها والتعلق بما ينبو عن شظاياها . ونحن فى بلاد قليلة القصب رديء .مايوجد بها منه فاحببت أن تتقدم باختيار أقلام قصبية وتتأنق فى انتقائها قبلك وطلبها فى منابتها من شطوط الأنهار وأرجاء الكروم . وأن تتيمم باختيارك منها ، الشديدة المجس الصلبة المعض الغليظة الشحوم المكتنزة الجوانب الضيقة الأجواف الرزينة الوزن . فانها أبقى فى الكتابة وأبعد من الخفاء ، وأن تقصد بانتقائك منها الرقاق القضبان اللطاف المنظر المقومات الأود الملس العقد ولا يكون فيها التواء أمت ولا عوج ، الصافية القشور

الخفية الأبر الحسنة الاستدارة الطويلة الأنابيب البعيدة ما بين الكعوب الكريمة الجواهر المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتز من أعاليها لاستواء أصولها برءوسها، المستكملة يبسا القائمة على سوقها. قد تشرب الماء فى لحائها وانتهت فى النضج منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها وإبان ينعها ولم تؤخر فى الأيام المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء وعفن الندى. فاذا استجمعت عندك أمرت بقطعها ذراعا ذراعا قطعا رقيقا تتحرز معه أن تتشعب رءوسها وتنشق أطرافها. ثم عبأت منها حزما فيما يصونها من الأوعية وعليها الخيوط الوثيقة ووجهتها مع من تحتاطه فى حراستها وحفظها وإيصالها إذ كان مثلها يتوانى فيها لقلة خطرها عند من لا يعرف فضل جواهرها». وكتب الخوارزمى يصف رمدا أصابه:

«صادف ورود الكتاب رمدا فى عينى حصرنى فى الظلمة وحبسنى فى الغم والنقمة، وتركنى أدرك بيدى ما كنت أدرك بعينى كليل، سلاح البصر قصير خطوط النظر. قد نكلت مصباح وجهى وأعدمت بعض الذى هو آثر عندى من كلى، فالأبيض عندى أسود والقريب منى مبعد، قد خاط الوجع أجفانى وقبض عن التصرف بنانى ففراغى شغل ونهارى ليل وطوال ألحاظى قصار، وأنا ضرير وإن عددت فى البصراء وأمى وإن كنت فى جملة الكتاب والقراء قصرت العلة خطوة قلمى وبنانى وقامت بين يدى ولسانى». — وكتب القاضى الفاضل يصف حمام الرسائل — تحمل من البطائق أجنحة وتجهز جيوش المقاصد والاقلام أسلحة. وتحمل من الاخبار ما تحمله الضمائر وتطوى الارض اذا نشرت الجناح الطائر، تكون مراكب الاغراض والاجنحة قلوعا وتركب الجو بحرا يصفق

فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا، ومن بلاغات البطائق استفادت ماهى مشهورة به من السجع ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى اليها دائمة الرجع ، وقد سكنت النجوم فهى أنجم وأعدت فى كنانتها فهى أسهم، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرقاع فصارت أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وقد باعد الله مابين أسفارها وقربها وجعلها طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وما كذبها ، ترغم أنف النوى بتقريب العهود وتكاد العيون تلاحظها تلاحظ نجم السعود ، وهى أنبياء الطيور لكثرة ماتأتى به من الأنباء وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء » .— وكتب الموصلى يصف روضة — « جنة علت أرضها أن تمسك ماء وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء، وهى ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة . ففيها المشمش الذى يسبق غيره بقدومه ويقذف أيدى الجانين بنجومه، فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ولو نظم فى جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار، وله زمن الربيع الذى هو أعدل الازمان وقد شبه بسن الصبا فى الاسنان . وفيها التفاح الذى رق جلده و عظم قده وتورد خده، وطابت أنفاسه فلا بأن الوادى ولا رنده ، وإذا نظر اليه وجد منه حظ الشم والنظر ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر . وفيها العنب الذى هو أكرم الثمار طينة وأكثرها ألوان زينة وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة، فقطفه يميل بكف قاطفه ويغزى بالوصف لسان واصفه : وفيها الرمان الذى هو طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب . ومن فضله أنه لانوى له

فيرمى نواه ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه . وفيها التين الذى أقسم الله به تنويها بذكره واستتر آدم عليه السلام بورقه إذ كشفت المعصية من ستره وخص بطول الاعناق فما يرى بها من ميل فهو نشوة من سكره ،وقد وصف بأنه راق طعما ونعم جسما وقيل هذا إناء ملىء شهدا لا إناء ملىء علما . وفيها من ثمرات النخيل مايزهى بلونه وشكله ويشغل بلذته منظره عن لذة أكله وهو الذى فضل ذوات الافنان لعرجونه ولا تماثلى بينه وبين الحلواء « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود من أوساطها لامن أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتنى حدا ولم ألم صاحبها على قوله « لن تبيد هذه أبدا ». هذا وقد ضربوا بالوصف فى ناحية المعنى كما ضربوا فى ناحية الحس ؛ كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى يطلب اليه رجلا يستعين به فى أموره :ـ «أما بعد فانى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع الخصال الخير ذى عفة ونزاهة طعمة قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ليس بظنين فى رأيه ولا بمطعون فى حسبه إن اؤتمن على الأسرار قام بها وان قلد مهما من الأمور أجزأفيه، له سن مع أدب ولسان تقعده الرزانة ويسكنه الحلم قد فر عن ذكاء وفطنة وعض على قارحة من الكمال تكفيه اللحظة وترشده السكتة وقد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام فى أمورهم فحمد فيها له أناة الوزراء وصولة الأمراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء لايبيع نصيب يومه بحرمان غده يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه. دلائل الفضل عليه لائحة وأمارات العلم له شاهدة، مضطلعا

بما استنهض مستقلا بما حمل وقد آثرتك بطايه وحبوتك بارتياده ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك »[1]

١٥ – البيعة بالخلافة، وولاية العهد، والعهود، والمنشورات. وكل ذلك كان يكتب بالاسهاب والاطناب. كالبيعة كان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة وما يجب للأمة على الخليفة. وكانت تملأ بالأيمان المحرجة على الوفاء لما فيها و الاخلاص فى الطاعة لصاحبها. وكذلك كانت الصفة فى ولاية العهد. وكلتاهما كانت تتلى على الناس ويشهد عليها أولوا الحل والعقد، ثم تسجل فى الديوان لتكون حجة على الخارجين والمدعين. ولقد غالوا فى التشديد فيهما لما بدا على الناس من النكث والغدر فضمنوها أيمان الطلاق حتى من الزوجات المستقبلة وإعتاق الرقيق كذلك وعلقوهما على الكعبة تحت نظر سدنتها مبالغة فى الحرمة والاشهار ؛ ومع هذا كله كان يوجد الحنث بها فى كثير من الأحيان

والعهود كانت تختلف باختلاف عمل المعهود اليه. فى العهد بالامارة كانت تفصل الصفات اللازمة للولاية من حزم وعدل ونزاهة واستمساك بالدين ورعاية للصالح العام، وتذكر البلاد متى تتناولها الولاية ثم تختم بتوثيق العهود على المولى أن يخلص فيما ولى وأن يكون عند ظن الخليفة به. وفى العهد بامارة الجيش كانت تعدد الصفات الملائمة من شجاعة

---

(١) كان جواب ابن سماعه أن كتب اليه « إنى عازم أن أرغب إلى الله عز وجل حولا كاملا فى ارتياد مثل هذه الصفة وأفرق الرسل والثقات فى الآفاق لالتماسه وأرجو أن يمن الله بالاجابه فافوز لديك بقضاء حاجتك والسلام ».

وحسن كيد وقوة وصرامة ، وتبين ضرورة القوة للمحافظة على الدولة وحماية الثغور كما تبين ضرورة المحافظة على الجند مما تسوء عاقبته فى أجسامهم وعقائدهم ، ثم يختم بالتوكيد كذلك وفى العهد بالقضاء كانت توضح الصفات الواجبة فى القاضى من علم وأمانة وتقوى ونزاهة وتبين الأمور التى يجب أن يعنى بها من توزيع المواريث وحفظ أموال اليتامى وحسن القيام على الاوقاف والحبوس ، كما تطلب إليه الدقة فى اختيار كاتبه وشهوده وفى مناقشة الشهود لاستخلاص الحقيقة وفى تجنب الهوى الحائف أو المحابى ، وينتهى بمثل ما انتهى به العهدان السابقان من توكيد . وهكذا كان التنويع فى العهود الاخرى من دنيوية كالعهد الخراج والشرطة والأمان أو دينية كالعهد بأمامة الصلاة وتحصيل الزكاة والقيام على الحاج وغير ذلك مما كان فى سائر العهود .

أما المنشورات فكانت الوسيلة لاعلان الخطير من الأمور الدينية والسياسية وخاصة أيام الفتن بقراءتها على العامة فى الولايات ليقفوا على رأى الخلافة فيسيروا كما تريد وكانت الوسيلة كذلك فى إعلان الابتهاج بما يسر من فتح وانتصار ، وتهوين ما يسوء من هزيمة وانكسار

وأمثلة هذه الانواع الاربعة مستفيضة فى كتب التاريخ لاتصالها بسياسة الدولة وفى كتب الادب لرسوخها فى بلاغة الاطناب وليس يتسع المقام للاتيان بنماذج منها لاسهابها فليرجع إليها فيما ذكرنا

١٦ — وأخيرا استخدمت الكتابة فى إنشاء الرسائل المطولة لغير الاخوانيات ، كالسياسة والاخلاق والعلم والاجتماع وما الى ذلك

مما لم يكن للناس عهد بالكتابة فيه ومما يشبه فى زماننا الحاضر ما نقرؤه لولاة الامور وكبار الكتاب فى خطيرات المسائل بالصحف والمجلات وليس من شك وقد نشأ ذلك أول مانشأ فى العصر العباسى على يد ابن المقفع وبأنشائه ، أنه قد سرى اليه مما قرأ فى لغة فارس منه فعكس صورته على لغة العرب فى كثير مما أنشأ. وقد سبق التعريف فى منشآته بالدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وهما فى السياسة وبالأدب الصغير وهو فى الاخلاق وبالأدب الكبير وهو فيهما معا، واخترت نماذج منها جميعا.

ثم جاء بعده الجاحظ فأكثر من هذه الرسائل فيما سمينا ومالم نسم من موضوعات وقد طبعت له مجموعة تشمل إحدى عشرة رسالة أولاها منفصلة الرقم فى الحاسد والمحسود وسبق اختيار شيء منها ، والعشر الباقيات متصلات الارقام وهى على الترتيب، فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة وفى فخر السودان على البيضان وفى التربيع والتدوير وفى تفضيل النطق على الصمت وفى مدح التجار وذم عمل السلطان وفى العشق والنساء وفى الوكلاء وفى استنجاز الوعد وفى بيان مذاهب الشيعة ثم فى طبقات المغنين . ومن الرسائل المطولة الممتعة لغير هذين الامامين الراسمين، الرسالة العذراء لابراهيم بن المدبر فى صناعة الكتابة ، ورسالة سهل بن هرون فى مدح البخل، ورسالة الصابى فى الصيد، ورسالة الصاحب فى الطب ، وغيرها مما تفتقت عنه أذهان هؤلاء وأمثالهم من الكتاب العلماء، فكان ايذانا بأقبال القوم على التأليف والتصنيف إذا كان النواة له، وقد أخذ بعض الرسائل اسم الكتاب كالادبين الكبير والصغير لابن المقفع مثلا . وليس المقام وقد ضاق بنماذج البيعات وأخواتها ، بالمتسع

لهذه الرسائل التى تفضلها سعة وطولا . وكثير منها مطبوع وحده أو مع أشباه ، وسائرها معلوم المواطن فى الكتب فليرجع اليها حيث هى.

وبعد

فقد بقيت للوفاء بحق العنوان المعقود آنفا ، كلمة فى مكانة الكتابة ومنزلة رجالها نجملها هنا قبل الانتقال الى سائر الاقسام فنقول .

أدركت الدولة الأموية وقد عظمت نفع الكتابة والحاجة إلى الكتاب،فأنشأت منذعهدعبدالملك ديوان الانشاءوأخذشأن هذا الديوان يعظم حتى كان القائم عليه يد الخليفة كما كان من سالم على أيام هشام . ثم ازداد عظمة وسعة على يد عبد الحميد أيام مروان بن محمد.فكان الكتاب من الخلفاء كما يقول عبد الحميد هذا من وصيته لهم(بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها،وبنصائحها يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لايستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم.فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون وألسنتهم التى بها ينطقون وأيديهم التى بها يبطشون » . غير أن تلك الدولة قد دالت ولم يتجاوز صاحب الانشاء لقب الكاتب الى غيره . فلما جاءت الدولة العباسية واستقامت الأمور لأبى العباس السفاح لقب كاتبه أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان مولى أخواله بنى الحارث بن كعب بلقب الوزارة فكان أول وزير فى الاسلام وثبت بذلك هذا اللقب لكل من ولى أمر الكتابة بعد من الكتاب ، فعظم شأنهم وامتد نفوذهم وبلغ أقصى مايمكن أن يبلغ فى يحيى بن خالد وزير الرشيد،لأنه

صاحب اليد عليه فى بقاء العهد له ولأنه كان خاصته وملازمه قبل خلافته ولانه كان بمنزلة والده اذا ارتضع لبن زوجه على ابنه الفضل ، ولهذا قلده الوزارة تقليد تفويض. وكان كذلك وأكثر منه مع ابنه جعفر. فأصبح ديوان الانشاء بهذه السنة التى استمرت مرعية يتولاه وزير بنفسه أو بكاتب يندبه هو ليصرفه بأمره . ومن هنا وصل الكتاب إلى أرفع المنازل بعد الخلافة وألقيت اليهم الأعنة فى سياسة الدولة وأحس الخلفاء بشدة الحاجة اليه فاعتصموا بهم فى النوازل وتركوهم يتصرفون عنهم فى الوعد والوعيد والنقض والابرام ونظر الناس إلى هذه المكانة نظرة التقديس والاجلال فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول

ولى فقر تضحى الملوك فقيرة   إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينثنى   وأجعلها سوط الحرون فيعنق
إذا حاولت لطفا فماء مروق   وإن حاولت عنفا فنار تألق

وصار الكتاب يسمعون منهم من ينشد

قوم إذا أخذوا الاقلام عن غضب   ثم استمدوا بها مـــاء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا   ما ينال بحـــد المشرفيات

ونشأ من ذلك مانشأ من مزاحمة القلم السيف فى تصريف الشئون وحسم الأمور فوجدت المفاخرات التى شبت بينهما نظما ونثرا. قال على بن العباس النوبختى مفضلا القلم

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت   له الرقاب ودانت خوفه الامم
فالموت والموت لاشىء يغالبه   مازال يتبع مايجرى به القـلم
بذا قضى الله لها للأقلام مذ بريت   أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وقال أبو تمام مفضلا السيف

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وفاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم أنا أقتل بلا غرر وأنت تقتل على خطر، فقال صاحب السيف القلم خادم السيف إن تم مراده والا فالى السيف معاده

لهذا عنى الخلفاء وذرو الأمر باختيار الكتاب ممن عرفوا برجاحة العقل وغزارة الأدب حتى يكونوا أهلا لما سيلقى عليهم من أعباء الملك وسياسة الدولة غير ناظرين إلى شرف من يختارون ففى اختياره للكتابة كل التشريف إذا كان ممن أخطأه شرف الأصول وفى الكتابة تسويد له إذا لم يكن من المسودين . هذا ابن الزيات سمت به الكتابة إلى منازل الاشراف وقد كان أبيه تاجر زيت وكان بذلك جد فخور قال له العلاء بن أيوب يوما وهو يناظره « ليس هذا كيل الزيت ولا عد الجوز » فقال له « أبالتجارة تعيرنى وقد كنت تاجرا ومتأخرا فقدمنى الله بالأدب وأصارنى بعد التجارة إلى الوزارة وليس المعيب من كان خسيسا فارتفع وانما هو من كان شريفا فاتضع » وهؤلاء آل سهل كانوا صناعا وتجارا فيهم صانع الخمر وبائعها فارتقت بهم الكتابة إلى الوزارة وصاهر المأمون الحسن منهم فى ابنته بوران. ولما كتب إلى المأمون بعد زفافها اليه يقول «قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده فى قبول أمته شيئا لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة المنن منه أدام الله عزه

فى إخراج توقيعه بتزيين حالى فى العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله » خرج توقيع المأمون «الحسن بن سهل زمام على ماجمع أمور الخاصة وكنف أسباب العامة وأحاط بالنفقات ونفذ بالولايات واليه الخراج والبريد واختيار القضاة، جزاء بمعرفته بالحال التى قربته مناو إثابة لشكره ايانا على ماأولينا». وهذا الصابى على صابئيته تولى ديوان الرسائل لخلفاء بنى العباس وملوك بني بويه وحين مات رثاه الشريف الرضى ولما لامه بعض الناس على رثائه صابئيا كان جوابه « إنما رثيت فضله» وغيرهم كثير فأغلب الكتاب سادوا بالكتابة عن ضعة وخمول .

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر فى الأدب والتفقه فى كل مايتصل به من علم حتى يكونوا كفاة لما يندبون له وحتى يقعوا من الخلفاء والملوك الموقع المرضى عنه وبخاصة إذا كان أولئك ممن يعرفون القول وينقدونه ويؤثرون الفاضل ويرفعونه ، كما عنوا أن يجمعوا إلى دماثة الخلق وكرم السجايا رقة الطباع ولطف الخدمة حتى ضربت الأمثال بجمال خلقهم وكمال علمهم. قال بعض آل المهلب لبنيه « تزيوا بزى الكتاب فانهم جمعوا أدب الملوك وتواضع السوقة » وقال الشاعر يصف رقة الخمر بأنها من رقة الكتاب

وشمول كأنما اعتصروها من معانى شمائل الكتاب

وغير هذين فى الناحية الخلقية كثير أما الناحية العلمية فجماع ماقيل عنها فيهم قول الجاحظ « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لايعرف إلا غريبه فرجعت إلى الأخفش فوجدته لايتقن إلا إعرابه فعطفت على أبى عبيدة فرأيته لاينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق

بالايام فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك وغيرهما »

هذا وإنه لما يرينا اتساع أفق الثقافة أمام من يهيء نفسه للكتابة منذ أوائل العصر العباسي قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحقي التي قدمها الى يحي البرمكي رغبة في الاتصال بخدمته في هذه الصناعة وانا لخاتمون بها هذا الموضوع لما لها من الجدوى فيه قال

أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريشـــة مما يكون تحت الجناح
لي في النحو فطنة وانتقاد أنا فيه قـــلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعـــلم بقول منور الافصاح
وظريف الحديث في كل فن وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندي حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلي تخلو الملوك وتلهو وتناجي في المشكل الفداح
أعين الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيـــل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد للـــه على أنني ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيـــه ولا الماجن الخليع الوقاح
لو رمى بي الامير أصلحه اللـــه رماحا ثلمت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدي ذي السماح
لست بالضخم يا أميري ولا القز م ولا بالجحدر الدحداح

لحية جعدة ووجه صبيح   واتقاد كشعله المصباح
إن دعانى الامير عاين مني   شمريا كالبلبل الصداح

٢ - التوقيعات

استعملت العرب قبل الاسلام كلمة التوقيع — ما أخذت منه وما أخذ منها ــ فى معان كثيرة . فقالت وقع الصيقل السيف إذا أقبل عليه بميقعته أى مطرقته يجلوه ويحدده ليكون ماضيا نافذا . وقالت وقع القتب ظهر الراحلة اذا أثر فيه تأثيرا خفيفا فاذا ترك ذلك التأثير دبرة أى قرحة ثم برئت وبقيت بموضعها شامة بيضاء قالت ظهر موقع تريد أن به بقعة صغيرة ذات لون يخالف سائر اللون ، ومن ذلك وقع المطر الارض إذا أصاب منها بعضا وترك بعضا تخالف بين ألوانها . وقالت وقعت الدواب ربضت ووقعت الابل بركت أى اطمأنت إلى الارض بعد الشبع والرى . وقالت وقع السارون إذا عرسوا أى نزلوا آخر الليل ونعل هذا من موقعة الطائر وهى الموقع الذى يعتاد نزوله غير أن هذا مكان وذاك زمان .وقالت وقع الرامى إذا رمى من قريب فلم يخطىء تريد أنه أصاب من أقرب الطرق . وقالت وقع فلان ظنه على الشىء إذا قدره وأنزله موضعه . كما قالت وقع الامر إذا لزم وحق،ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » .فهذه معان سبعة مما عرفت العرب للتوقيع وليس منها ما نطلقه عليه الآن من الامضاء

ولما جاء الاسلام وأسس ملكا عظمت دولته على أيام عمر بن الخطاب رأيناه رحمه الله يستعمل التوقيع فيما يكتب به على حواشى الرقاع المرفوعة اليه لبيان وجه الفصل فيها وهذا معني جديد ولكنه يمت الى المعانى

السابقة بالصلات . فهو يجلو اللبس فى القصة ويمضيها ، وهو وجيز اللفظ ويخالف اللون بالنسبة للفظها ولون مدادها ، وهو يجعل صاحب الأمر يطمئن فى تصريف مارفع اليه ، وهو يتحرى فى إثباته آخر الرقعة وموقعا معينا من حاشيتها ، وهو يفصل فى الامر من أقرب طرقه ، وهو نتيجة تقدير وتفكير ، ثم هو يحق نفاذه ويلزم.

فتوقيعات عمر رضى الله عنه هى أول توقيع فى الاسلام وهـذا بعض منها . كتب اليه سعد بن أبى وقاص عامله على العراق يستأذنه فى بناء دار فوقع فى أسفل الكتاب « ابن مايكنك من الهواجر وأذى المطر » ووقع لعمرو بن العاص عامله على مصر فى كتاب « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » . وقد اقتدى به فى ذلك الخليفتان بعده. وقع عثمان رحمه الله فى شكاة قوم من عامله مروان بن الحكم « فان عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » ووقع فى قصة رجل شكا اليه فقرا « قد أمرنا لك بما يقيمك وليس فى مال الله فضل للسرف » . ووقع على كرم الله وجهه فى كتاب لابنه الحسن « رأى الشيخ خير من جلد الغلام » ووقع فى كتاب لسلمان الفارسى يسأله فيه كيف يحاسب الناس يوم القيامة « يحاسبون كما يرزقون »

وجاءت الدولة الأموية فزاول خلفاؤها التوقيع بأنفسهم كما كان يفعل عمر وتابعاه وهذا بعضها . وقع معاوية لزياد وقد كتب يخبره أن عبد الله بن العباس يطعن فى خلافته « إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا فى الجاهلية فى مسلاخ واحد وذلك حلف لايحله سوء رأيك . وكتب اليه عبد الله بن عامر يعاتبه فوقع « بيت أمية فى الجاهلية أشرف من بيت

حبيب فى الاسلام وأنت تراه » وكتب اليه يسأله أن يقطعه مالا فى الطائف فوقع « عش رجبا تر عجبا » وكتب اليه ربيعة بن عسل اليربوعى يسأله أن يعينه باثنى عشر ألف جذع فى بناء داره بالبصرة فوقع « أدارك فى البصرة أم البصرة فى دارك » . ووقع يزيد ابنه الى عبد الرحمن بن زياد عامله على خراسان « القرابة واشجة والافعال متباينة فخذ لرحمك من فعلك » . ووقع عبد الملك للحجاج وقد كتب يخبره بسوء طاعة أهل العراق ويستأذنه فى قتل أشرافهم « إن من يمن السائس أن يتألف به المختلفون ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون » ووقع فى ذيل كتاب من ابن الاشعث وهو ثائر عليه بهذا البيت

مابال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا فينوى من سفاهته كسرى

ووقع الوليد ابنه للحجاج وقد كتب اليه يسأله الاقتصاد « لأجمعن المال جمع من يعيش أبدا ولأفرقنه تفريق من يموت غدا » ووقع لعمر بن عبد العزيز « قد رأب الله بك الداء وأوذم بك السقاء » ووقع سليمان بن عبد الملك وقد كتب اليه قتيبة بن مسلم يهدده « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ووقع له وقد هدده بالخلع

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يامربع

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير التوقيعات كتب اليه صاحب العراق يخبره بسوء طاعة أهله فوقع « ارض لهم ماترضى لنفسك وخذ بجرائمهم بعد ذلك » وكتب اليه عامل الكوفة أنه فعل فى أمر كما فعل عمر بن الخطاب فوقع له « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » وكتب إليه عامل يستأذنه فى رم مدينة فوقع له « ابنها

بالعدل و نق طرفهما من الظلم » ووقع لرجل ولاه الصدقات فعدل وكان دميما «ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا» . ووقع يزيد ابن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل له « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . ووقع هشام أخوه لعامله بالمدينة وقد أخبره بوثوب أبناء الأنصار « احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبهم له » ووقع فى قصة متظلم « أتاك الغوث إن كنت صادقا وحل بك النكال إن كنت كاذبا فتقدم أو تأخر » ووقع فى قصة رجل شكا إليه الحاجة وكثرة العيال وذكر أن له حرمة « لعيالك فى بيت مال المسلمين سهم ولك بحرمتك منا مثلاه » . ووقع يزيد بن الوليد لمروان ابن محمد إذ تلكأ فى بيعته « إنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاذا أتاك كتابى فاعتمد على أيهما شئت » . ووقع مروان هذا إلى ابن هبيرة أمير خراسان « الأمر مضطرب وأنت نائم وأنا ساهر » .

ولقد كان ولاة بنى أمية يحاكون خلفاءهم فى التوقيع على مايرفع إليهم من رقاع . وقع زياد بن أبيه فى رقعة لمحبوس يرجو الاطلاق لتوبته «التائب من الذنب كمن لاذنب له » وفى رقعة شاكى حاجة « لك فى مال الله نصيب أنت آخذه» وفى رقعة متظلم « الحق يسعك» وفى رقعة متنصح « مهلا فقد أبلغت أسماعى » وفى رقعة رجل شكا عقوق ولده « ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » . ووقع الحجاج إلى قتيبة بن مسلم وقد أخبره بعزمه على عبور نهر ومحاربة الترك « لاتخاطر بالمسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرمى سهامك » ووقع له أيضا « خذ عسكرك بتلاوة القرآن فانه أمنع من حصونك ».

ثم جاءت الدولة العباسية فتولى خلفاؤها وولاتهم أول ماجاءت، التوقيعات مثل ما كان يلى خلفاء بني أمية وولاتهم . وقع أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ؛ ولجماعة من الأنبار ذكروا أن منازلهم أخذت فى بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر بدفع قيمها ؛ ولجماعة من البطانة شكوا احتباس أرزاقهم « من صبر فى الشدة شورك فى النعمة .

ووقع المنصور فى رقعة قوم تظلموا من عاملهم « لا ينال عهدى الظالمين » ولأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم « كما تكونوا يؤمر عليكم » ولعامل شكاه رجل « إن آثرت العدل صحبتك السلامة وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة فأنصف هذا المتظلم من الظلامة » ولعامله بمصر وقد ذكر له نقصان النيل « طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد » ولعامله على حمص وقد أخطأ كاتبه فى كتاب « استبدل بكاتبك والا استبدل بك » ولعمه عبد الله بن على « لاتجعل للأيام فى وفيك نصيبا من حوادثها » ولرجل شكا عيلة « سل الله من رزقه » ولرجل شكا دينا إن كان دينك فى مرضاة الله قضاه » ولآخر قطعت عنه أرزاقه « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » . ولعامل أرمينية وقد أخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا بيت المال « اعتزل عملنا مذموما مدحورا فلو عدلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا ». ووقع المهدى لعامل أرمينية وقد شكا إليه سوء طاعة أهلها أيضا « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين» ولعامل خراسان وقد أخبره بغلاء الأسعار (خذهم بالعدل

فى المكيال والميزان) وفى قصة رجل حبس فى دم « ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب » وفى قصة آخر من بطانته يطلب صلة أبطأت « ليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » ولشاعر أسرف فى مديحه « أسرفت فى مديحك فقصرنا فى حبائك » ووقع وزيره أبو عبيد الله لرجل كتب إليه يتعجل استمناحه ويقول – والنفس مولعة بحب العاجل – « لكن العقل الذى جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطا موكل بحب الآجل مستصغر لكل كثير زائل » . ولآخر مبطل « الحق يعقب صلحا وظفرا والباطل يورث كذبا وندما » .

ولما آلت الخلافة الى الرشيد وكان ليحيى بن خالد البرمكى عليه فى ذلك الفضل وله حق الأبوة من قبل ، عهد اليه بما كان لا يتركه الخلفاء لغير أنفسهم فشاركه فى التوقيعات وبذلك تحول التوقيع إلى مذهب ووجدت فى الكتابة خطة جديدة يقول فى التعريف بها ابن خلدون « ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فاما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها فى سجل يكون بيد صاحب القصة » وقد صدر عن الرشيد ويحيى وكانا فى البلاغة على أرفع ما تكون ، توقيعات منسوبة الى الرشيد جاوزت ما كان . وقع لعامله بخراسان « داوجرحك لا يتسع » وفى قصة محبوس « من لجأ الى الله نجا » وفى قصة متظلم « لا يجاوز بك العدل ولا يقصر بك دون الانصاف » وفى قصة رجل يعرف كفايته تظلم من عامله على الاهواز « قد وليناك

موضعه فتنكب سيرته » وفى رقعة شيخ سعى اليه بنميمة « السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة فان كنت أردت بها النصح فخسرانك فيها أكثر من الربح وأنا لا أسعى فى محظور ولا أسمع قوله مهتوك فى مستور ولولا أنك فى خفارة شيبك لعاقبتك على جريرتك معاقبة تشبه أفعالك » .

ولما نقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل بن يحيى إلى جعفر أخيه وترك له كل شيء يتصرف فيه كما يشاء تولى جعفر التوقيع بنفسه بين يدى الرشيد فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار كما قال ابن خلدون . ووقع لعامل كثر التظلم منه « قد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما عدلت وإما اعتزلت » ولعامل مثله ظالم « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولى أمرك » ولعامل آخر « اجعل وسيلتك الينا مايزيدك عندنا » ولعامل مصر فى رجل من بطانته يوصيه به « إنه رغب الى شعبك فارغب فى اصطناعه » ولقوم تظلموا « عين الخليفة تكلؤكم ونظره يعمكم » ولرجل اعتذر من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت توبتك ولا تغلب سيئة حسنتين » وفى قصة محبوس يطلب العفو « العدل أوثقه والتوبة تطلقه » وفى قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » وفى قصة مستمنح وصله مرارا « دع الضرع يدر لغيرك كما درلك » وفى كتاب رجل قرأه فاستحسن خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منثورها وتفصل فيه شذورها » ومن توقيعات أخيه الفضل فى قصة متعد « بئس الزاد الى المعاد التعدى على العباد » . ولكن الرشيد عاد الى التوقيع بنفسه بعد قتله جعفرا

وحبسه إياه . وقع فى قتل جعفر « أنبتته الطاعة وحصدته المعصية » ورفع اليه يحي رقعة من الحبس يستعطفه فيها فوقع عليها « عظيم ذنبك أمات خواطر العفو عنك » ولما كتب اليه وقد أحس بالموت يقول — قد تقدم الخصم الى موقف الفصل وأنت بالأثر والله الحكم العدل وستقدم فتعلم — وقع على الكتاب « الحكم الذى رضيته فى الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا يرد حكمه ولا يصرف قضاؤه ».

وهكذا كان التوقيع على عهد المأمون ورجاله وبخاصة الفضل والحسن ابنا سهل : فمن توقيعات المأمون لأخيه فى قصة متظلم منه « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يؤمئذ ولا يتساءلون » وفى قصة متظلم من عمرو بن مسعدة « ياعمرو عمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » وفى قصة متظلم من حميد الطوسى « ياأبا غانم لاتغتر بموضعك من إمامك فانك وأخس عبيده فى الحق سيان » ولما كتب إليه عمه ابراهيم — إن غدرت فبفضلك وإن أخذت فبحقك — كان توقيعه « القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله ». وكتب إليه عامل الرقة يصف خروج الأعراب بسنجار وعبثهم بها فوقع له .

أسمعت غير كهام السمع والبصر   لا يقطع السيف الا فى يد الحذر
سيصبح القوم من سيفى وضاربه   مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر

ومن توقيعات الفضل بن سهل لعامل متسرع « إن أسرع النار التهابا أسرعها خمودا فتأن فى أمرك » ولصاحب الشرطة « ترفق توفق »

وإلى رجل شكا إليه الدين « الدين سوء يهيض الأعناق وقد أمرنا بقضائه » وفى رقعة قاتل شهدعليه العدول ولكن شفع فيه « كتاب الله أحق أن يتبع » وفى قصة متظلم « كفى بالله للمظلوم ناصرا » وفى قصة قاطعى طريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ووقع الحسن بن سهل فى قصة قوم تظلموا من واليهم « الحق أولى بنا والعدل بغيتنا فأن صح ماادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه » ومدحه على ابن عبيدة الريحانى ووقف ببابه ينتظر عطاءه فطال وقوفه فبعث اليه رقعة يشكو الابطاء فوقع عليها « باب السلطان يحتاج الى ثلاث خلال، عقل وصبر ومال »

هذه طائفة من التوقيعات منذ أن عرفت على يد عمر بن الخطاب الى أواخر العصر العباسى الأول تقريبا على عهد المأمون ورجاله. ومنها يرى أن التوقيع مبنى على إيداع اللفظ القصير المعنى الكثير ولذلك غلب أن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا او مثلا سائرا او حكمة متوارثة فان تعدى هذه الأنواع فلا أقل من أن يكون جامعة كلم للموقع أو لغيره ممن سلف. كما لازم العصور التى ساد فيها الايجاز الاطناب وآخرها العصر العباسى المذكور حيث كانت السليقة العربية متمكنة والبداهة حاضرة فيمن يتولونه وفى كثير ممن كان يكتب به إليهم. قال العلامة ابن خلدون يصف حال صاحبه « واعلم أن صاحب هذه الخطة — يعنى خطة التوقيع — لابد أن يتخير من أرفع طبقات

الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر فى أصول العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ماتدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع مايضطر اليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها »

وقد بدأ الطول منذ عهد المأمون ووزرائه يظهر فى التوقيعات وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فيها ولسنا نتهم هؤلاء بالعجز أن يوجزوا فان لهم فى ذلك الآيات البينات ولكننا لانخليهم من أن روح العصر المتنقلة حينذاك من الايجاز الى الاطناب أخذت تؤثر فيهم من حيث لايشعرون . رفع الواقدى رقعة الى المأمون يشكو فيها الدين فوقع عليها (فيك خلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذى أطلق يديك بما ملكت وأما الحياء فهــــو الذى حملك على ذكر بعض دينك وقد أمرنا لك بضعف ما ذكرت فان قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك وإن بلغنا بغيتك فزد فى بسط يدك فان خزانة الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة) . وكتب إليه أحمد بن يوسف يستجدى لطلاب الصلات وقد كثروا على بابه فوقع على كتابه (الخير متبع وأبواب الملوك مغان لطالبي الحاجات ومواطن لهم ولذلك قال الشاعر

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم وبين مراتبهم ليصل الى كل رجل قدر استحقاقه ولاتكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير الثواب فقد قال الشاعر

وإنك لن ترى طردا لحر كالصاق به طوق الهوان
ولم تجلب مودة ذى وفاء بمثل البشر أو بذل اللسان

وكتب رجل إلى أحمد بن يوسف يستتم الصنيعة عنده فوقع على كتابه « مستتم الصنيعة من عدل زائغها وأقام أودها صيانة لمعروفه ونصرة لرأيه، فان أول المعروف مستخف وآخره مستثقل يكاد أول الصنيعة يكون للهوى وآخرها للرأى ولذلك قيل تتميم الصنيعة أشد من ابتدائها ».ورفع بعض الولاة إلى الفضل بن سهل رقعة عامل عنده بسعاية فوقع عليها « نحن نرى قبول السعاية شرا منها لان السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على قبيح وأخبر به كمن قبله وأجازه فاطرد هذا الساعى عن عملك وأقصه عن بابك فانه لو لم يكن فى سعايته كاذبا لكان فى صدقه لئيما آثما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة» .

ولما انقضى العصر الاول وفقدت بانقضائه القدرة على الايجاز؛ وتولى شئون الدولة فى العصر الثانى من لا يفهمون البلاغة من الخدم الاتراك لم يجهد الكتاب أنفسهم فى التوقيعات وإن بقيت خطة صاحبها فاصبحت غير كفيلة وحدها بالافادة كما كانت قبل وصارت بمنزلة ما نعرفه الآن بالتأشيرات من حيث بناء الردود عليها لا إرسالها نفسها لعدم غنائها فى تمام الاستفادة منها، نعم إن بعضها كان صالحا لذلك فى نظر واضعه وأمام من يبنى الرد عليه ولكنه ما كان صالحا بحال عند من يبعث به اليه لتقلص القدرة على فهم بلاغة الايجاز اذ ذاك كما هى الحال فى الاشارة الآن.وقد استمر التوقيع فى العصر الثالث على رقى الكتابة فيه فاقدا روعة البلاغة وبلاغة الايجاز فهبطت منزلته وتناساه الناس اذ

لم يعودوا يرون عليه ما كانوا يرون قبل من رونق وبهاء وبذلك زال ما كان له من حسن وقع فى الصدور ورفعة قدر فى النفوس.
على أنه قد وجد من كبار الكتاب فى هذا العصر من جهد نفسه فى التوقيع فكان له منه ما لا يقل عن توقيعات المتقدمين ولعل خير هؤلاء الصاحب ابن عباد وهذا شىء مما خالف فيه. وقع فى رقعة استحسنها « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » ورفع اليه بعضهم رقعة أغار فيها على بعض مأثوره من معان وألفاظ فوقع عليها « هذه بضاعتنا ردت الينا » ووقع فى كتاب لبعض مخالفيه « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » وكتب رجل يخبره أن أحد من ينطوى له على غير الجميل يدخل داره فى غمار الناس ثم يتنوم لاستراق السمع فوقع اليه « دارنا هذه خان يدخلها من وفى ومن خان » ورفع اليه رجل رقعة يخطب فيها عملا فوقع عليها « التصرف لا يلتمس بالتكفف، من احتجنا اليه صرفناه وإلا صرفناه » ووقع الى أبى محمد الخازن وكان قد انصرف عنه مغاضبا ثم كتب اليه يستأذن معاودا « ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ». أما فى العصر الرابع فقد توارت التوقيعات عن الأنظار لاستيلاء العجمة واستحكامها ولم يظهر للقوم فيه من ناحية الايجاز الكتابى الا ما خرج بالايجاز عن وضعه الأصيل الى الرمز المشير الذى بدأ يظهر من أواخر العصر الثالث قبله واليك فى كل مثلا. بعث السلطان محمود الغزنوى فى أواخر القرن الرابع وقد استقل بالسلطنة عن بغداد يطلب الى الخليفة ذكر اسمه فى الخطبة ونقش اسمه على النقود فامتنع الخليفة فبعث اليه كتاب تهديد جاء فيه « لو أردت نقل حجارة بغداد على

ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » فكان الجواب كتابا ليس فيه الا البسملة وبعدها ألف فلام فميم ثم الصلاة على النبي والحمد لله. فلما فتحه تحير هو وأهل مجلسه في. فهمها حتى دخل عليه أبو بكر القهستاني من كبار العلماء فسئل فيه فقال إنكم بعثتم تتهددون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه « ألف ولام وميم » إشارة الى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » السورة فارتاع السلطان وعاد مطيعا. وحدث في أواسط القرن الخامس أن خاف سديد الملك صاحب قلعة شيزر بالقرب من حماة تاج الملوك صاحب حلب فخرج إلى جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس وأقام عنده فأراد تاج الملك أن يحتال في استقدامه ليفتك به وأوعز إلى كاتبه أبي النصر محمد بن الحسين أن يكتب اليه في ذلك وكان له صديقا فكتب كما أمر ولكن حين بلغ قوله «إن شاء الله تعالى» شدد النون وفتحها فلما وصل الكتاب سديد الملك استحسنه الحاضرون فقال لهم وكان فطنا «إني أرى في الكتاب مالا ترون» وأجابه بكتاب كان من جملته « انا الخادم المقر بالانعام » غير أنه كسر همزة أنا وشدد نونها فلما قرأ أبو نصر الكتاب علم أنه فهم ماأراد إذ كان أبو نصر يقصد بما تقدم قوله تعالى « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » وكان سديد الملك يقصد « إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها ».

هذا وإنا قبل الفراغ من الكلام على التوقيعات لايسعنا إلا الحكم بأنها أثر من آثار العرب لا محاكاة منقولة عن الفرس كما قد يقال لأن الايجاز من مميزات العربية وسائر الساميات عن الآريات كما هو ظاهر في أمثال العرب الجاهليين وحكمهم وجوامع كلمهم، ولأن عمر حينما بدأ التوقيع

لم تكن الفارسية معروفة فى الجزيرة حتى يكون هناك محل للمحاكاة إنما هى نوع من أنواع التفكير دفع اليه ملك العرب الجديد،فى أسلوب من الأساليب القصيرة وسعته لغتهم ذات الايجاز فأخذ ينمو شيئا فشيئا أيام الدولة الأموية دون أن يكون للفارسية على أيامها انتشار، ثم استبحر الملك أول العهد العباسى وبقيت البلاغة فكان له ما كان حتى اذا ماضعفت تقلص مع بقاء الفارسية ضاربة الجران .

٣ - القصص

نشأ الانسان الأول محوطا بالوحوش التى تناصبه العداء صباح مساء وبنواميس الطبيعة التى تنكل به وهو يجهل مالها من أسرار،فكانت هذه الحرب المشبوبة عليه من الجانبين حافزة لخياله أن يتصور الخوف فى كل شىء ولعقله أن يفكر بقدر استعداده إذ ذاك فيما يدفع هذه الغوائل عنه وقد سبح به خياله أن يرى وراء هذه الظواهر المجهولة الأسباب قوى خفية يرهب جانبها ويخشى سطوتها وهداه عقله أن يتملقها ويتقرب اليها فكان من ذلك،الدين الذى يتحقق بين معبود مخوف مرجو وعابد خائف راج ولعل مما قوى فى نفسه وجود هذا العالم غير المنظور ما كان يطرقه فى نومه من أحلام يرى فيها من ماتوا أحياء يقولون ويفعلون كما كانوا فى هذا العالم المنظور وكان من نتائج ذلك أن حاك لنفسه أساطير خرافية تغذى نهمه فى الخوف والرجاء كانت النواة لما جد بعد من قصص وروايات . غير أن هذا التراث القديم لم يجد عوامل

النمو فى كل البيئات سواء. فحيث تكون البلاد كثيرة الجبال والكهوف والانهار والغابات وضوارى الوحوش وجوارح الطيور يعظم الخوف ويقوى التحيل والاختراع . وحيث تكون منبسطة الأرض سافرة السماء تقل الرهبة ويضعف الخيال. وكلما قوى الخوف بالانسان جدفى التأليه وأكثر من المعبودات وعلى العكس إذا ضعف الخوف تبسطت عبادته وقلت آلهته. ومن ثم كانت الحالة الاولى ممثلة قديما فى مثل بلاد اليونان وكانت الثانية واضحة فى سكان البوادى كالعرب الجاهليين. وليس يطعن فيما نقول عن العرب الآن ماكان لديهم من تعدد الديانات لأنا نعنى بالتعدد أن يكون فى معتقدات الشخص الواحد كما هى الحال فى الأمة التى ذكرنا لاأن يكون فى مجموع أمة تقف كل طائفة منها عند عبادة واحدة كما كانت العرب فى القديم .

ذكرنا ذلك لنخرج منه الى أن الامم كانت إزاء القصص مختلفة الدرجة على حسب اختلاف البيئة التى هى الاساس. وإذ كان تنازع البقاء فى القديم ممثلا أولا بين الانسان وغير الانسان وممثلا ثانيا فى الحروب التى كانت لاينقطع لها مدد بين الجماعات فقد وقعت الاساطير الخرافية على ذلك التنازع وجاءت القصص القديمة فى تلك الحروب يتغنى فيها المنتصر بأبطال الانتصار ويتخيل فيها المنهزم بطلامنتظرا يكون على يديه الخلاص. وأعقب ذلك وجود أناس من القصاصين يرتزقون بالقصص على حساب الطبقات . فعند الخاصة يفيض القاص فى نبل الأمراء ومالهم على العامة من سطوة وإفضال ولدى العامة يسخر من الامراء ويذكر مايشينهم من فضائح ومخاز. ولم يكن أولئك القصاصون

بالواقفين عند الحقائق التى كانت تبنى القصة عليها أول وضعها بل كانوا يعطون لأنفسهم حق الزيادة فيها والتهويل بها وإضافة حقائق أخرى اليها وساعدهم على هذا الوضع والاختلاق فى القصص الموضعية بعد الهوة بين طبقتى الأمة الى مايشبه الانعزال وفى غير الموضعية انقطاع الصلات بين بعض الامم وبعض انقطاعا أوجده اكتفاء كل أمة ببلادها وأحكمه سوء حال المواصلة وقلة وسائل الانتقال . فكثرت بذلك القصص على أيدى هؤلاء القصاصين حتى صار لكل أمة مستعدة لها تراث منها عظيم وبخاصة وقائع الملاحم المنشأة فى الحروب وسير الابطال ممزوجة بذكر الآلهة المساعدين إذ كان تمجيد الابطال واستنجاد الآلهة أمرين جوهريين فى القصص القديم (١)

جاء الاسلام والعرب خلو من القصص للأسباب التى ذكرنا ، ومع احتكاكهم بالأمم منذ الصدر الاول واطراد هذا الاحتكاك فى العهد الأموى ، استمروا بعيدين عن أن يكون لهم قصص فى العصرين المذكورين على النهج الذى أوضحناه لأسباب زائدة على خلو قديمهم من الأساطير أهمها عدم عنايتهم بآداب غيرهم اعتقادا منهم أن أدبهم لا يعلوه أدب وأنهم وصلوا فى الناحية الأدبية الى القمة وأن الامم الاخرى

---

(١) من أشهر الملاحم القديمة الالياذة والأوذيسة لهو ميروس شاعر الاغريق، والأنياد لفرجيل شاعر الرومان . فالالياذة قصة حرب طروادة التى دامت عشرين سنة بينها وبين اليونان. والأوذيسة قصة ضلال يوليسيس طريق البحر وهو عائد برجاله من تلك الحروب الى بلاد اليونان أما الأنياد فقد نظمها فرجيل تمجيدا لأسرة أغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان

فى الحضيض. على أن امتلاء القصص القديمة لغيرهم بتعدد الآلهة قد يكون من أسباب انصرافهم عنها لمنافاتها الاسلام وبذلك انسلخ هذا العهدان بعد العهد الجاهلى، وتدوين القصة عندهم فى حكم المعدوم على ماله عند بعض الأمم من شأن عظيم.

غير أن دخول كثير من الفرس الاسلام وحذقهم العربية والفارسية معا حبب اليهم أول العصر العباسى أن يغذوا العربيـة عن طريق الترجمة بما يرونه فى القصة الفارسية من جمال وكان أول عهد العرب بالقصص المترجمة كتاب كليلة ودمنة المنقول فى القرن الثانى وتلته كتب كثيرة أشهرها كتاب ألف ليـلة وليلة فى القرن الثالث. ومنذ تذوقوا جمال هذا الفن نشطوا فى وضع القصص بعد نشاطهم فى ترجمتها فكانت لهم فى كلا النوعين آثار كما سترى فى هذا البيان

١ — القصص المنقوله

عرفت أن أول كتاب عرفته العرب فى القصص المنقولة فى القرن الثانى كتاب كليلة ودمنة ذو الحكمة الخالدة والشهرة الذائعة (١) وهو كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندى من البراهمة بالهندية السنسكريتية لدبشليم أحد ملوك الهند بعد عصر الاسكندر فى صورة أقاصيص على ألسنة الحيوان تتضمن الأدب والحكمة مما يحتاج اليـه المـلوك فى سياساتهم والناس فى معاملاتهم وذلك فى خمسة عشر بابا هى

---

(١) أخذ الكتاب هذا الاسم من اسم أول حيوانين من بنات آوى دار الحديث بينهما فى باب الاسد والثور أول أبواب الكتاب وأضخم باب فيه.

(١١) باب اللبؤة والأسوار والشغبر وفيه مثل الرجل يدع ضر غيره ويتعظ بما ينزل به
(١٢) باب الناسك والضيف وفيه مثل الرجل الذى يدع مايشاكله ويطلب غيره فلا يدركه
(١٣) باب السائح والصائغ وفيه مثل الذى يضع المعروف فى غير موضعه ويرجو الشكر عليه
(١٤) باب ابن الملك وأصحابه وفيه مثل الجاهل يصيب الخير والعاقل يقع فى الضر
(١٥) باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه

وبعد نحو ثمانية قرون من وضعه سمع بمكانته كسرى أنوشروان فبعث برزويه رأس أطباء مملكته إلى الهند لترجمته فترجمه من خزانة كتبها سرا إلى الفارسية الفهلوية. وطلب الى الملك أن تكون مكافأته أن يأمر وزيره بزرجمهر بعمل ترجمة له فى باب يوضع أول الكتاب قبل باب الأسد والثور فعملها. ثم عملت مقدمة للكتاب بقلم بهنود ابن سحوان فى باب ذكر فيه السبب الذى من أجله وضع بيدبا الكتاب لدبشليم وأعقبها بباب ثان ذكر فيه بعثة برزويه الى بلاد الهند لترجمته. وبعد نحو مائتى سنة من هذه الترجمة نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية وزاد عليه مقدمة بين فيها أغراضه فى باب دعاه باب عرض الكتاب وجعله بين ما كتب بزرجمهر وما كتب بهنود فكانت الابواب الزائدة على الابواب الهندية أربعة وبذلك صار الكتاب تسعة عشر بابا .

وقد فقد الأصلان الهندى والفارسى ولم يبق غير الاصل العربى الذى طبع مرارا منذ أواخر القرن الثامن عشر الى الآن ومن هذا الاصل نقل الى معظم اللغات الشرقية والغربية قديما وحديثا (١)

وقد شغل هذا الكتاب مكانة عظيمة فى عالم القصص الحيوانى وفتح أمام الكتاب مجالا للخيالات شرقا وغربا ولذلك عنى الناس به عناية كبيرة فوق ترجمته الى أغلب اللغات. فنظمه أبان بن عبد الحميد اللاحق ليحيي البرمكى وأولاده وقيل إن سهل بن نوبخت نظمه لهم أيضا ونظمه كذلك على بن داود كاتب السيدة زبيدة كما نظم بعضه بشر بن المعتمد وكل هذه ضاعت ولم يبق منها إلا أبيات منقولة من

---

(١) ما ذكرناه عن أبواب الكتاب هو الوضع الذى تنطق به النسخة العربية المتداولة فى مصر الآن «ويرى فقيد التاريخ والادب» جورجى زيدان فى كتابه آداب اللغة العربية أن أبواب الكتاب واحد وعشرون فقد منها اثنان من النسخ المطبوعة عن الترجمة العربية هما باب ملك الجرذان من وضع الفرس وباب مالك الحزين والبطة من وضع ابن المقفع، كما يرى أن باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك والضيف وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين وكذا أول البابين المنسوبين الى بهنود من وضعه كذلك مع باب عرض الكتاب وعلى رأيه تكون الابواب الهندية اثنى عشر والفارسية ثلاثة والعربية ستة ولكنه لم يذكر مستنده فى هذا الخلاف مع اعترافه بفقد الاصلين الهندى والفارس كما لم يشر الى أية نسخة عربية غير المطبوعة يوجد فيها هذان البابان الناقصان .

نظم أبان[١] ثم نظمه أبو يعلى محمد العباسى المتوفى سنة ٥٠٩ المعروف بابن الهبارية فى كتاب سماه نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة. كما نظمه القاضى الأسعد بن مماتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ لصلاح الدين الأيوبى وكلاهما موجود وقد عورض الكتاب بكتب ألفت على منواله نظما ونثرا. فمن المنظومة كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية المذكور وقد رفعه الى الامير صدقة بن دبيس أمير الحلة[٢] وكتاب درر الحكم فى أمثال الهنود والعجم لعبد المؤمن بن الحسن فى القرن السابع وثالث لجلال الدين النقاش فى القرن التاسع. ومن المنثورة كتاب ثعلة وعفرة

(١) أول هذه المنظومة

هذا كتاب أدب ومحنة   وهو الذى يدعى كليلة دمنه
فيه احتيالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند

ومنها فى معنى أن الرجل الرشيد إما أن يكون مع الملوك مكرما أو مع النساك متعبدا كالفيل يكون وحشيا أو مركبا للملوك

وقيل أيضا إنه قد ينبغى   للرجل الفاضل فيما ينبغى
ألا يرى إلا مع الأملاك   أو يعبد الله مع النساك
كالفيل لايصلح الا مركبا   لملك أو راعيا مسيبا

(٢) هذا الكتاب أبدع فيه صاحبه اختراع الحكايات والأمثال فى أسلوب رقيق حسن الانسجام وأوله

الحمد لله الذى حبانى   بالأصغرين القلب واللسان

لسهل بن هرون صاحب بيت الحكمة للمأمون [1] وسلوان المطاع فى عدوان الاتباع لابى عبد الله محمد القرشى المعروف بابن ظفر فى القرن السادس وثالث لاحمد بن محمد الحنفى المعروف بابن عربشاه فى القرن التاسع ومع وجود هذه الكتب الستة مع نظومه الستة التى قلنا بوجود بعضها الى الآن مطبوعاً أو مخطوطاً لم تقو على معارضة الكتاب فقد صرعها جميعا كما صرع ترجمة له ثانية من الفارسية كان قد قام بها عبد الله بن هلال الاهوازى ليحيي بن خالد فى خلافة المهدى فبادت مع ماباد .

والكتاب فوق اشتماله على القصص الجميلة المخترعة ذات الخيال الرائع، وعلى التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية التى تنسجم معهافى هذا الخيال ،قد اشتمل فى ثنايا ذلك على أمور عدة زادت من قيمته ورفعت من شأنه. كاشتماله على الحكم والأمثال فى السياسة والاجتماع وعلى التحليلات الدقيقة لظواهر النفس من إرادة وتفكير وشعور وعلى تصوير النظم فى الحكومات المطلقه وتبيين طبائع الاستبداد وعلى وصف الطباع الكثيرة لكثير من البهائم والسباع والطيور والحشرات ومايتعلق باحوال معيشتها وحياتها وكل ذلك فى ضروب محكمة من التعبيرات المستوفية شرائط البلاغة فيما يتوخاه . ولولا

---

(١) مما نقل عن هذا الكتاب قبل فقده قوله « اجعلوا أداء مايجب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذى تجودون به من تفضلكم. فان تقديم النافلة مع الابطاء فى أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية ومضر بالتدبير ومخل بالاختيار وليس فى نفع تحمد به عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة »

أن الكتاب مشهور وما فيه من ذلك معروف لضربنا منه لكل تلك الاشياء الكثير من الأمثال. هذا وقد رأيت فيما نقلنا عن ابن المقفع فى أسباب وضعه على ألسنة الحيوان أنه وضع كذلك ليلائم الأحداث كما يلائم الكبار فظاهره لهو ممتع وقصص لذيذ وباطنه حكمة مقنعة وعظة بالغة ولذا نشط له هؤلاء كما نشط له هؤلاء وحمر هذه القرون العديدة مثلا عاليا وأستاذا مربيا للشرق والغرب على السواء وكلما مرت الأيام ازداد جدة وزاد الناس إقبالا ومحبه .

أما كتاب ألف ليلة وليلة الذى عرفته العرب عن القصص فى القرن الثالث فهو مجموعة قصص تقع فى أربعة مجلدات تبلغ صفحاتها نحو ألفى صفحة منها نحو مائة قصة اعتبرت أصولا ثم وردت فى ثناياها مئات القصص على سبيل الاستطراد وتعزى هذه القصص على ما يزعمون فى أصلها الى قاصة تدعى شهرزاد كانت بنتا لوزير ملك من ملوك ساسان خانته زوجته فاعتاد أن يقتل كل زوجة بعد الليله الأولى من دخوله بها وعز هذا القتل على تلك البنت فطلبت الى أبيها أن يزوجها منه لتحمله على ترك هذه العادة إبقاء على بنات جنسها ففعل وفى ليلة بنائه بها بدأت له فى قصة جعلت الصباح يدركها قبل تمامها وقطعت الحديث عند نقطة يشتاق السامع الى مابعدها. وفى الليلة الثانية استأنفت الحديث ثم قطعته كما قطعته فى الليلة الأولى وهكذا حتى أتمت معه ألف ليلة رزق فيها ثلاثة أبناء منها. فاستشفعت اليه فى الليلة الأولى بعد الألف أن يبقيها من أجل أبنائها وأطلعته على ما كانت تبغى من وراء هذه القصص فأكبر عقلها وقبل رجاءها وأقام معها فى حبور ووفاق

والمطلع على ما قيل عن هذا الملك بمقدمة الكتاب من أنه كان من ملوك ساسان الذين حكموا جزائر الهند والصين، يدرك حتما أن هذه القصص كما تتناول قصصا فارسية تتناول معها قصصا هندية وأخرى صينية، وأنها وقد وضعت بالفارسية قبل الاسلام لا يمكن عقلا أن تكون من قصصها الاصلية شيء وقع بعده فى جهة ما . ومن ثم يحكم بداهة أن جميع القصص التى تناولت فترة من تاريخ العباسيين ببغداد، وأخرى من تاريخ الفاطميين ومن بعدهم بمصر دخيلة على الكتاب وموضوعة بمعرفة العرب فى هذه العهود. هذا وقد كان الاصل الفارسى يدعى « هزار أفسانه » ومعنى ذلك ألف خرافة فلما ترجمه العرب فى القرن الرابع دعوه ألف ليله وليلة على ما جاء فى سبب وضعه من أن الليالى كانت ألفا وأن كل ليلة كانت عامرة بخرافة أو جزء من خرافه غير عربية حتما وأن العرب حينما زادوا على الكتاب أكثر من نصفه لم يغيروا من وضعه هذا فأبقوا لياليه كما ذكر عنها ألفا وجعلوا حكاياتهم المزيدة فى ثناياتلك الليالى غير أن الفاحص عن الكتاب يجزم حتما أنهم نقلوا بعض الخرافات من لياليها الى ليال غيرها فان هناك ليالى كاملة تغمرها حكايات لا يعقل أن تكون من وضع الفرس لأنها عربية خالصة كما لا يتفق أن تكون الليالى المحكى فيها أصلا أقل من ألف لان سبب وضع الكتاب ناطق بهذا العدد صريحا . وقد استمرت هذه الزيادة وهذا التحوير فى الكتاب منذ أن ترجم إلى القرن العاشر الهجرى حيث دولة المماليك بمصر وساعد عليهما عدم حمل الكتاب اسم المترجم من الفارسية ولا أسماء من تعاقبوا عليه بعد .

فالكتاب من حيث مآخذ حكاياته وقصصه يمثل ثلاث نواح مختلفة لأحوال الناس وأمور الاجتماع .

الناحية الاولى فارسية بما فيها من دخيل هندى وصيني وهى تصور عقايات هذه الامم الثلاث واتساع الخيال فيها ولذلك تكثر فيها عجائب الخلق وغرائب الحوادث كالاسماك الكبيرة الحجم المختلفة الاشكال والأودية المملوءة بالماس والافاعى وطير الرخ الذى يشبع فرخه عشرات الناس وغيرها مما يماثل طبيعة تلك العصور كما يماثل عقائد الفرس والهنود والصين .

والثانية عربية إسلامية تمثل الحياة العربية فى بغداد بعيدة عن ذلك الخيال القديم وهى تكثر من ذكر الرشيد والبرامكة والجوارى والقيان وأحوال الاجتماع إذذاك ويتخلل ذلك قصص لابطال العرب فى الفضائل كالجود والحلم والوفاء وأخرى ترمى إلى الصبر والتعقل والنظر فى العواقب. وكثير من حكايات هذا القسم يطابق الواقع ويتفق وسياق التاريخ .

والثالثة مصرية إسلامية أو إسرائيلية. فالاسلامية تمثل حياة القاهرة ويعتمد الكاتب فيها على ماتحسه نفسه من أثر الحوادث وهى على مافيها أحيانا من إغراب يستهوى القارىء إليها، بعيدة عن الخيال الصرف المجسم فى القصص الفارسية وبعيدة كذلك عن نيل السعادة بالمصادفة والحظ ولذا يكثر فيها الاعتماد على النفس والاحتراف بالمهن ثم يغلب عليها عدم الطول مع الامتلاء بأثر المزاج المصرى من الفكاهة العذبة والنقد المقبول . والاسرائيلية مثل الاسلامية فى مصريتها لأن أغلب كاتبيها ممن اعتنقوا الاسلام كما يفهم منها ولكن تمتاز بالنزوع الى

تقديس سليمان وداود ومالا يخالف الاسلام من مجد اليهود وبخاصة ما كان معدن الغريب كأحوال الجن مع سليمان وسحر هاروت وماروت ونحو ذلك من الأساطير الاسرائيلية الملىء بها تاريخ بنى اسرائيل. ولهاتين الناحيتين فى الكتاب يعتبر من وضع العرب إلى حدما. وأسلوبه فى مجموعه مقبول غير أنه أكثر قبولا فى القسم الفارسى والعربى لأن اللغة على عهد ترجمة الأول ووضع الثانى فى بغداد كانت خيرا منها فى مصر حيث وضع القسم الأخير ولذلك اعتبر كتاب أدب وان كانت النظرة الأولى اليه من ناحية القصص والأساطير وقد طبع مرارا ونقل من العربية الى معظم لغات أوربة وكان له من الفضل على كتابها القصصيين ماللمعلم الاستاذ على طلبته الناشئين.

هذا وقد ترجم العرب من الكتب القصصية عن الفارسية والهندية غير كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة كثيرا ذكر أسماءها ابن النديم ولكنها ضاعت وما بقى تغير عن أصله حتى تقطعت بينهما الصلات [1]

ب — القصص الموضوعه

كانت ترجمة ألف ليلة وليلة بعد كليلة ودمنة فاتحة أبواب القصص بمعناه الحق أمام القرائح العربية فلم تعد ترضى بما لا يتسع فيه الخيال

---

(١) فما نقل عن الفارسية رستم واسفنديار، وشهرزاد مع ابرويز، والكارمانج فى سيرة أنو شروان، ودارا والصنم الذهب، وبهرام ونرسى. ومما نقل عن الهندية السندباد الكبير والصغير، وجوداسف، وأدب الهند.

كقصص ابن المقفع فى كتابه هذا ولا بما يضرب الى السيرة أكثر من القصة كقصص الجاحظ فى بعض كتبه وأخصها البخلاء وبدأت تشارك الفرس فى مثل ماوضعوا بما زادت فى ذلك الكتاب. ثم طفقت تنشىء على غراره كتبا فى القرنين الثالث والرابع تحدث ابن النديم عنها طويلا فكان مما قال « وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لايعلق بغيره وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن مايعرفون ويحسنون واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات مايحلى بنفسه.وكان فاضلا فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبى الطيب أخى الشافعى ، وكان قبل ذلك ممن يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم » وهذا الكتاب الذى تحدث عنه ابن النديم هنا قد ضاع كما ضاع معظم ما ألف فى القرنين المذكورين من القصص الخرافية والنكت المجونية مما يتحدث عنه أيضا [1]

على أن العرب لم يرضوا أن يكونوا فى محاكاتهم للفرس بعيدين عن تاريخ آبائهم وأجدادهم فتلفتوا اليه يبحثون عن مواطن تصلح لأن يصاغ فيها قصص يكون منهم واليهم فاهتـدوا إلى موطنين عظيمين ،

---

(١) مثل كتاب حوشب الأسدى وكتاب جحا ونوادر أبى ضمضم ونوادر ابن الموصلى وقد ضاعت ولم يبق الاما نقل عنها وهو قليل.

أحدهما حماسى جاهلى والثانى غرامى إسلامى فكان لهم فى كليهما على العصر العباسى أثر جليل .

فأما عن الاول فقد عمدوا الى بعض أيام العرب فوسعوا أخبارها وبالغوا فيها وضموا إليها كثيرا من مناقب الجاهلية المتعلقة بها كالثأر والعصبية والجوار والوفاء مسندين تلك الأخبار لتوثيقها الى مشهورى الرواة كأبى عبيدة والأصمعى وغيرهما ومتناقلين ذلك فيما بينهم تناقل زيادة وتنمية حتى انتهى الى أن صار قصصا تتلى فى المنازل والأندية للسمر والتسلية كما كانت الحال فى القصص القديمة لليونان غير أن بعض هذه القصص لم يتم نضجها وقليلها جاء كاملا ناضجا .

فمن الاولى قصة البراق المأخوذة من كتاب لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ سماه الجمهرة وهو فى أخبار العرب القدماء وبعض أيامهم وأشعارهم وحروبهم ويوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية وهذه القصة فى حروب وقعت بين ربيعة وغيرهم ، والبراق شاعر قديم من أقرباء المهلهل وكليب ذو تاريخ فيه حماسة وفخر وقد ساق ابن شبة على قصته أنه بطل فى خمس حروب ، الاولى بين ربيعة والطائيين أخواله بسبب قتل الحارث بن عباد البكري للفضيل بن عمران الطائى والثانية بين ربيعة ومضر لتحامل مضر عليها والثالثة بين ربيعة والفرس لأسرهم ليلى العفيفة والرابعة بين ربيعة واليمن لقتل كليب أسيرا كان عنده منهم والخامسة حرب البسوس المعروفة وقد استغرقت وحدها أكثر من مائة صفحة .

ومن الثانية قصة عنتر وهى أكبر القصص الممثلة للحماسة العربية التى يخالطها الحب والغرام بل الممثلة لآداب الجاهلية وأخلاق أهلها

وعقائدهم وعاداتهم . والواضع لها هو العالم الراوية الشيخ يوسف بن إسماعيل وكان من المتصلين لفضله بالعزيز بالله الفاطمى فى القرن الرابع، وحدث أن لهج الناس بريبة فى قصر العزيز فساءه ذلك وطلب الى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بقصة طريفة تصرفهم عن ريبة القصر وكان واسع الرواية فى تاريخ العرب وأيامهم عن أبى عبيدة وابن هشام والاصمعى وغيرهم. وكأنه قد راقه ما كان من قصة البراق فى حرب البسوس فأراد أن يضع قصة لبطل يفوقه هو عنترة فى حرب تفوقها هى حرب داحس والغبراء فأخذ فى كتابتها ولكى يسارع بالهاء الناس بها عن تلك الريبة أخرجها تباعا فى أجزاء بلغ عددها ٧٢ جزءا وتعمد أن يقطع الكلام فى آخر كل جزء قبل نهاية أمر يشتاق السامع إلى تمامه كما كانت تفعل شهرزاد فى لياليها فتمكن بذلك من شغل الناس بها فى أسمارهم على أيامه كما اشتغلوا بها من بعده إلى عهد ليس بالبعيد. وبالنظر الى سعة رواية الرجل قد أودعها من أخبار العرب وأشعارها فى النواحى التى ذكرنا مالم يأت مجموعا فى غيرها فجاءت أحسن القصص العربية الموضوعة وأفيدها وقد طبعت مرارا وعنى الغربيون بنقلها إلى شتى لغاتهم. وهناك قصص غير هاتين [1]

---

(١) من القصص الموضوعة فى هذا العصر أيضا قصة بكر وتغلب ابنى وائل فى أخبار كليب وجساس المنسوبة الرواية الى محمد بن إسحاق: وقصة شيبان مع كسرى أنوشروان المنسوبة الى بشر بن مروان الاسدى عن ابن نافع التميمى. ولكنهما أقرب الى التاريخ منهما الى القصص على العكس من البراق وعنترة فانهما

وأما على الثانى فقد عمدوا الى الهوى العذرى الذى ذاع أمره ببوادى الحجاز أيام الأمويين إزاء الهوى الاباحى بمدنه الثلاث المدينة ومكة والطائف على ما فصلناه بكتابنا الثانى عن الغزل فى العهد الاموى، فرأوا أبطاله يمعنون فى العفة وراء إمامهم جميل كلما أمعن رجال الاباحى وراء إمامهم عمر فى الجرى وراء النساء، وراعهم ما لأولئك الأبطال من شجاعة فى مقاومة الهوى والتضحية بالنفس على مذبح الحب، وشاهدوا فى هذا الميدان مالم يشاهدوا فى ميدان الحرب فوضعوا فيه قصصا تمثل عاطفة الحب فى أروع مظاهره. محب ملك عليه الهوى زمام قلبه وأخلص للعفة قبل إخلاصه لميله وأقيمت العقبات فى طريقه الى من يهوى وطال عليه الزمن فى هذا الألم ثم انتهى الأمر بالتفريق الدائم مصحوبا بالحكم على من يهوى أن يكون لغيره وقد وجد قصاصو هذا النوع تلك العناصر مجسمة بارزة فى سير جميل بن عبد الله بن معمر عاشق بثينة وقيس بن ذريح عاشق لبنى وقيس بن الملوح عاشق ليلى المعروف بالمجنون — والأولان مقطوع بوجودهما بغض النظر عما دخل سيرتيهما من مغالاة. أما المجنون فالرواة فى أنه شخص حقيق أو خيالى على خلاف لم يقطع التاريخ فيه ببيان — فكان أن وضعوا لكل منهم قصة تمثل الحب الباكى أتم تمثيل. ولم يعدم الحب اللاهى قصاصين يؤلفون فيه فوضعت قصة لأمامه عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة

قصصيتان والثانية أقص من الأولى وإن كانت الأولى أحق وقائع وأصح منها لغة لتقدم زمنها عنها أكثر من قرن .

المذكور وتلتها مثيلات. ثم كان أن ألفت قصص فى مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعة لمغرمى الرجال بل ألفت قصص للغرام بين الانس والجن كان المحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى (١)

أما وقد ذكرنا بجملين ماينبغى أن يقال عن القصة العربية فى العصر العباسى منقولة وموضوعة فان علينا أن نبين كذلك مايراد بالقصة فى هذه الايام لنحاكم اليه ماذكرنا فنعلم الفرق بين ماكان وماهو كائن الآن.

يراد بالقصة فى العصر الحاضر كل كتابة أدبية فنية تصدر عن كاتب واحد بقصد تصوير حالة معينة فى التاريخ أوالأدب أوالأخلاق أو الاجتماع أو غيرها تصويرا ينزع فيه الكاتب عن شعوره الخاص وتفكيره الناشىء عن هذا الشعور والوجه الذى يتجه اليه رأيه على حسب ماشعر وفكر بحيث تتمثل شخصيته فى هذا التصوير تمثلا يفرق بينه وبين غيره مما كتبوا فيما كتب، لأن هذه الأشياء التى ذكرنا واحدة فى ذاتها ولكن الذى يختلف إنما هو نظر الناس اليها وكيفية تصويرها وكلما اتسعت مسافة الخلف بين النظرات تباعد البون بين التصويرات ولبست تلك الأشياء أثوابا تبعدها عن مرآها الثابت الأصيل الى مرأى يخلع عليها ثوب القصص أو الاساطير . وهذا مايطلق عليه الغربيون كلمة « رومان » أى حكاية أو خرافة ومانطلق

---

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات من القصص الغرامية المختلفة كأبى العتاهية وعتب، وابن قتيبة وبانوحه، وريحانة، وقرنفل، وغيرها مماضاع أو تضمنه ألف ليلة وليله

عليه نحن كلمة «قصة» هذا على أن بعضه قد يصدره الكاتب بشكل يجعله صالحا للتمثيل على المسارح فتراه يتعمد فيه الاكثار من الاشخاص المختلفين فى الاخلاق والصفات ويجعلهم يتحدثون فى حوار حديثا يظهر المستور من طبائع النفوس وخفايا الصدور مع الاحتفاظ بشخصية البطل أن تطغى عليها تلك الشخصيات ومع المفاجأة بالعقد التى تعرض متطلبة الحل والمهارة فى إيراد الحلول . وهذا مايسميه الغربيون باسم « درام » أى قصة تشخيصية ونسميه نحن عرفا باسم الرواية لأننا اعتدنا أن نلحظ فيما أخذ هذه التسمية من القصص التشخيص (١)

تلك شروط القصة الحديثة وأنواعها وهى شروط لو دققنا فى تطبيقها على ما ذكرنا للعرب عن القصص فى العصر العباسى استعصى علينا التطبيق لأن قصصه سير تاريخية لا تصوير شخصى أو هى مكتوبة بقلم أشخاص عدة لا شخص واحد أو هى مسفة العبارة كثيرة الأخطاء، ولكننا لو تساهلنا فى التطبيق من غير تدقيق ساغ لنا أن نقول إن العرب خلفت فى العصر العباسى مثلا للقصة فى عموم إطلاقها وشبه مثل لها فى الروائى منها. وانما جعلنا ما خلفت فى هذا شبه مثل لا مثلا للضعف البادى فيه عن نظيره الغربى ولعل من أسباب هذا الضعف عدم استعداد العرب منذ قديمهم للشعر القصصى والتمثيل كما بيناه مفصلا فى كتابنا الأول حيث الكلام على نوع الشعر الجاهلى، ثم عدم سماحهم

---

(١) يأخذ هذا النوع اسم « تراجيدى » اذا غلب عليه عنصر الفجيعة والحزن ويأخذ اسم « كوميدى » اذا غلب عليه عنصر الضحك والهزل .

للمرأة بالتشخيص والتمثيل مع أن وجودها مع الرجل شرط أساسى فيه.

هذا وقد عالج العرب نوعا من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه الى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية فعرف لذلك بالقصص العلمى أو الفلسفى وهو وان ضم الى سمو الفكرة جودة العبارة اذ كتب لخاصة الناس ليس جديرا أن يحمل اسم القصص لأن الغرض الأول للقصص مغمور بالعلم والفلسفة المقصودين فيه . ومن أمثلته فى القرن الرابع كتاب الانسان والحيوان لاخوان الصفا أصحاب الرسائل المشهورة المنسوبة اليهم فأنهم وان جعلوه مناظرات بين الحيوان والانسان كما فى كليلة ودمنة قد حشوه كثيرا من الحوار العلمى فى الطبيعة ومميزات الانسان والحيوان . ومنها فى القرن السادس رسالة حى بن يقظان لأبى بكر محمد بن عبدالملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ التى شرح فيها بأسلوب قصصى إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة ووفق الى نظريات علمية فى تطورات هذا الانسان وقد طبعت فى مصر وفى غيرها مرارا وترجمت الى كثير من اللغات الاجنبية. على أن من هذه القصص العلمية ما تمكن صاحبها من تغليب الصبغة القصصية فيها على الصبغة العلمية كرسالة الغفران من مخلفات القرن الخامس لابى العلاء التى كتبها فى عزلته وضمنها انتقاد شعراء الجاهلية والاسلام والادباء والرواة والنحاة فانها علمية فلسفية، يتضمن بعضها لغة وأدبا وشعرا ونقدا وبعضها نوادر اجتماعية عن الزنادقة والمتنبئين وشاذى الافكار فى عصور الاسلام ، ولكنه ساقها فى أسلوب قصصى خيالى أبدع فيه. فقد تصور رجلا صعد الى السماء وشاهد الجنة والنار وقابل كثيرا من

من أهليهما وحاورهم وحادثهم فيما ذكرنا واذ كان يسأل دائما من كان يعتقدهم أبناء جهنم وأبصرهم فى الجنة عما من أجله غفر الله لهم فكانوا يجيبونه بمالا يخرج عن النوعين اللذين أوضحنا فى مشتملات الرسالة دعاها رسالة الغفران . وهى ذات شأن هام ومقام كبير لأنها وإن لم يقصد تمثيلها تمثل القصص التشخيصى الى حد ما فقد جاءت فوق مارأيت من مشتملاتها خصيبة الخيال فى تصوير الجنة والنار ومافيهما من نعيم وعذاب ولاذعة السخرية فى كثير من حوارها . ومن هنا وقعت لدى الغربيين الوقع العظيم فما كاد الغرب يتصل بالشرق فى الحروب الصليبية حتى عرف الطليان مكانتها إذ كانوا أسبق المسارعين الى هذه الحروب فنسج شاعرهم دانتى على منوالها « الرواية الالهية » وفيها نفس الخيال الذى سبقه اليه المعرى بثلاثة قرون وكذلك فعل ملتن الانجليزى فى روايته « ضياع الفردوس » بعده بأكثر من ستة قرون فهى قد غذت الغرب من الناحية التمثيلية « درام » كما غذاه فى القصص العربى قبلها كليلة ودمنة والف ليلة وليلة فى الناحيه القصصية «رومان» ولكن حال الشرق ساءت فوقف عند هذا الحد وتقدم الغرب الذى أخذ عنه فوصل الى مانرى الآن من رقى باهر فى فنون الأقاصيص والروايات .

هذا وكما انحازت طائفة من القصص الى الناحية العلمية الفلسفية التى غطت على الروح القصصى كما تقدم ، انحازت طائفة أخرى الى ناحية لغوية صناعية نزعت بهجة القصص منها ؛ تلكِ هيِ المقاماتِ التيِ سنتكلم عنها الآن .

٤ ـ المقامات

لقد نفخ إنشاء الدويلات فى المشرق منذ أواخر العصر العباسى الثانى وتحكم آل بويه على الخلافة فى بغداد بعد هذا الانشاء فى اللغة الفارسيه وآدابها نفخة حركتها من الأجداث ووهبتها روحا أنهضتها من الرجام فرأينا رجال هذه الدويلات يحضون أدباء الفرس على النظم بها فى مجدهم وسالف تاريخهم كما فعل نوح بن منصور السامانى فى اقتراحه على الدقيقى نظم الشاهنامة. وحتى من كان يحكم هذه الاقاليم من غير الفرس كان يجاريهم فى النهوض بلغتهم تقربا إلى شعوبه من أهلها كما فعل السلطان محمود الغزنوى التركى فى اقتراحه على الفردوسى إتمام الشاهنامة التى بدأها الدقيقى ولم يتمها. وكأن هذا الانتصار لأدب الفرس فى وقت يزدهر فيه الأدب العربى قد حرك من أدباء العرب المشاهدين له عن كثب فى أجواء فارسية وخلق فيهم روح انتصار للعربية يقابل ذلك الانتصار الفارسى وكان لابد لهذا الروح أن يظهر فى معارضات أدبية كما ظهر الانتصار الفارسى واتفق أن رحل الى نواحى فارس العلامة اللغوى والراوية الأديب والشاعر العظيم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى فى النصف الاول من القرن الثالث وأقام هناك مع ابنى ميكال وهما يومئذ على عمالة تلك البلاد فقلداه رياسة الديوان فابتكر نوعا من الادب اشتقه من الحياة الفارسية ليعارض به أدبها فى أربعين حديثا تحدث عنها الحصرى فى زهر الآداب صفحة ٢٧٨ هامش العقد الفريد جزء أول بما يدل على ماقدمنا قال تحت هذا العنوان — جملة من كلام

أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى بديع الزمان - « وهذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غض المكاسر أنيق الجواهر يكاد الهواء يسرقه لطفا والهوى يعشقه ظرفا ، ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى أغرب باربعين حديثا وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض عجمية وألفاظ حوشية فجاء أكثر ماأظهر تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الاسماع وتوسع فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة وضروب متصرفة عارضها باربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الاسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر فى معان تضحك الحزين وتحرك الرصين يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة وربما أفرد أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية وسأذكر منها ما لايخل طوله بالشرط المعقود ولا ينافى حصوله الغرض المقصود » . وهذا كلام منه إلى أن ابن دريد أنشأ أحاديثه فى بيئة فارسية ومعارض عجمية وأنه كان فيها أميل الى اللغة والغريب بحكم لغويته التى كانت أغلب شىء عليه وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات [١] ولكننا نذكر

(١) أصل المقامة فى اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان وقد استعملت فى المجلس استعمال الاضداد كما قال المسيب بن علس

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

أن الذى احتذاه أولا إنما هو أستاذ البديع أبو الحسن أحمد بن فارس العلامة اللغوى المتوفى سنة ٣٩٠ لا البديع فقد وضع مقامات اتبع العلماء نسقه فيها وقد كان أولهم اتباعا تلميذه البديع المتوفى سنة ٣٩٨ فى مقاماته التى وصفها الحصرى آنفا وكلاهما عاش فى بيئة فارسية كما عاش ابن دريد. ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الاستاذين وبقاء مقاماته ممثلة فى الثمن الباقى منها وهو خمسون مقامة فاعتبرت لذلك أولى المقامات

بنى البديع مقاماته على الكدية[1] وجعل الحديث فيها بين

وكما قال نهشل الدارمى

إنا نظرنا فى المقامة مالكا ... نظر المسافر أين ضوء الفرقد

وانتقلت منه الى الجماعة الجالسين كما قال لبيد العامرى

ومقامة غلب الرقاب كأنهم ... جن لدى باب الحصير قيام

وكما قال زهير بن أبى سلمى

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل

وقد سبق المجلس المقامة فى هذا الاستعمال كما قال مهلهل

نبئت أن النار بعدك أوقدت ... واستب بعدك ياكليب المجلس

ثم أطلق المحدثون المقامة على الحديث يقال فى مجلس يستمع له وبعدئذ قصروه على هذا الضرب المعروف من الكلام

(١) لعل سبب اختيار البديع للكدية فى بناء المقامات يرجع الى انتشارها أيامه بأواسط آسيا فى صور شتى تألفت منها الطائفة المعروفة إذ ذاك بالساسانية من أعراب وأبناء سبيل وذوى عاهات وحواة وقرادة وسحرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يتحيلون فى جلب الرزق ولكن من طريق الامتاع بقص

شخصين خياليين هما عيسى بن هشام راوية وأبى الفتح الاسكندري شحاذا فكانت جيدة فصاحة وبلاغة ولكنها وقد تركزت على الكدية وحدها جاءت بعيدة عن الروح القصصى غير خليقة أن تسمى قصصا على الوضع الذى شرحناه. ويكفى أن تعلم أن خمس عشرة منها لم يك فيها مع الكدية غيرها وهى الازاذية والبلخية والسجستانية والكوفية والاذربيجانية والجرجانية والاصفهانية والبصرية والفزارية والمكفوفية والبخارية والقزوينية والساسانية والقردية والناجمية ولذا جاءت أقصر المقامات وأقلها روعة أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالبا أشياء أكسبتها جمالا وإن لم تنقلها عن الناحية اللغوية الى القصصية أهمها الوصف وقد وقع فى عشرين مقامة انحدرت خمس منها الى هوة الكدية أيضا بوصفها ألوان الاطعمة والاشربة وهى البغدادية والمضيرية والمجاعية والهنيدية والخمرية وتناول سائرها وصف أشياء أخرى متباينة كالاسد والفاتك فى الاسدية والفرس فى الحمدانية وأنواع اللصوص وطرقهم فى الرصافية والمغزل فى المغزلية وكهل رث فى الشيرازية وحمامى وحجام فى الحلوانية والرجل يكون خشن الجانب أو لينه فى الخلفية واللص يتخذ ثوب الناسك فى النيسابورية والعلم فى العلمية واخوان الدهر ما يفعلون وما يجب أن يفعل بهم فى الصيميرية والملوك فى الملوكية والدينار إلغازا فى الصفرية والرجل يخدع مظهره ويؤذى مخبره فى السارية القريبة الشبه بالنيسابورية والوضعاء يعلون فى التميمية ثم المال

الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك مما جعل بين الأدب والكدية نسبا .

والدعوة الى فتح المطالب فى المطلبية . ويلى الوصف فى العناية المطارحات الادبية وقد شغلت تسع مقامات ستاق الشعر وهى القريضية فى التفاضل بين الشعراء والغيلانية فى غيلان بن عقبة وهو ذو الرمة والاسودية فى انشاد شعر مرتجل والابليسية فى شياطين الشعراء والعراقية والشعرية وكلتاهما فى الالغاز عن أبيات من الشعر ثم ثلاثا فى محاورات أخرى وهى الجاحظية فى مدح الجاحظ وذمة والمارستانية فى دحض مذاهب المعتزلة والدينارية فى التساب بين متشاءين. أما الست الباقيات فقد جاءت ثلاث منها فى الوعظ والايصاء وهى الاهوازية فى الحياة والموت والوعظية فى الدنيا والآخرة والوصية فى الاقتصاد والتجارة ، وثلاث فى التمويه والتدجيل وهى الموصلية فى محاولة إحياء ميت ورد سيل والحرزية فى عمل حرز يضمن النجاة من الغرق ثم الارمينية فى التحيل لجلب الخبز والأدم .

وقد أبدع البديع فى مقاماته مع أنه أملاها ارتجالا أو فى حكم الارتجال بنيسابور الابداع كله ولهذا بعد فيها عن تكلف صناعات البديع فجاءت قليلة الغريب سهلة المتناول يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط بعضه ببعض ارتباطا يؤذن بصفاء قريحة وطول باع فأنت إذا بدأت فى قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حللت روضا ممتعا ينسيك كل شيء غيره وكلما سرحت نظرك فى خميلة من خمائلة أو زهرة من أزهاره تطلبتك أجمل منها حتى لا تشعر الا وقد انتهيت الى سياجه .وقد أجاد فيها الوصف والتشبيه، والمقامات العشرون التى تناولت الوصف كما ذكرنا مليئة بأوصاف تنطق بالحقيقة وتمثل الصورة، وتشبيهات تم تخف

القارىء عجبا وتأخذ بلبه حيرة ودهشا فارجع اليها أو إلى المقامة الأسدية التى اخترناها نموذجا منها تجد المثل العليا لما ذكرنا كما قد أحسن فيها الكناية وأحكم الالغاز فمن كناياته قوله فى شدة الروعة من أسد خرج عليه « فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه » وفى الخوف من فاتك لقيه فجأة « فراعنى منه ماير وع الوحيد من مثله وأخذنى ماياخذ الأعزل من شاكى السلاح » وفى بلدة نزلها ولم يقم إلا قليلا « فخلتها حلول الفىء » وفى تمثيل فرقة من صاحب « فاصطحبنا ثلاثة أيام حتى جذبنى نجد والتقمه وهد » وفى مجلس صفاء ليس فيه نموم « فأخذنا نتحدث وما فينا الامنا . ومن ألغازه وكان كثيرا الالغاز فى أبيات الشعر قوله : « بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب » يعنى قول عمرو ابن كلثوم .

كأن سيوفنا منا ومنهم   مخاريق بأيدى لاعبينا

وقوله : « بيت كاد يسقط فعاد » يعنى قول المتنبى .

وما أنا منهم بالعيش فيهم   ولكن معدن الذهب الرغام

وقوله : « بيت هو مهين بحرف ورهين بحذف » يعني قول أبى نواس .

لقد ضاع شعرى على بابكم   كما ضاع عقد على خالصه

الى غير ذلك من الألغاز التى أكثر منها دون أن يحمل اللفظ مالا يحتمل أو يكلف المعنى مالا يطيق. وليس هذا وغيره بغريب على رجل كان له من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ مالم يكن لغيره من كاتب أو شاعر قال عنه الثعالبي فى اليتيمة « إنه كان

ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتا فيعيدها كلها دون أن يترك حرفا وكان ينظر في أربع الورقات والخمس نظرة خفيفة ثم يسردها سردا وكان يقترح عليه عمل قصيدة في معنى بديع أو إنشاء رسالة في باب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة وكان ربما بدأ الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله فيخرج الكتاب جيدا في نوعه فريدا في بابه ». ولهذا القول شأنه لأنه قول معاصر أدركه لامحدث سمع عنه ؛

وقد زاول إنشاء المقامات بعد البديع أبو نصر عبد العزيز بن عمر المشهور بابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ وأبو القاسم عبد الله ابن محمد المشهور بابن ناقيا المتوفى سنة ٤٨٥ ولكن مقاماتيهما لم تشهرا ثم جاء بعدهما فارس ميدان المقامات والمجلي في حلبته الحريري المتوفى سنة ٥١٦ فأنشأ مقاماته الخمسين التي عارض فيها البديع فبذه في صناعة الكلام وإن اعترف له بفضل السبق في هذا الفن وهذي كلمة في التعريف بها .

بنى الحريري مقاماته على الكدية كما فعل البديع وجعلها خمسين مقامة فجاءت وفق العدد الذي بقي لنا من مقامات سلفه المذكور وقد جاءت فيها خمس عشرة في الكدية وحدها ، ثمان خالصة لها وهي الكوفية والبرقعيدية والبغدادية والمكية والصورية والتفليسية والمروية والساسانية وسبع في التحيل لها وهي الدمشقية التي ادعى فيها خفر القافلة بدعوة لقنها في المنام والفارقية التي ادعى فيها حاجته الى تكفين ميت والوبرية التي طلب فيها ناقة ادعى ضلالها والواسطية التي ختل

فيها أهل الخان باطعامهم حلواء مخدرة والزبيدية التى باع فيها ولده على أنه غلام والعمانية التى عاق فيها عزيمة الطاق على حامل اتضع والحرامية التى ادعى فيها أن ابنته فى الاسر وطالب فداءها. وجاءت فيها ست للوعظ هى الصنعانية والسارية والرازية والرملية الأولى والتنيسية والبصرية وأربع فى الوصف الخالص الصريح هى الدينارية فى الدينار والسنجارية فى النمام والكرجية فى الشتاء والبكرية فى البكر والثيب ولا تخلو هذه المقامات الاربع من وصف أشياء غير التى بنيت عليها كما لا تخلو مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف ولو لم يكن للحريرى من أوصاف غير افتنانه فى وصف أبى زيد بما يلائم شخصيته فى كل مقامة لكفاه ذلك فى تقلد زعامة الوصف أمام الواصفين. وجاءت فيها عشر فى الحوار والمخاصمة هى الحلوانية فى محاسن التشبيهات والدمياطية فى المواصلة والقطيعة والاسكندرانية فى أثاث زوجته وحليها إذ باعه والرحبية فى دعوى القتل على برىء والفراتية فى صناعتى الانشاء والحساب والشعرية فى دعوى سرقة شعر والصعدية فى عقوق الابن والتبريزية فى نشوز الزوجة والرملية الثانية فى عصيانها والحجرية فى الحجامة. وجاءت فيها تسع فى التكنية والالغاز. فمقامات التكنية أربع هى المعرية فى الكناية عن الابرة والميل والعصبية فى الكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به والشيرازية فى الكناية عن الخمر ببكر رباها والنجرانية فى الكناية عن أشياء عشرة هى المروحة والحابول والقلم والميل والدولاب والمزملة والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيار الذهب. ومقامات الالغاز خمس هى الفرضية فى مسألة توريث والنحوية

فى مائة لغز نحوى والطيبية فى مائة لغز فقهى والملاطية فى عشرين مقايضة كلامية (١) والشتوية فى خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية فى كل بيت لغز سوى بيت المطلع وثلاثة أبيات ختمها بها معجبا بنفسه وكم فيما أتى به حقا من عجب. على أن الأعجب منه ماجاء فى المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التى ابتكرها لاالتى أتى بها علم البديع وهى المقامة المغربية للعبارات التى تقرأ ردا وطردا والقهقرية للرسالة التى تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه والخيفاء للرسالة التى إحدى كلماتها معجمة والاخرى مهملة والرقطاء للرسالة التى أحد حروف كلماتها معجم والآخر مهمل والسمرقندية للخطبة العارية من النقط ثم الحلبية لعشر مقطعات من الابيات أولاها عواطل من النقط والثانية حوال به والثالثة أخياف أى كلمة مهملة وأخرى معجمة والرابعة متائيم أى كل كلمتين مجنستان جناسا خطيا والخامسة مطرفات أى بطرفى كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين والسادسة لما أشكل من ذوات السين والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد والثامنة لما يجرى عليه هذان الحرفان والتاسعة لعقد هجاء الافعال الناقصة والعاشرة وهى طويلة للمورد من الكلمات فيه ظاء.

هذا ما نحا اليه الحريرى فى مقاماته من الفن المعجز الذى غطى على كل فن قبله وقطع الطريق على كل فن بعده وهو مع هذا بعيد عن التكلف المقوت ولذلك كان منصفا للحقيقه بل غير موفيها حقها حين قال من وصفها

---

(١) الاحاجى هى المقايضة تكون بطلب كلمة واحدة تؤدى معنى كلام كطواميرفى معنى «جوع أمد بزاد» والفاشية فى معنى «أهمل حلية» وهكذا.

فى مقدمتها « وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره وملح الادب ونوادره الى ماوشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الامثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والاضاحيك الملهية مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجى وأسندت روايته الى الحارث ابن همام البصرى (١) وماقصدت بالاحماض فيه الا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه ولم أودعه من الاشعار الاجنبية الا بيتين فذين أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم المقامة الكرجية وماعدا ذلك فخاطرى أبو عذره ومقتضب حلوه ومره (٢) هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ولو أوتى بلاغة قدامة لايغترف الا من فضالته ولايرى ذلك المسرى الا بدلالته ولله در القائل

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدى شفيت النفس قبل التندم

---

(١) أبو زيد السروجى هو المطهر بن سلام البصرى النحوى لزم الحريرى وتأدب عليه وتخرج به فأملى مقاماته على لسانه . أما الحارث بن همام فيعنى به نفسه لقوله عليه الصلاة والسلام « كلكم حارث وكلكم همام » . فبطلا مقاماته ليسا خياليين كبطلى البديع

(٢) بالمقامات من الشعر مايزيد على ماللكثير من الشعراء ولذلك عد الحريرى من الشعراء المكثرين

ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا   بكاها فقلت الفضل للمتقدم»

فمقامات الحريرى بالنسبة الى مقامات البديع ـ وان كانت هذه أكثر انطباعا وأشد انسجاما وأبعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة ـ أبدع فنونا وأبرع خيالا وألطف فكاهة وأكثر أمثالا ولذلك جذبت اليها طلاب اللغة للاستفادة منها وأعلام الادب للعمل فيها فحظيت بمثل ما حظى به شعر المتنبي وشرحها كثير. منهم الشريشي المتوفى سنه ٦١٩ والمطرزى والعكبرى والطرائفى والزبيدى والطبلى والناصرى والباجى وغيرهم وأشهرهم الشريشى وقد طبع شرحه أكثر من مرة بمصر وبغير مصر أما شروح غيره فبين معدوم ومخطوط ببعض مكاتب أوربة. وقد نشر أصلها العربى بالغرب فى القرن التاسع عشر ثم ترجمت فيه الى بعض لغاتها والى بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وغيرها. ولم يك العجب بها فى القديم بأقل منه فى الحديث. هذا على بن الحسن المعروف بشميم الحلى المتوفى بالموصل سنة ٦٠١ وكان معجبا بنفسه لا يكاد يرى لأحد من المتقدمين عليه فضلا يقول « لا أعلم أحدا من المتقدمين جاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبي فى مديحه وابن نباتة فى خطبه والحريرى فى مقاماته فهؤلاء لم يقصروا» وقال له بعض إخوانه قد عجبت أن لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريرى فقال « إن الرجوع الى الحق خير من التمادى فى الباطل قد عملت مقامات مرتين فلم ترضنى فأعرضت عنها وأهملتها وما أعلم أن الله خلقنى الا لأظهر فضل الحريرى»

وقال جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ صاحب الكشاف وهو من هو فى البلاغة فى الحريرى ومقاماته

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقـاته
أن الحريرى حرى بأن نـكتب بالتـبر مقاماته
معجزة تعجز كل الورى ولو سروا فى ضوءمشكاته

وللزمخشرى هذا مقامات خمسون أيضا ألفها قبل مقامات الحلى المذكور وكذا أبو منصور أحمد بن جميل البغدادى المتوفى سنة ٥٧٧ والأولى هى الموجودة دون الثانية وكلها فى الوعظ والارشاد بأسلوب وعلى طريقة غير ماعرف للحريرى والبديع.فأسلوبها ليس فيه محدث ومحدث عنه وطريقتها خلو كل الخلو من القصة . وقد جاء بعدهذين من تصدى لعمل المقامات فى العصر العباسى ولكن لم يشهر مع مقامات الحريرى والبديع فقبر. أوضاع . كأحمد بن الأعظم الرازى المتوفى سنة ٦٣٠ . ثم تعدى عمل المقامات رجاله إلى رجال العصور بعده حتى العصر الحديث كزين الدين بن صقيل الجزرى المتوفى سنة ٧٠١،وعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ ، وجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١، والشهاب الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ ، والشيخ ناصيف اليازجى المتوفى سنة ١٢٨٧ ، ثم المنشىء الأديب محمد بك المويلحى فى كتابه حديث عيسى بن هشام الذى حذا فيه حذو البديع واختار اسم راويته فأعاد الى الاذهان ذكراه وقدفاقه فى أن جاء حديثه هذا أدخل فى باب القصة من المقامات لما عالجه من تحليل الحوادث وتصوير الشخصيات .فهو بطل المقامة فى الحديث كما كان الحريرى والبديع بطليها فى القديم .

الشعـــــــــر

أولا ـ نماذجه

١ ـــ قال بشار المتوفى سنة ١٦٧ ينسب وهو من مخضرمى الدولتين (١)

ياليلة تزداد نـكرا — من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت اليـــك — سقتك بالعينين خمرا
تنسى التقى معاده — وتـكون للحكماء ذكرا
وكأن رجع حديثها — قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها — هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليـــه ثيابها ذهبا وعطرا
وكأنهـا برد الشرا — ب صفا ووافق منك فطرا
جنيـــة إنسيـة — أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أنى لم أحط — بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقالة زائر — نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى — عشرا وتحت الموت عشرا

---

(١) هو بشار بن برد الفارسى أصلا العقيلى ولاءالضرير الشاعرالمتصرف فى فنون الشعر الذى أجمعت الرواةعلى تقدمه طبقات المحدثين المجيدين وهو من مخضرمى الدولتين لأنه عمر نيفا وتسعين سنه .

٢ — وقال العباس بن الأحنف المتوفى سنه ١٩٢ ينسب أيضا (١)

أزين نساء العالمين أجيبي ... دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابى ما أقيم حروفه ... لشدة إعوالى وطول نحيبى
أخط وأمحو ما خططت بعبرة ... تسح على القرطاس سح غروب
أيا فوز لو أبصرتنى ماعرفتنى ... لطول نحولى بعدكم وشحوبى
وأنت من الدنيا نصيبى فان أمت ... فليتك من حور الجنان نصيبى
وانى لأستهدى الرياح سلامكم ... اذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام اليكم ... فان هى يوما بلغت فأجيبى
أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيارب قرب دار كل حبيب
أقول ودارى بالعراق ودارها ... حجازية فى حرة وسهوب
وكل قريب الدار لابد مرة ... سيصبح يوما وهو غير قريب
سقى منزلا بين العقيق وواقم ... إلى كل أطم بالحجاز ولوب
أجش مديم الرعد دان ربابه ... يجود نسيمى شمأل وجنوب
أزوار بيت الله مروا بيثرب ... لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يأهل يثرب أسعدوا ... على جلب للحادثات جليب
فانا تركنا بالعراق أخا هوى ... تنشب رهنا فى حبال شعوب
به سقم أعيا المداوين علمه ... سوى ظنهم من مخطىء ومصيب
اذا ماعصرنا الماء فى فيه مجه ... وإن نحن نادينا فغير مجيب

---

(٢) هو أبو الفضل العباس بن الأحنف الحنفى الشاعر الرقيق الحاشية اللطيف الطباع الغزل المخلص للغزل. فجميع ديوانه فيه وكله جيد .

خذوا لى منها جرعة فى زجاجة ألا إنها لو تعلمون طبيبى
وسيروا فان أدركتم بى حشاشة
لها فى نواحى الصدر وجس دبيب
فرشوا على وجهى أفق من بليتى يثيبكم ذو العرش خير مثيب
فان قال أهلى ما الذى جئتم به وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم لنشفيه من دائه بذنوب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم وبينى بيوم للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة حليف صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبرى من الماء واندبوا قتيل كعاب لا قتيل حروب

٣ — وقال أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ يصف سلاف الشهد ونحله [1]

لا يصرفنك عن قصف وإصباء مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
واشرب سلافا كعين الديك مذهبة من كف ساقية كالريم حوراء
لها ذيول من العقيان تتبعها فى الشرق والغرب فى نور وظلماء
ليست الى النخل والأعناب نسبتها لكن الى العسل الماذى والماء
نتاج نحل خلايا غير مقفرة خصت بأطيب مصطاف ومشتاء
ترعى أزاهير غيطان وأودية وتشرب الصفو من غدر وأحساء
فطس الأنوف مقاريف مشمرة خوص العيون بريئات من الداء
من مقرب عشراء ذات زمزمة وعائذ متبع منها وعذراء

---

(١) هو أبو على الحسن بن هانىء الفارسى أصلا الحكمى ولاء، أرق الشعراء حاشية وأجودهم بديهة وأفتحهم لأبواب الحديث من المعانى الرقيقة وثانى الشعراء المحدثين بعد بشار عند الجاحظ .

تغدو وترجع ليلا عن مسارها إلى ملوك ذوى عز وأحياء
كل بمعقله يمضى حكومته فى حزبه بجميل القول والراء
حتى إذا اصطلت من بنيانها قرص أروينها عسلا من بعد اصداء
وآن من شهدها وقت الشيار فلم تلبث بأن شيرت فى يوم أضواء
وصفقوها بماء النيل اذ برزت فى قدر قس كجوف الجب روحاء
حتى إذا نزع الرواد رغوتها وأقصت النار عنها كل ضراء
استودعوها رواقيدا مزفتة من أغبر قاتم منها وغبراء
وكم أفواهها زهر على ورق من حر طينة أرض غير ميثاء
وعمرت حقبا فى الدن لم يرها حى من الناس فى صبح وامساء
حتى إذا سكنت فى دنها وهدت من بعد زمزمة منها وضوضاء
جاءت كشمس ضحى فى يوم أسعدها من برج لهو الى آفاق سراء
كأنها ولسان الماء يقرعها نار تأجج فى آجام قصباء
لها من المزج فى كاساتها حدق ترنو الى شربها من بعد إغضاء
كان مازجها بالماء طوقها منزوع جلدة ثعبان وأفعاء
فاشرب هديت وغن القوم مبتدئا على مساعدة العيدان والناء

٤ — وقال مسلم المتوفى سنة ٢٠٨ يمدح يزيد الشيبانى فى قتله الوليد ابن طريف[1]

---

(١) هو صريع الغوانى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر المتصرف البالغ المدح الجيد القول فى الشراب كأبى نواس وهو على ماقيل أول من أكثر البديع واخترع له هذا الاسم فاتبعه فى ذلك الشعراء وبخاصة أبو تمام وقد مات وهو يلى بريد جرجان للمأمون . وجل مدائحه فى البرامكة والمهالبة ويزيد ابن مزيد الشيبانى .

لولا يزيد وأيام لنا سلفت ... عاش الوليد مع الغاوين أعواما
كالدهر لا ينثني عما يهم به ... قد أوسع الناس إنعاما وإرغاما
ترى العفاة عكوفا حول حجرته ... يرجون أروع رحب الباع بساما
منية فى يدى هارون يبعثها ... على أعاديه إن سامى وإن حامى
خير البرية آباء اذا ذكروا ... وأكرم الناس أخوالا وأعماما
تظلم المال والأعداء من يده ... لا زال للمال والأعداء ظلاما
لا يستطيع يزيد من طبيعته ... عن المنية والمعروف إحجاما
أذكرت سيف رسول الله سنته ... وبأس أول من صلى ومن صاما
إن يشكر الناس ما أوليت من حسن ... فقد وسعت بني حواء إنعاما
اذا الخلافة عدت كنت أنت لها ... عزا وكان بنو العباس حكاما
يصيب منك مع الآمال صاحبها ... حلما وعلما ومعروفا وإسلاما
كم بلدة بك حل الركب جانبها ... وما يلم بها الركبان الماما
اذا علو مهمها كان النجاء لهم ... إنشاء مدحك إفصاحا وترناما
لو كان يفقه رجع القول طائرها ... غني بمدحك فيها بومها الهاما
لو لم تكونوا بني شيبان من بشر ... كنتم رواسى أطواد وأعلاما

• ـ وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ فى الحكمة وقد سبقت له قصيدة فى الزهد(١)

---

(١) هو ابو اسحاق اسماعيل بن القاسم الفارسى أصلا العنزى ولاء شاعر سهل الالفاظ حكيم المعانى أكثر الشعراء زهدا وحكمه .

الحرص داء قد أضر م بمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيت الحرص صيره ذليلا
فتجنب الشهوات واحـــذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزناً طويلا
من لم يكن لك منصفا في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها واكسب لها فعلا جميلا
ولقلما تلقى اللئيـــم عليك الا مستطيلا
والمرء إن عرف الجميـــل وجدته يبغى الجميلا
اضرب بطرفك حيث شئـت فلن ترى إلا بخيلا

٦ — وقال أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ يرثى محمد بن حميد الطوسى [١]

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعـــد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدرى مجتدى جود كفه اذا ما استهلت أنه خلق العسر
ألا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
دما ضحكت عنه الاحاديث والذكر
فتى دهـره شطران فيما ينوبه ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر

(٢) هو حبيب بن أوس الطائى واحد عصره فى ديباجة اللفظ وصناعة الشعر وكثرة الحفظ وإجادة الرثاء وقد لاقى شعره شبيه مالاقى شعر المتنبي من عنايه

وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وقد كان فوت الموت سهلا فرده اليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت إخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف الا وأكفانه الاجر
تردى ثياب الموت حمرا فما دجا لها الليل الا وهى من سندس خضر
كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكى عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى الى الموت حتى استشهدا هو والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير فى الوغى بواتر فهى الآن من بعده بتر
أمن بعد طى الحادثات محمدا يكون لأثواب الندى أبدا نشر
اذا شجرات العرف جذت أصولها ففى أى فرع يوجد الورق النضر
لئن أبغض الدهر الخئون لفقده لعهدى به ممن يحب له الدهر
لئن غدرت فى الروع أيامه به فما زالت الأيام شيمتها الغدر
لئن ألبست فيه المصيبة طيئ فما عريت منها تميم ولا بكر
كذلك ما ننفك نفقد هالكا يشاركنا فى فقده البدو والحضر

سقى الغيث غيثا وارت الارض شخصه
وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر

وكيف احتمالى للغيوث صنيعة باسقائها قبرا وفى لحده البحر
مضى طاهرا الأثواب لم تبق روضة غداة ثوى الا اشتهت أنها قبر
ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفا فانني رأيت الكريم الحر ليس له عمر

٧ — وقال ابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ آخر شعراء العصر الأول وكتابه يرثى ام ابنه عمر وقد تركته ابن ثمان (١)

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عينه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى أن بكيت فانما أداوى بهذا الدمع ما تريان
فهذى عزمت الصبر عنها لأننى جليد فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة
ولا يأتسى بالناس فى الحدثان
فلم أر كالاقدار كيف نصبننى ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعينى إن لم تسعدا اليوم عبرتى فبئس إذن ما فى غد تعدانى

٨ — وقال البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ يمدح الخليفة جعفرا المتوكل ويصف خروجه فى عيد فطر (٢)

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات الكاتب البليغ والشاعر المتصرف والعالم الأديب.

(٢) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى شاعر مطبوع متصرف فى فنون الشعر الا الهجاء وخاصة المدح وهو نقى الكلام ذو بدائع فى غير تكلف يعده أبو العلاء المعرى الشاعر ويعد أبا تمام وأبا الطيب حكيمين.

الله مـكن للخليفة جعفر ما كان يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى فيها المقل على الغنى والمكثر
بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت عددا يسير بها العديد الاكثر
والخيل تصهل والفوارس تدعى والبيض تلمع والاسنة تزهر
والارض خاشعة تميل بثقلها والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس مانعة توقد بالضحى طورا ويطفئها العجاج الاكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت
تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فاصبع يومى اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهو ولا يتكبر
فلو آن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى اليك المنبر
أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبي عن الحق المبين وتخبر

ووقفت فى بزد البنى مذكرا   بالله تنذر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذى   يعتادها وشفاؤها متعذر
حتى لقد علم الجهول وأخلصت   نفس المروى واهتدى المتحير
صلوا وراءك آخذين بعصمة   من ربهم وبذمة لاتخفر
الله أعطاك المحبة فى الورى   وحباك بالفضل الذى لاينكر
فلأنت أملأ للعيون لديهم   وأجل قدرا فى الصدور وأكبر

٩ — وقال ابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٤ أو ٢٨٣ يهجو إبراهيم بن المدبر (١)

يابن المدبر غرنى الرواد   عمرا وليس لهم سواك مراد
أدعو على الشعراء أخبث دعوة   إذ مجدوك وغيرك الأمجاد
قل لى بأية حيلة أعملتها   هتفوا بأنك لا حفظت جواد
ماأنت والمعروف أو مفتاحه   ذهبت بذينك دونك الاجواد
لكن إخال معاشرا خيبتهم   نصبوا الحبائل للأسى فأجادوا
أثنوا عليك ليستميحك غيرهم   فيخيب خيبتهم وتلك أرادوا
أرويت بالاصدار عنك حوائمى   لما أطال غليلها الايراد
وسلوت ذكراك التى من مثلها   تجوى القلوب وتقرح الاكباد
خيبتنى ثقة بلؤمك إنه   لمن استعد لشاتم لعتاد
عن مثله نكص الهجاء مقهقرا   ونبت سيوف الشتم وهى حداد

---

(١) هو أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى شاعر فياض ذو نظم عجيب وتوليد غريب يقع على المعانى النادرة فيستخرجها ثم يوفيها ويحسن عرضها ، أجاد فى كل فنون الشعر ولاسيما الوصف والهجاء.

لا أنَّ لؤمك جنة لـكنه نجس يعاف وروده الوارد
فاهرب وأين بهارب من طالب في كل مطلع له مرصاد
خذها اليك من الملابس ملبسا تشقى به الأرواح والاجساد
ضنكا اذا زرت عليك زروره ضاق الخناق فلم تسعك بلاد
ولئن شقيت بلبس برد مثلها فلطالما شقيت بك الأبراد
شنعاء تضرب فيك نار شناعة تبقى نوائرها وأنت رماد
تحبوك بدأتها بذكر نابه عقباه إخمال هو الاخمـــاد
ولقلما يجدى على متبجح ذكر يمات بنشره فيباد
ما ينفع الحطب المحرق في الصلى ضوء جريرته عليه فساد

١٠ — وقال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ يصف العقار وساقيها ومجلسها والصيد لشوائها[1]

وحلو الدلال مليح الغضب يشوب مواعيـده بالكذب
سقاني وقد سل سيف الصبا ح والليل من خوفه قد هرب
عقارا إذا ماجلتها السقا ة ألبسها الماء تاج الحبب
فأصلح بيني وبين الزما ن وأبدلني بالهموم الطرب
وما العيش الا لمستهتر تظل عواذله في شغب
يهيم الى كل مايشتهى وإن رده العذل لم ينجذب

---

(١) هو الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز بن المتوكل العالم الأديب والكاتب البليغ والشاعر المتصرف القدير ذو التشبيهات الفائقة والتخيلات الرائعة في شتى الأوصاف بعبارات مطبوعة كأنها مصنوعه .

ويسخو بما قد حوت كفه ولا يتبع المن ما قد وهب
فكم فضة فضها فى سرو ر يوم وكم ذهب قد ذهب
ولا صيد الا بوثابة تطير على أربع كالعذب
وان أطلقت من قلاداتها وطار الغبار وجد الطلب
فزوبعة من بنات الريا ح تريك على الارض شدا عجب
تضم الطريد الى نحرها كضم المحب لمن قد أحب
لها مجلس فى مكان الرديـ ـف كتركية قد سبتها العرب
فظلت لحرم ظباء الفلا ة على الجمر معجلة تنتهب
وطافت سقاتهم يمزجو ن بماء الغدير بنات العنب
وحثوا الندامى بمشمولة اذا شارب عب فيها قطب
فراحوا نشاوى بأيدى المدا م قد نشطوا من عقال التعب
الى مجلس أرضه نرجس وأوتار عيدانه تصطخب
وحيطانه خرط كافورة وأعلاه من ذهب يلتهب

١١ — وقال المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ فاتحة شعراء العصر الثالث يمدح سيف الدولة ويصف نصرته على الروم ويذكر مركزه من الخلافة سائقا المثل والحكمة فى ثنايا مايقول (١)

هنيئا لأهل الثغر رأيك فيهم وأنك حزب الله صرت لهم حزبا
وأنك رعت الدهر فيها وريبه فان شك فليحدث بساحتها خطبا

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى اليمنى شاعر أشهر من أن يعرف به نشأ بالكوفة ولكنه ملأ بطوافه أرجاء المملكة العربية وبشعره العالم بأمره.

فيوما بخيل تطرد الروم عنهم ويوما بجود يطرد الفقر والجدبا
سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبى
أتى مرعشا يستقرب البعد مقبلا وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل ردعنه باللقان وقوفه صدور العوالى والمطهمة القبا
مضى بعد ما التف الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا
أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس اورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد الى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا
وما الفرق مابين الأنام وبينه
اذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدته الخلافة للعدا وسمته دون العالم الصارم العضبا
اذا الدولة استكفت به فى ملمة
كفاها فكان السيف والكف والقلبا
تهاب سيوف الهند وهى حدائد فكيف اذا كانت نزارية عربا
ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف اذا كان الليوث صحبا
ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد اذا عبا
ومن تكن الأسد الضوارى جدوده
يكن ليلة صبحا ومطعمه غصبا
فبوركت من غيث كأن جلودنا به تنبت الديباج والوشى والعصبا

١٢ — وقال أبو فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ يفتخر ويعتذر عن أسره الروم له (١)

سيذكرنى قومى اذا جد جدهم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر
ولوسدى غيرى ما سددت اكتفوا به
وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر
وإنى لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
فأصدى الى أن ترتوى البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ولا أصبح الحى الخلوف بغارة او الجيش مالم تأته قبلى النذر
ويارب دار لم تخفنى منيعة طاعت عليهابالردى أنا والفجر
وساحبة الأذيال نحوى لقيتها فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله
ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر
ولا راح يطغينى بأثوابه الغنى ولابات يثنينى عن الكرم الفقر
أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى
ولا فرسى مهر ولا ربه غمر

(١) هو الحارث بن أبى سعيد بن حمدان بن حمدون فارس مغوار وشاعر عظيم يجمع بين السهولة والجزالة والظرف والعزة. وهو ابن عم سيف الدولة وملك الشعر الثانى فى قول الصاحب بن عباد «بدىء الشعر بملك وختم بملك» والأول امرؤ القيس، ويغلب على شعره الحماسة والفخر وقد أسر بالروم أربع سنين قال فيها كثيرا من الشعر عرفت قصائده بالروميات.

ولكن اذا حم القضاء على امرىء فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أصيحابى الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مر
ولـكننى أمضى لما لا يعيبنى
وحسبك من أمرين خيرهما الاسر
ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوأته عمرو
يمنون أن خلوا ثيابى وانما على ثياب من دمائهم حمر
ونحن أناس لاتوسط عندنا لنا الصدر دون العالمين او القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

١٣ ـ وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٦٣٢ يرثى فتى من بنى شيبان كان له صديقا قتل وصلب (١)

أبدر دجى غالته إحدى الغوائل فأصبح مفقودا وليس بآفل
أتته المنايا وهو أعزل حاسر خفى غرار السيف بادي المقاتل
غلام اذا عاينت عاتق ثوبه رأيت عليه شاهدا للحمائل
يمسح بالمسك الذكى مرجلا يرف على المتنين مثل السلاسل
سواء عليه فى السوابغ مرة ثنى عطفه أم فى رقاق الغلائل
وعز على العلياء أن حيل بينه وبين ظبا أسيافه والعوامل
وعرى من برديه كالسيف منتضى فلم يعر من بردى عفاف ونائل
فأحبب به من راكب غير سائر مقيم ولكن زيه زى راجل

---

(١) هو أبو الحسن السرى الرفاء بن أحمد بن السري الكندى كان يرفو الثياب بالموصل ولكنه ولع بالشعر حتى أجاده ولم يكن يعرف سواه ولذا كان مطبوعا عذب الألفاظ، وله افتنان فى التشبيهات والاوصاف .

يعنبر أنفاس الرياح بشلوه فتعبق من أنفاس تلك الشمائل
هو القدر المحتوم والسيف لم يكن ليخضب الا من دماء الأفاضل
أحلك من أعلى الهواء محلة نأت بك عن ضنك الثرى والجنادل
وليس بعار ماعراك وانما حماك اتساع الصدر ضيق المنازل

١٤ — وقال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ وهو فى سجن عضد الدولة بعزى نفسه عن حبسه ومصادرة ماله بنفسه وهمته (١)

يعيرنى بالحبس من لو يحله حلولى لطالت واشمخرت مراكبه
ورب طليق أطلق الذل رقه ومعتقل عان وقد عز جانبه
وإنى لقرن الدهر يوما تنوبنى سطاه ويوما تنجلى بى نوائبه
ومن مد نحو النجم كيما يناله يدا كيدى لاقته أيد تجاذبه
ولا بد للساعى الى نيل غاية من المجد من ساع تدب عقاربه
وإنى وان أودت بمالى نكبة نظيرى فيها كل قرم أناسبه
فما كنت كالقسطار يثرى بكيسه ويملق إن أنحى على الكيس سالبه
ولكن كليث الغاب إن رام ثروة حوتها له أنيابه ومخالبه
يبيت خميصا طاويا ثم يغتدى مباحا له من كل طعم أطايبه
كذلك مثلى نفسه رأس ماله بها يدرك الربح الذى هو طالبه
والمال آفات يهنأ ربه بها إن تخطته اليه مصائبه

(١) هو أبو أسحاق الصابى إبرهيم بن هلال الكاتب المترأس على ديوان الانشاء للخلفاء وملوك بويه والشاعر المطبوع المكثار فى جميع الفنون وصاحب المنزلة العالية على مجوسيته فى النفوس .

ومن يكن السلطان فيه خصيمه فلا عار فى الغصب الذى هو غاصبه
وماضرنى أن غاض ماملكت يدى وفى فضل جاهى أن تغيض مذانبه
إذا كان مالى من طريف وتالد قتيل يدى فضل ففنيه جالبه
ولى بين أقلامى ولبى ومنطق غنى قلما يشكو الخصاصة صاحبه

١٥ ـ وقال ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ يتحدث عن قصة ناسبا[1]

كيف العزاء وأين بابه والحى قد خفت ركابه
بأعز منتقب ينم م على محاسنه نقابه
والبدر فى قزع يشف م كما تشف به ثيابه
متأود حــلو الشما ئل من أساوره حقابه
زعم المخبر أنه ضربت على سلع قبابه
فطلبته كالأيم أو كالسيل فى الليل انسيابه
فاذا أحم المقلتــين يشين أعله خضابه
يهتز مثل السمهرى م تدافعت فيه كعابه
وقف الولائد دونه كالقلب يستره حجابه
أقبلت أسأله وأعـــلم أن حرمانى جوابه
ويلى على متلون الـ أخلاق يعجبه شبابه
لارسله تترى اليــنا بالسلام ولا كتابه

١٦ ـ وقال الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وقد مر على قبر الصابى

(١) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدي التميمي الشاعر المجيد ذو السبك الحسن والمعنى الجيد فى النسيب والمدح والاوصاف .

فى الجنينة ببغداد من غير القصيدة الطويلة التى رثاه بها حين موته [١]

أيعلم قبر بالجنينة أننا أقمنا به ننعى الندى والمعاليا
حططنا لخيبنا مساعيه إنها عظام المساعى لا العظام البواليا
وما لاح ذاك الترب حتى تحلبت من الدمع أوشال ملأن المآقيا
نزلنا اليه عن ظهور جيادنا نكفكف بالأيدى الدموع الجواريا
أقول لركب رائحين تفرجوا أريكم به فرعا من المجد ذاويا
ألموا عليه عاقدين فأننا إذا لم نجد عقرا عقرنا القوافيا
وقفنا فأرخصنا الدموع وربما تكون على سوم الغرام غواليا
ألا أيها القبر الذى ضم لحده حساما على هام النوائب ماضيا
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا هلالا على ضوء المطالع باقيا
وتلك البنان المورقات من الندى نواضب ماء أم بواق كما هيا
هو الخاضب الأقلام نال بها علا تقاصر عنها الخاضبون العواليا
مفيد ضراب باللسان لو آنه بيوم وغى فل الجراز اليمانيا
مرير القوى نال المعالى واثبا اذا غيره نال المعالى حابيا
خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسه وأصبح تقروه النوائب واديا
ملأت بمحياك البلاد فضائلا ويملأ مثواك البلاد مناعيا

(١) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ويلقب بالموسوى نسبة الى جده موسى الكاظم الراجع بنسبه الى الحسين بن على. نبغ فى الشعر يافعا وأكثر منه مبدعا حتى أجمع الادباء على أنه أشعر قريش لأنه أكثر مجيدا وهم بين مجيد مقل أو مكثار غير مجيد . وكان ذا هيبة وجلال تولى نقابة الطالبيين فى حياة أبيه وله ديوان شعر كثير الابواب حافلها ثم هو عالم ذو مؤلفات

١٧ ـ وقال التهامى المتوفى سنة ٤١٦ ينسب ويذكر الطيف (١)

قالت أأنساك نجدا حب مطرف ... فقلت خبرك يغنيني عن الخبر
أخذت طرفى وسمعى يوم بينكم ... فكيف أهوى بلا سمع ولا بصر
وقد أخذت فؤادى قبل فاطلعى ... هل فيه غيرك من أنثى ومن ذكر
فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى ... إلا هواك فلا تبقى ولا تذرى
بيضاء تسحب ليلا حسنه أبدا ... فى الطول منه وحسن الليل فى القصر
يحكى جنى الاقحوان الغض مبسمها ... فى اللون والريح والتفليج والأشر
لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ... ما كان يزداد طيبا ساعة السحر
أهتز عند تمنى وصلها طربا ... ورب أمنية أحلى من الظفر
تجنى على وأجنى من مراشفها ... ففى الجنى والجنايات انقضى عمرى
أهدى لنا طيفها نجدا وساكنها ... حتى اقتنصنا ظباء البدو فى الحضر
فبات يجلو لنا من وجهها قمرا ... من البراقع لولا كلفة القمر
وراعها حر أنفاسى فقلت لها ... هواى نار وأنفاسى من الشرر
فما نكرنا من الطيف الملم بنا ... ممن هويناه إلا قلة الخفر
فسرت أعثر فى ذيل الدجى ولها ... والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض ... كأنها حبب يطفو على نهر
وللثريا ركود فوق أرحلنا ... كأنها قطعة من جلدة النمر
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم ... وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
فروع الشرب لما ابتل أكرعه ... فى جدول من خليج الفجر منفجر

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد التهامى كاتب معروف وشاعر محسن ذرب اللسان مشهور وله ديوان يغلب عليه المدح والرثاء والنسيب .

ولو قدرت وثوب الليل منخرق بالصبح رقعته منهن بالشعر

١٨ ـ وقال مهيار المتوفى سنة ٤٢٨ يمدح أباالقاسم الحسين بن على المغربى ، عند تقليده الوزارة ويهنئه بالنيروز وقد جاء لذلك إلى بغداد من بابل سنة ٤١٤ (١)

قد رفعت فى بابل راية للمجد من يلق بها يغلب
يصيح داعى النصر من تحتها ياخيل محي الحسنات اركبى
جاء بها الله على فترة بآية من يرها يعجب
لم تألف الأبصار من قبلها أن تطلع الشمس من المغرب
فارتبعوا بعد مطال الحيا وروضوا بعد الثرا المجدب
وزارة قلبها شوقها منك الى حولها القلب
قمت بمعناها وكم جالس يكفيه منها سمة المنصب
وهى التى إن لم تقد رأسها بمحصدات الصبر لم تصحب
مزلقة راكب سيسائها راكب ظهر الأسد الأغلب
راحت على عطفك أثوابها طاهرة المرفع والمسحب
فتحت فى مبهم تدبيرها تنفس البلجة فى الغيهب
رد بنو يحيى وسهل لها والطاهرون بنو مصعب
فاضرب عليها بيت ثاو بها قبلك لم يعمد ولم يطنب

(١) هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمى أحد من أسلم من نبغاء المجوس وكان إسلامه على يد الشريف الرضى وعليه تخرج فى الشعر فجاء على نحو منه فى جزالة القول وطول النفس ورقة الحاشية وفضل شعراء عصره وله ديوان ضخم بكثير من فنون الشعر وأخصها المدح فالنسيب فالصفات .

وامدد على الدنيا وجهالها ظلال حلم لك لم يعزب
واطلع على النيروز شمسا اذا ساق الغروب الشمس لم تغرب
يوم من الفرس أتى وافدا فقالت العرب له قرب
فاغرس ونوه منهما واصطنع ترض مضاء الصارم المقضب
ولوفة الاعطاف لم تعتسف بالكلم المر ولم تتعب
جاءك معناها وألفاظها
في الحسن بالأسهل والأصعب
أفصح ماقيل ولكنها فصاحة تهدى الى يعرب

١٩ — وقال المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ وخاتمة شعراء العصر الثالث يسجل رأيه فى النساء (١)

ترنم فى نهارك مستعينا بذكر الله فى المترنمات
ولا ترجع بايماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غى لقينك بالأساور معلمات
وسام مااقتنعن بحسن أصل فجئنك بالخضاب موسمات
رأين الورد فى الوجنات خبما فغادين البنان منعمات
وشنفن المسامع قائلات وكلمن القلوب مكلمات
خمور الريق لسن بكل حال على طلابهن محرمات

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد التنوخى المعرى الشاعر الحكيم الفيلسوف خاتمة شعراء العصر الثالث، الغنى كسلفه المتنبي فاتحة العصر المذكور عن التعريف . وقد خلف لنا من شعره سقط الزند واللزوميات

ولكن الأوانس باعثات ركابك فى مهالك مقتمات
صحبنك فاستفدت بهن ولدا أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مسقمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق وأرزاء يجئن مصممات
وإن تعط الأناث فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليا ويلقين الخطوب ملومات
يلدن أعاديا ويكن عارا إذا أمسين فى المتهضمات
ولا ترمق بعينك رائحات الى حمامهن مكممات
فكم حلت عقود النظم وهنا عقودا للرشاد منظمات
ولا تحمد حسانك إن توافت بايد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات
سهام إن عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسممات
ويتركن الرشيد بغير لب أتين لهديه متعلمات
وإن جئن المنجم سائلات فلسن عن الضلال بمنجيات
ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائى فغرن مهتمات
فأبعدهن من ربات فكر سواحر يغتدين معزمات
ولا يتأهلن شيخ مقل بمعصرة من المتنعمات
فان الفقر عيب إن أضيفت اليه السن جاء بمعظمات
وواحدة كفتك فلا تجاوز الى أخرى تجىء بمؤلمات
وإن أرغمت صاحبة بضر فأجدر أن تروع بمعرمات
وصن فى الشرخ نفسك عن غوان يزرن مع الكواعب معتمات

فقد يسرى الغوى الى مخاز　　بجنح فى سحائب مثجمات
وما حفظ الخريدة مثل بعل　　تكون به من المتحرمات
يحور ذمارها من كل خطب　　ويمنعها مصائب مقرمات
إذا الغاران غرتهما بجهل　　فدينك بالتورع والصمات
فهذا قول مختبر شفيق　　ونصح للحياة وللممات

٢٠ ـ وقال صردر المتوفى سنة ٤٦٥ يستهدى مدادا ويصف الدواة والقلم والقراطيس (١)

اليك أشكو مشيبا لاح بارقه　　فى فرع دهماء تجرى بالأساطير
كانت مفارقها مسكا مضمخة　　فما لها بدلت منه بكافور
ومقلة عهدت كحلاء مرهها　　طول البكاء على بيض الطوامير
ياحبذا هى والأقلام واردة　　فيها وصادرة سحم المناقير
كأنما كرعت فى ناظرى رشأ　　أو فى سويداء قلب غير مسرور
تحوى القراطيس منها روضة أنفا　　بها مفاخرة الظلماء للنور
فكيف لى بخضاب تسترد به　　من الشبيبة لونا غير مهجور
لو أن صبغته فاز الشباب بها　　لما رمى الدهر فوديه بتغيير
وحاجة النفس إن قلت وإن كثرت　　إذا سمحت بها مثل الدنانير

---

(١) هو الرئيس أبو منصور على بن الحسن من فارس كاتب شاعر لشعره طلاوة وبهجة فى جودة سبك وحسن معنى ، وكان أبوه الحسن يلقب صربعر لشحه فلما نبغ هو فى الكتابة والشعر لقب صردر . ويغلب على ديوانه المدح والنسيب والرثاء .

٢١ ـ وقال الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ يمدح سعد الدولة بن مقلد أحد أمراء الشام ويهنئه بالبرء من مرض كان قد ناله ويعتذر من تأخره عنه فيه [١]

ذم الزمان فما وجدت صروفه ... الا ذلولا فى القياد وريضا
صفحت نوائبه عن ابن مقلد ... كرما فكيف ألومه فيما قضى
ولقد ألم به فأظهر فضله ... والنار لاتشتب حتى تحتضى
راض الزمان فأصحبت أخلاقه ... وأعاد صبغ شبابه لما نضا
من معشر بذلوا النفوس سماحة ... وحموا بيوت المجد أن تتقوضا
عادت بهم ظلم الخطوب مضيئة ... والجدب موشى البرود مروضا
لولا مخالطة الصوارم والقنا ... منع السماح أكفهم أن تقبضا
قوم اذا استنجدتهم لملمة ... ملأت عليك جيادهم رحب الفضا
أسيافهم فى راهط معروفة ... منعت دعائم عزهم أن تدحضا
يامن اذا ما ذاد عن أحسابهم ... يوم النضال أصاب لما أنبضا
خفض عليك فكم ظفرت بغاية ... وكبا وراءك جاهد ماخفضا
بينى وبينك ذمة مرعية ... حاشا مرائر عهدها أن تنقضا
فأصخ الى وللحديث شجونه ... حتى أبثك ما أمض وأرمضا
ماأخرتنى عن جنابك همة ... وجدت من الأهواء عنك معوضا
لكنه قدر أناخ ركائبى ... قسرا وقيد همتى أن تنهضا
وعلمت أنك كالنسيم مخلد ... أبدا وليس يصح حتى يمرضا

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى من شعراء الشام أجاد المديح والنسيب ولكن غلب عليه الأول وله ديوان ليس بالكبير .

فاغفر لخل لو أبيع هواكم بحياته هجر الحياة وأعرضا

٢٢ ـ وقال ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٠ يصف دار تاج الملوك محمود بن نصر المرداسي ومافيها من تصاوير (١)

لك فى العلاء محجة لايهتدى فيها الملوك وحجة لاتدفع
وخصصت فى زمن الحياة بجنة حسن المصيف بها وطاب المربع
دار بها اكتست البسيطة زينة ويزينها منك الامام الأروع
مازال مبصرها يعود بخاطر يشكو الكلال وناظر لايشبع
وترى طيور الجو فى جنباتها بعض محلقة وبعض وقع
وسوابقا ليست تفارق أرضها وكأنها تحت الفوارس تمزع
بالمصلتين صوارما لا تعتدى واللابسين يلامقا لاتنزع
رهط نضوا بيض السيوف وآخر قد جر قوسا ليس فيها منزع
وسهامه لاتستطيع فراقها وحباله أبدا لطير مصرع
وزرافتان أقيمتا كلتاهما ترنو إليك بمقلة لاتهجع
وظعائن تخشى العيون وتتقى نظر المريب فدهرها تتبرقع
أبدا يقاد بها ويبدى عيسها وخدا حثيثا للنواظر يخدع
هل عاقها ماعاينته فلم تسر أو راقها هذا الجناب الممرع
وابن الملوح قائم ومقامه الـبادى طليعة ماتجن الأضلع

---

(١) هو الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الملقب بصفى الدولة أحد شعراء الشام المحسنين وفحولهم المبرزين وكان منقطعا الى آل مرداس الكلابيين أصحاب حلب وله ديوان كبير جله مدح وماجاء من غيره جد قليل أو تبيع .

يشكو إلى البلى الغرام إشارة شكوى لعمرك لم تعنها أدمع
ومواضع فيها كعرضك وضح ثلجية الألوان بل هى أنصع
ومن النضار بها سحائب جمة لزمت أماكنها فما تتقشع
سحب جوامد قد أظلت عارضا تحيا بصيبه البلاد وتمرع
وبدت بأعلاها رياض حاكها حسن اقتراحك لا الغيوث الهمع
روض عن الأفواه يعسر رعيه لكن للأبصار فيه مرتع
فابجح فإنك أوحد الزمن الذى لم يفترق فى أهله ماتجمع

٢٣ — وقال الطغرائى المتوفى سنة ٥١٤ يصف هاجرة وغديرا [١]

وهاجرة سجراء تأكل ظلها ملوحة المعزاء رمضى الجنادب
ترى الشمس فيها وهى ترسل خيطها
لتمتاح ريا من نطاف المذانب
شفعنا بها وجه النهار فراعنا بنقبة مسود القوادم شاحب
فلما اعتسفنا ظل أخضر غاسق على قمع الآكام جون المناكب
وردنا سحيرا بين يوم وليلة
وقد علقت بالغرب أيدى الكواكب

(١) هو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن على الطغرائى نسبة الى الطغرى وهى الطرة التى ترسم فى أعلى الكتب بنعوت الملك لأنه كان يرسمها . وقد لقب بالأستاذ وبالمنشيء لجودة انشائه ووزر للسلطان مسعود السلجوقى بالموصل. وكما كان فخر الكتاب كان نابغة فى الشعر وله ديوان كبير تصرف فيه فى كثير من الفنون وخاصة المديح والنسيب والحكمة والوصف ولاميته المعروفة بلامية العجم ذات مقام عظيم .

على حين عرت منكب الصبح جذبة
من الشرق واسترخى عنان الغياهب
غديرا كمرءاة الغريبة تلتقى بصوحيه أنفاس الرياح الغرائب
اذا مانبال القطر تاحت له اتقى بموضونة حصداء من كل جانب
بمنعرج من ريد عيطاء لم تزل وقائعها يرشفن ظلم السحائب
تقبل أفلاذ الحيا وتكنها
بطامية الأرجاء خضر النصائب
بعيس كاطراف المدارى نواحل فرقنا بها الظلماء وحف الذوائب
نشحن به عذبا نقاحا كأنما مشافرها يغمدن بيض القواضب
رأين جمام الماء زرقا ومثلها سنا الفجر فارتابت عيون الركائب
فكم قامح عن لجة الماء طامح
الى الفجر ظن الفجر بعض المشارب
الى أن بدا قرن الغزالة ماتعا كوجه نظام الملك بين المواكب

٢٤ — وقال ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧ ينسب من بائيته التى سارت بذكرها الركبان (١)

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه
وإيا كما ذاك النسيم فانه اذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلى لو أحببتما لعلمتما محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر فذو الذكر يشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه

---

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي الدمشقي شاعر مجيد طاف البلاد واستقر بفارس يمدح العظماء وأغلب ديوانه مدح ورثاء ونسيب .

غرام على يأس الهوى ورجائه　　وشوق على بعد المزار وقربه
وفى الركب مطوى الضلوع على جوى　　متى يدعه داعى الغرام يلبه
إذا خطرت من جانب الرمل نفحة　　تضمن منها داءه دون صحبه
ومحتجب بين الأسنة معرض　　وفى القلب من إعراضه مثل حجبه
أغار إذا آنست فى الحى أنة　　حذارا وخوفا أن تكون لحبه
فيالسقامى من هوى متجنب　　بكى عاذلاه رحمة لمحبه
أهيم إلى ماء ببرقة عاقل　　ظمئت على طول الورود بشربه
وأستاف حر الرمل شوقا إلى اللوى　　وقد أودعتنى السقم قضبان كثبه
ولست على وجدى بأول عاشق　　أصابت سهام الحب حبة قلبه

٢٥ — وقال الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ يمدح شرف الدين أبا الحسن على ابن الحسن البيهقى (١)

أرى الخلق متفقا فى الهوى　　ومختلفا فى المنى والمنن
فراعى حقوق وراعى حقاق　　وبانى معال وبانى مدن
وإنى لأكره مدح الورى　　ويشغلني عنه هجو الزمن
ولكن دعتني فلبيتها　　خلال أبى الحسن بن الحسن
غريب وإن كان فى داره　　وفقد النظير كفقد الوطن
يقوم الرجاء بتعويلنا　　عليه وبالروح قام البدن

---

(١) هو أبو إسحق ابراهيم بن يحيى الكلبي أقام بخراسان يقول الشعر الكثير الممتع فكان يضرب المثل بجودة شعره . وله ديوان ضخم غلب عليه المدح والوصف وفيه هجاء ونسيب .

على الملا وظهير الندى — إذا لم تمد بضبعى فمن
كلامى سلافة أهل العراق — وصيتى عرافة أهل اليمن
ومن كل هزة ذى همة — تعلمت الريح هز الغصن
بسمعالك رمت التقاط النجوم — وأملت للضرع رد اللبن
وكنت امرأ أرخص النفس فى — هواها وأغلى بنات الفطن
فعرج على أملى قبل أن — يزيد الملام وتقوى الأحن
فأنت المبرز فى الحالتين — بنظم القريض ونظم المنن
ومن جعل الشمس خريته — كفته التماس وضوح السنن

٢٦ – وقال الأرجاني المتوفى سنة ٥٤٤ يهجو أهل زمنه ويصف سوءهم (١)

ومعشر شرهم دان وخيرهم — مكان بدر الدجى من باع معتنق
أدى اليهم خلو الربع من أنس — وطالما كرع الظمآن فى الرنق
قل للذى شخصه فى القصر محتجب — وعرضه الدهر مطروح على الطرق
يشرى الثناء ولا يعطى به ثمنا — وذاك مبلغ رأس الجاهل الحمق
لحاكم الله من أغصان عارية — من الندى والجنى والظل والورق
إذا مدحناهم لم يوقظوا كرما — وإن تركناهم ناموا على حنق
ونستدك اذا ازوروا مسامعهم — بكل منظومة كاللؤلؤ النسق
مدائح لاتقاء الشر تحسبها — رقيا العقارب تكسى أوجه الورق

(١) هو القاضى ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجانى شاعر مكثار فى رقة لفظ وجودة وصف وله ديوان على ضخامته يقال إنه لم يجمع عشر شعره وهو متصرف فى كثير من الفنون ولاسيما المدح والنسيب والوصف .

أعناقكم ملؤها درى وليس لكم | وأحمد الله أدنى المن فى عنقى
وما خاقنا حمامات فنطربكم | سجعا ونملك أطواقا من الحلق
والله لولا محاماتى وإن لؤموا | على الكريمين من نفسى ومن خلقى
اذا لسارت بما يخزيهم كلم | أربها من حواشى مقول نطق
إذا شننت على عرض أو ابدها | أجلين عن قدد منه وعن مزق
تهتز منهن أعطاف الورى طربا | إلا الذين أباتتهم على قلق
كالسيف يحمده غير القتيل به | يوم الجلاد اذا ما احمر من علق

٢٧ ـ وقال الابيوردى المتوفى سنة ٥٥٧ يفتخر بقومه وأوليته [١]

أنا ابن الأكرمين أبا وأما | وهم خير الورى عما وخالا
أشدهم إذا اجتلدوا قتالا | وأوثقهم اذا عقدوا حبالا
وأرجحهم اذا قدروا حلوما | وأصدقهم اذا افتخروا مقالا
وأصلبهم لدى الغمزات عودا | إذا الخفرات خلين الحجالا
وإن دعيت نزال مشوا سراعا | الى الأقران وابتدروا النزالا
يكبون العشار لمعتفيهم | ويروون الأسنة والنصالا
ويثنون المغيرة عن هواها | إذا الوادى بظعن الحى سالا
ويحتقبون أعمارا قصارا | ويعتقلون أرماحا طوالا
على أثباج مقربة تمطت | بهم ورعالها تنضو الرعالا
فجروا السمر راجفة صدورا | وقادوا الجرد راعفة نعالا

---

(١) هو أبو المظفر محمد بن أحمد الابيوردى نسبة الى إبيورد بخراسان وهو سفيانى كان راوية نسابا شاعرا رقيقا قسم أشعاره أقساما منها العراقيات والنجديات ولقى شعره خدمات من الأدباء وأغلبه مديح وفخر ونسيب .

بأيد يستشف الجود فيها تفيد محامدا وتفيد مالا
وهم فتحوا البلاد بباترات كأن على أغرتها نمالا
ولولاهم لمـــا درت بفيء ولا أرعى بها العرب الفصالا
وقد علم القبائل أن قومى أعزهم وأكرمهم فعالا
وأصرحهم إذا انتسبوا أصولا وأعظمهم إذا وهبوا سجالا
مضوا وأزال ملكهم الليالى وأية دولة أمنت زوالا

٢٧ — وقال عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ يصف دارا لآل رزيك (١)

فتمل دارا شيدتها همـة يغدو العسير بأمرها متيسرا
جملتها وتجملت مصر بها لمـا علت بك عزة وتـكبرا
فاقت على الاطلاق كل بنية وسمت فما استثنت سوى أم القرى
وسقيت من ذوب النضار سقوفها حتى لـكاد نضارها أن يقطرا
لم يبد فيها الروض الامزهرا والنخـــل والرمان إلا مثمرا
وبها من الحيوان كل مشهر لبس الوشيج العبقرى مشهرا
وكأن صولتك المخوفة أمنت أسرابهـا ألا تذاع وتذعرا
أنشأت فيها للعيون بدائعا زفت فأذهل حسنها من أبصرا
فمن الرخام مسيرا ومسهما ومنمنما ومدرها ومـــدنرا
والعاج بين الآبنوس كـأنه أرض من الـكافور تنبت عنبرا

(١) هو الفقيه نجم الدين أبو عمارة بن على الحكمى اليمنى العالم الأديب الشاعر المجيد استوطن مصر ونال حظوة كبيرة لدى الخليفة العاضد الفاطمى ووزيره طلائع الدين صالح بن رزيك ومعظم شعره مدح فيهما ولما ملك صلاح الدين صلبه فيمن صلب

قد كان منظرها بهيا رائقا فجعلتها بالوشى أبهى منظرا
وكذاك جيد الظبي يحسن عاطلا ويروقك البيت الحرام مسترا
ألبستها بيض الستور وحمرها فأتت كزهر الورد أبيض أحمرا
فمجالس كسيت رقيما أبيضا ومجالس كسيت طميا أصفرا
لم يبق نوع صامت أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصورا
فيها حدائق لم تجدها ديمة أبدا ولا نبتت على وجه الثرى
والطير قد وقعت على أغصانها وثمارها لم تستطع أن تنفرا
لاتعدم الأبصار بين مروجها ليثا ولاظبيا بوجرة أعفرا
أنست نوافر وحشها بسباعها فظباؤها لاتتقى أسد الشرى
وبها زرافات كأن رقابها فى الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشا تريك من المها روقا ومن بزل المهارى مشفرا
جبلت على الاقعاء من إعجابها فتخالها للتيه تمشى القهقرى

٢٩ — وقال ابن التعاويذى المتوفى سنة ٥٨٣ من مدحة للخليفة الناصر يصف غلمانه الأتراك (١)

القائد الغلب الكماة عوابسا والبيض فى أيمانهم تتبسم

---

(١) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب بديوان المقاطعات ببغداد ولكنه شهر بسبط بن التعاويذى نسبة الى جده لأمه أبى محمد المبارك ابن المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذى لأنه كفله صغيرا . كان شاعر وقته وله ديوان ضخم جمعه وبوبه بنفسه فى المدح والنسيب والصفات والرثاء والهجاء وأكثر هذه الفنون فيه المدح .

سيان سلمهم وحربهم فما ينفك يقطر من أكفهم الدم
ترك إذا لبسوا الترائك أيقنت صم العوالى أنها ستحطم
يزداد إشرقا ضياء وجوههم والجو بالهبوات أربد أقتم
فهم إذا حسروا ظباء خميلة وهم أسود شرى إذا استلأموا
ركبوا الدياجى والسروج أهلة وهم بدور والأسنة أنجم
وكأن إيماض السيوف بوارق وعجاج خيلهم سحاب مظلم
من كل من بجماله نار الهوى وبيأسه نار الوغى تتضرم
فى ثنى بردته قضيب نقى وفى الد م رع المفاضة منه طود أيهم
بشر أرق من الزلال وتحته كالصخر قلب لا يرق فيرحم
يصمى الخلى بطرفه وبكفه يضمى الكمى فجؤذر أم ضيغم
هو تارة للحسن فى أترابه علم وطورا فى الكتيبة معلم

٣٠ — وقال ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر جهاد شرف الدين عيسى بن أبى بكر الأيوبى الروم بثغر دمياط وطردهم منها [١]

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا تحفى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ودينا وان كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا

---

(١) هو شرف الدين أبو العباس محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين ابن عنين الانصارى الدمشقى . كان أديبا واسع الاطلاع ذا مكانة أوصلته الى الوزارة بدمشق وكان ريحانة شعراء عصره ثم لم يأت بعده من هو مثله ومعظم شعره جاء مدحا وهجاء ونسيبا .

عليهم من الماذى كل مفاضة
دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا

وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من فقد الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
رأوا الموت من زرق الأسنة أحمرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
منحنا بقاياهم حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقـــلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنا ولوغا ولكنا ملكنا فأسجحنا
وقد جربونا قبلها فى وقائع تعلم غمر الموت منا بها الطعنا
فكم من مليك قد شددنا إساره وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
وكم يوم حر قد لقينا هجيره بصبر وقر ما طلبنا له كنا
فان نعيم الملك من شظف الشقا ينال وحلو العيش من مره يجنى
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبى عزمه أن يستقل به مغنى
لعمرك ما آيات عيسى خفية هى الشمس للأقصى سناء وللأدنى
سرى نحو دمياط بكل سميدع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا
فأجلى علوج الروم عنها وأفرحت قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
وطهرها من رجسهم بحسامه همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد خلفتها سيوفه لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى
لقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعها فيهم فان عاودوا عدنا

ثانيا ـ حياته

لم يزل الشعر ومازال فى كل عصر مرءانه الصافية التى تنطبع فيها صورته الحقة، لأنه فيض الشعور ونبع الوجدان ولأن رجاله أدق الناس شعورا وأرقهم وجدانا . ولذا رأيته فى الحياة الجاهلية صورة ناطقه لما كان فيها من حس ومعني حتى عده المؤرخون ديوانها وسجلها. ورأيته فى صدر الاسلام قد بقى كما كان فيما بقى وحاد عن الخوض فيما ترك وتلون فيما تلون على شاكلته وغراره . ثم رأيته فى العصر الأموى قد جنح جنوحا قويا الى ما اختطه العصر حتى كاد يكون قصرا على ما كان الغرض الذائع فيه . فجاء فى العصبية والسياسة تأييدا ومعارضة، وفى رفع الأولياء ووضع الخصماء مدحا وهجوا ، ثم بين ذوى البطالة المبعدين عن ميادين العمل غزل إباحة ومتعة من ذوى الجدة المترفين ونسيب تصوف وعفة من ذوى العدم المتقشفين . على أنه فى هذين العصرين الاسلاميين لم يبتعد كثيرا عما اختطه له العصر الجاهلى لأن الدولة فيهما بقيت عربية خالصة نظارة الى عروبتها وبداوتها بقوة حادت بها عن التأثر الكبير بما لسواها . أما فى العصر العباسى الذي اختط عاصمته فى ديار الأعجام واختلط بل امتزج بالفرس أتم امتزاج واتخذ منهم بدل العرب الوزراء وسائر الأعوان حتى تغير بذلك نظام الحياة الى ماشرحنا آنفا فى الجنس والدين واللغة وشئون الاجتماع ، فلم يك مفر للشعر وهو كما ذكرنا مرءاة العصور أن ينطبع كل ذلك فيه ويظهر أثره به ظهورا بينا يخالف ما كان لماضيه فى الألفاظ

والأساليب وفى المعانى والأخيلة ثم فى الاغراض والمقاصد، على ماسترى فى هذا البيان الذى يتناول على ما يسمح المقام تفصيل مايخص الشعر فيما أجملنا سابقا من تأثر اللغة فى هذه النواحى الثلاث

ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان نصيب الشعر فى العصر العباسى من الدقة فى انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى أتم تمثيل ومن التأنق فى صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهمة للغرض فى إحكام وقوة أداء، أوفر من نصيب النثر ذلك لأن الشعر مجال الأناقة والظرف ولغة الحسن والجمال ومأخذ الغناء والاصوات، وكل ذلك يستدعى عذوبة تنسجم مع وجدان الشاعر ويطلب خفة تطير مع خياله كما يطلب نغما يتسق وموسيقية الوزن وجرس القافية الى غير ذلك مما لاوجود له فى نفس الناثر ولا مطلب له فى القول المنثور .

غير أن الشعراء فى هذا العصر استباحوا لأنفسهم فى ناحية الالفاظ والاساليب مالم يقع فيه زملاؤهم السابقون ومن ثم وسمهم العلماء باسم المولدين أو المحدثين(١) وضنوا عليهم أن يكون كلامهم موطن حجة واستشهاد .

فهم قد تصرفوا فى بعض الكلمات العربية تصرفا أخرجها عن معانيها القديمة الى معان لم تك معروفة للعرب ثم كانوا كثيرا مايشتقون

---

(١) المولد لغة اسم لكل من نشأ غير خالص العروبة مفرقا كان أم هجينا، ولكن المولدين أطلقوا فى اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشئوا فى العصر العباسى ولو كانوا عربا خلصا دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصى العروبة . كما أطلق عليهم كذلك اسم المحدثين أى الذين حدثوا بعد الأصيلين

منها بعد هذا الاخراج الى المعنى الجديد ماهو منه كما فعلوا فى كلمة قصف وأصل معناها كسر الغصن الصغير فانهم أطلقوها على اللهو كما قال أبو نواس

لايصرفنك عن قصف وإصباء مجموع رأى ولا تشتيت أهواء

وكما قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد أراد الخروج عن بغداد إلى اليمن لولاية

أيرحل آلف ويقيم إلف وتحيا لوعة ويموت قصف
على بغداد دار اللهو منى سلام ماسجا للعين طرف (١)

ثم استعملوا منها على هذا المعنى كل أنواع المشتقات

وهم قد استعملوا كثيرا من الألفاظ المعربة ولعل كثيرا منها كان من تعريبهم أنفسهم وأمثلة هذا كثيرة جدا . منها لفظ آذريون معرب آذركون أى لون النار لورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو اصفراره ، ولذلك يشبه أسود الوسط منه بكأس عقيق فيه مسك كقول عبد الله بن المعتز

وطاف بها ساق أديب بمنزل كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمل آذريونه فوق أذنه ككأس عقيق فى قرارتها مسك

كما يشبه أصفر الوسط بمدهن ذهب فيه غالية وهى أخلاط طيب سوداء كقوله أيضا

---

(١) أشار الى المعنيين فى العصر المغولى عفيف الدين التلمسانى حيث يقول

تبسم زهر البان عن طيب نشره وأقبل فى حسن يجل عن الوصف
هلموا اليه بين قصف ولذة فان غصون البان تصلح للقصف

سقيا لروضات لنا   من كل نور حاليه
عيون آذريونهـــا   للشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب   فيها بقايا غاليه

والالفاظ المعربة أكثر من أن تحصى ـ وسنذكر منها طائفة كبيرة فى التعريب بعد ـ وقد كثر استعمال الشعراء لها وشاع ·

وهم قد نقلوا بعض الالفاظ الأعجمية على حالها من غير تعريب تظرفا وتملحا كلفظة آب سرد بمعنى الماء البارد فى قول العمانى

لما هوى بين غياض الأسد   وصار فى كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد

وكلفظة پر بمعنى ملآن فى قول ابراهيم الموصلى

اذا ماكنت يوما فى شجاها   فقل للعبد يسقى القوم پرا
فان السقى مكرمة ومجد   ومدفأة إذا ماخفت قرا

وقد ذاع استعمال كلمتى نيروز معرب نوروز ومهرجان منقولة كما هى على ألسنة جمهرة الشعراء ولا سيما فى البيئات الفارسية[١] قال عبدالصمد ابن بابك يمدح الصاحب بن عباد

«١» كلاهما عيد من أعياد الفرس . فالنيروز ستة الأيام الأوائل من أول شهور سنتهم «أفرودين» وهم يزعمون أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه الدوران ويسمون اليوم السادس منها النيروز الكبير لأن الأكاسرة كانوا ينصرفون فيه الى مجالس أنسهم مع ظرفاء خواصهم بعد جلوسهم لرد المظالم فى أيامه الخمسة الأولى وهو يتفق واليوم المعروف الآن بشم النسيم . والمهرجان يبدأ فى منتصف شهرهم السادس «مهرماه» ويوافق آخر الخريف وهو ستة أيام كذلك

لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عباد سقى المزن نشره فجاد برشاش من الوبل ساجم

وقال أيضا يمدح فخر الدولة بن بويه ويهنئه بالمهرجان

أيا شاهنشاه صل الأماني بتجديد البشائر والتهاني
فقد حزت السعود وجاء يحدو سبوت الدهر سبت المهرجان

ثم هم قد استخدموا كثيرا من ألفاظ العلوم والفنون والصناعات ومصطلحاتها. قال أبو الفتح البستي

عزلت ولم أذنب ولم أك جانيا وهذا لانصاف الوزير خلاف
حذفت وغيري مثبت في مكانه كأني نون الجميع حين يضاف

وقال الصابي في سابور وزير بهاء الدولة وكان قد صرف عن الوزارة ثم أعيد إليها

قد كنت طلقت الوزارة بعدما زلت بها قدم وساء صنيعها
فغدت بغيرك تستحل ضرورة كيما يحل الى ثراك رجوعها
فالآن قد عادت وآلت حلفة ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

وقال عبد الوهاب بن محمد البغدادي المتوفى بمصر سنة ٤٢٢

ونائمة قبلتها فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد

وقال ابن الرومي :

آخرها يسمى المهرجان الكبير. فالنيروز استقبال للربيع والمهرجان استقبال للشتاء وهما خير فصول السنة

ماعذر معتزلىّ موسر منعت كفاه معتزليا معسرا صفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبطه إن قال ذلك فقد حل الذى عقدا

وقال أبو نصر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٥٣ :

ولى غلام طال فى دقة كخط اقليدس لاعرض له
وقد تناهى عقله خفة فصار كالنقطة لاجزء له

وقال أبو الحسن بن أبى الغنائم المتوفى سنة ٥٦٠

تعسى الزمان فللغرام قضية ليست على نهج الحجا تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتفنى دونه الأجساد

وقال كمال الدين بن النبيه المتوفى سنة ٦٠٨

وبى هندسى الشكل يسبيك لحظه وخال وخد بالعذار مطرز
ومذ خط بيكار الجمال عذاره كقوس علمنا أنما الخال مركز

ولم يتحرز شعراء هذا العصر وقد ابتذلوا الشعر بألفاظ العلوم ومصطلحاتها، أن يجعلوا منه لغة تأليفية فى كثير من العلوم والفنون من نحو وفقه وتاريخ وطب وغيرها مما ألفوا فيه منظومات يسهل على الناشئين حفظها وتحصيل مسائل العلوم بتعليقها وهذه ظاهرة بدت منذ نظم أبان كلية ودمنة واستمرت تتزايد وتنمو حتى بلغت مبلغها فى نهاية العصر. ومن مثلها فى تلك النهاية ملحة الاعراب للحريرى وقد سبقت الاشارة اليها .

هذا وقد انحدر الشعراء الى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاعة والمجانة وسيتضح ذلك حيث الأغراض التى تستدعيه كالهجاء والغزل والمجون .

على أنهم قد أحسنوا الاحسان كله فى استخدام ألفاظ التشبيه والمجاز والكناية مما ستراه حيث القول على الابداع فى التصوير والاغراب فى الخيال من الكلام على المعانى والأخيلة بعد، كما أكثروا من محسنات البديع على اختلاف أنواعها وبخاصة أنواع الجناس وسنكتفى بالتمثيل له لأنه أظهر المحسنات فى اللفظ والاسلوب.

فمن الجناس المماثل وهو المتفق اسمية وفعلية قول ابن الرومى.

للسود فى السود آثار تركن بها ... وقعا من البيض يثني أعين البيض

ومن المستوفى وهو المختلف اسمية وفعلية قول البستى

فقال لى دعني ولاتؤذنى ... الى متى أجرى بلا أجر

ومن المركب وهو المتفق لفظا وخطا قول أبى الفضل الميكالى

تفرق الناس فى أرزاقهم فرقا ... فلابس من ثراء المال أوعارى

كذا المعايش فى الدنيا وساكنها ... مقسومة بين أدمات وأوعار

من ظن بالله جورا فى قضيته ... افتر عن مأثم فى الدين أوعار

ومن المفروق وهو المتفق لفظا لاخطا قول البستى

كم من أخ قد هدمت أخلاقه ... فى آخر ما قد بنى فى أول

يرمى سهاما إن أسر المقت لى ... بالكيد لايقصدن غير المقتل

ومن المطرف وهو المختلف بزيادة حرف قول البحترى.

فان صدفت عنا فربت أنفس ... صواد الى تلك الوجوه الصوادف

ومن المذيل وهو المختلف بأكثر من حرف قول بعض العباسيين

فيالك من حزم وعزم طواهما ... جديد الردى تحت الصفا والصفائح

ومن المشتق وهو ما يرجع الى أصل واحد قول أبى تمام

وأنجدتم من بعد إتهام داركم   فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

ومن المطلق وهو ما لا يرجع الى أصل واحد قول أبي نواس .

فما السلاف ازدهتنى بل سوالفه   ولا الشمول دهتنى بل شمائله

ومن المحرف باختلاف الشكل قول المعرى

لغيرى زكاة من جمال فان تكن   زكاة جمال فاذكرى ابن سبيل

ومن المضارع وهو مااختلف بحرف مقارب المخرج قول الرضى

لايذكر الرمل الا حن مغترب   له الى الرمل أوطار وأوطان

ومن اللاحق وهو مالا تقارب فى حرفيه قول البحترى

لست عن ثروة بلغت مداها   غير أنى امرؤ كفانى كفافى

ومن اللفظى وهو مااختلف بحرف مقارب الخط قول الأرجانى

وبيض الهند من وجدى هواز   باحدى البيض من عليا هوازن

ومن جناس العكس أى القلب قول ابن نباتة السعدى فى الامير بهرام

قيل كل القلوب من   رهب الحب تضطرب

قلت هـــذا تخرص   قلب بهرام مارهب

ومن جناس التلفيق أى التركيب من كلمتين قول ابن عنين

خبروها بأنه ما تصدى   لسلو عنها ولو مات صدا

والقول فى الجناس يطول .

وقد حلا لكثير من الشعراء فى هذا العصر أن يودعوا أشعارهم تصرفات لفظية تدل على تملكهم زمام الصناعة الى حد كبير .

ومن أعلامهم فى ذلك، الحريرى الذى تعدى بتلاعبه فى هذا، ميدان النثر الى الشعر، فأتى بالعجب العجاب

قال من مقطعة عاطلة الأبيات

أعدد لحسادك حد السلاح وأورد الآمل ورد السماح

وقال من أخرى حاليتها

شغفتني بجفن ظبي غضيض غنج يقتضى تغيض جفنى

وقال من ثالثة إحدى كلماتها مهملة والاخري معجمة

اسمح فبث السماح زين ولا تخب آملا تضيف

وقال من رابعة خطية الجناس

زينت زينب بقد يقد وتلاه ويلاه نهد يهد

وقال من خامسة مطرفته

سم سمة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه

وهكذا مما جاز فنون البديع المعروفة على كثرتها الى ماعد ابتكارا واختراعا .

ومما ظهر واضح الأثر بألفاظ الشعر وأساليبه فى العصر العباسى ما اخترع فى أوزانه وقوافيه وهذى كلمة عما جد فى كل منهما.

الأوزان — حصر الخليل بن أحمد أوزان الشعر التى نظم عليها العرب فى خمسة عشر بحرا معروفة وأجهد تلميذه الأخفش نفسه أن يجد غيرها فلم يظفر الا ببحر واحد سماه المتدارك لأنه تدارك به على الخليل.

وقد أثبت الاستقراء أن كل ماقيل من الشعر الى آخر العهد الاموي لايخرج بحال عن هذه البحور . وبالرغم من أن جمهرة الشعراء فى العصر العباسى وبعده بقوا ينظمون عليها ، قد نظم بعض المولدين على أوزان غيرها جريا وراء الأنغام الموسيقية الجديدة التى نقلتها اليهم

الحضارات المختلفة أو رغبة فى عدم التقيد بالقديم وولوعا باختراع جديد فى الاوزان كما اخترعوا فى كل شىء للشعر غيرها .

وقد جاء هذا الجديد نوعين

أحدهما الأوزان المأخوذة من البحور بالقلب أو التحريف

فمما جاء بالقلب، المستطيل مقلوب الطويل وأجزاؤه « مفاعيلن فعولن »أربع مرات مثل :

لقدهاج اشتياقى غرير الطرف أحور
أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

والممتد مقلوب المديد أى «فاعلن فاعلاتن»أربع مرات مثل .

صاد قلبى غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد منى نفورا

والمتئد مقلوب المجتث أى «فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن» مرتين مثل .

كن لأخلاق التصابى مستمريا ولأحوال الشباب مستحليا

وقد يقع القلب فى تفاعيل البحر الواحد على صورتين تأخذ كل صورة اسما كما حدث فى المضارع وأجزاؤه « مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن » مرتين فقد أخرت فيه فاع لاتن باسم المنسرد مثل

على العقل فعول فى كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى

وقدمت باسم المطرد مثل

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكانى من الوجد

ومما جاء بالتحريف، المتوافر المأخوذ من محرف الرمل وهو «فاعلاتن» ست مرات فانه أبدل بنونها الساكنة كافا متحركة وحذف من تفعيلتى الضرب

والعروض السبب فصار وزنه «فاعلاتك فاعلاتك فاعلن » مرتين مثل :

ما وقوفك بالركائب فى الطلل ما سؤالك عن حبيبك قد رحل
ما أصابك يافؤادى بعـــدهم أين صبرك يافؤادى ما فعـــل

والثانى ما جاء على أوزان غير أوزان البحور وهو فنون سبعة، ثلاثة لا يجوز فيها اللحن مطلقا وهى الدوبيت والسلسلة والموشح، وثلاثة ماحونة دائما وهى الزجل والكان وكان والقوما ، وواحد كالبرزخ بين هذه وتلك يكون معربا وماحونا على ألا يجتمع الاعراب واللحن فى دور واحد منه وهو المواليا

فالدوبيت أصله فارسي يأتى بيتين بيتين ومعني دو اثنان وهو يسمى الرباعى أيضا لأن فى البيتين أربعة أشطر وقد اقتبسه البغداديون ونظموا منه على أوزان أشهرها « فعلن متفاعلن فعولن فعلن » مرتين مثل

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجد فاذكر ولهى وماجناه البعد
قد كنت أقاسى الصد حتى رحلوا ياليتهم عادوا وعاد الصـــد

والسلسلة من مخترعات البغداديين ووزنه « فعلن فعلاتن متفعلن فعلاتان » مرتين ومنه .

يامعتدل القد إن صبرى قد بان والدمع لخافى الغرام أظهر اذ بان
جددت شجونى وقد كحلت جفونى بالسهد فبينى وبين نوى شتان

والموشح نشأ أول مانشأ بالاندلس ومنها انتقل الى المشرق فى عصر بنى بويه . وهو ذو أوزان كثيرة منها «فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن» مرتين وعليه موشحة ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ ومطلعها

كللى ياسحب تيجان الربى بالحلى واجعلى سوارك منعطف الجدول

ومنها « مستفعلن فاعلن فعيل » مرتين مثل .

يا جيرة الأبرق اليمان　　هل الى وصلكم سبيل

والزجل نظم العوام بالعامية على منوال الموشح وليس فى هذه الفنون أكثر أوزانا منه مثل

الفراق نار والوصال جنه　　والخلائق بعضهم يعشق
ولهيب الهجر يتوقد　　والوصال م الملاح يشتق

وقد تقصر أشطاره الثانية عن الأولى مثل

عن محرم شرابنا صمنا　　ونفطر بالثمار
حين وجدنا سفرجل البستان　　يذهب لِ صفرار

والكان وكان نظم اخترعه أهل بغداد واستعملوه فى النصيحة والوعظ بحكاية ماكان وكان ولذلك أخذ هذه التسمية ووزنه واحد وشطره الأول دائما أطول من الثانى ومنه قول بعضهم .

ياقاسى القلب مالك　　تسمع وماعندك خبر
ومن حرارة وعظى　　قد لانت الأحجار
أفنيت مالك وحالك　　فى كل مالا ينفعك
ليتك على ذى الحال　　تقلع عن الاصرار

والقوما نظم اخترعه البغداديون أيضا ليغنوا به الناس فى رمضان كى يقوموا للسحور ومنه قول بعضهم

يامن جنابه شديد　　ولطف رأيه سديد
مازال برك يزيد　　على أقل العبيد
ولا عدمنا نوالك　　فى صوم فطر وعيد

أما المواليا فقد نشأ كما يقولون على لسان جارية للبرامكة كانت ترثيهم به وتقول يا مواليا وهو كما قلنا دون سائر الفنون المذكورة يأتى عاميا ويأتى صحيحا. فمن عاميه قول بعضهم

حلف على كجاره أن يقاطعنى وصد عنى وأقسم ما يطاوعنى
كم ذا يصد وكم يرجع يصدعنى إن كنت آنا المطلق لا يراجعنى

ومن صحيحه قول آخر:

ياطاعن الخيل والأبطال قد غارت
والمخصب الربع والأمواه قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت
والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

القوافى — التزمت العرب القافية فى القصيدة الواحدة كما التزمت فيها الوزن فلم يغيروا حرف القافية فى قصيدة مهما طالت بل لم يحيدوا عن نظم راعوها فى مجموع الحروف التى تشملها القافية بنهاية البيت — وهى من آخر حرف ساكن فيه إلى أول حرف متحرك قبل ساكن بينهما مع دخول هذا المتحرك فيها — وقد استمر ذلك مراعى الى نهاية العصر الاموى كما كانت الحال فى الأوزان ثم أفلت الشعراء بعده من القافية كما أفلتوا من الوزن لأسباب قد تتحد مع بعض السابقة كالرغبة فى النزوع عن القديم الى جديد، وقد تختلف كالفرار من تضييق الحرف الواحد فى القافية لكل قصيد إذ هذا من نصيب القافية وحدها كما كان تنويع الوزن للغناء من نصيب الاوزان. على أنهم فى هذا الخروج عن القافية الواحدة لم يوسعوا المجال كما وسعوه فى الأوزان فانحصر فيما يأتى:—

١ — المزدوج وهو مااقتصرت فيه التقفية فى كل بيت على عروضه وضربه دون ماجاورهما من الأبيات . وأهم ماحمل القوم عليه إطالتهم الباسقة فى نظم قواعد العلوم والكتب وطوال الموعظ وغيرها وقد عرفت ماكان من نظم أبان بن عبد الحميد لكليلة ودمنة ووضع الحريرى ملحته فى قواعد الاعراب وكلاهما من المزدوج. ولأبى العتاهية مزدوجة سماها ذات الحكم والامثال اشتملت على أربعة آلاف مثل منها قوله :

لكل مايؤذى وإن قل ألم ماأطول الليل على من لم ينم

ولبشر بن المعتمر مزدوجة فى فضل على كرم الله وجه على الخوارج يقول فيها عنهم .

ماكان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن

غر مصابيح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأعارب

وللصابى مزدوجة كتب بها الى ابى الفرج الببغاء فى وصف الببغاء أولهـــا .

ألفتها فصيحة مليحه ناطقة باللغة الفصيحه

وللببغاء رد عليه بمزدوجة أخرى يقول فيها .

تميزت فى الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان

ولابن المعتز مزدوجة فى الشراب يقول فيها.

لى صاحب قد لامنى وزادا فى تركى الصبوح ثم عادا

ولأبى فراس الحمدانى مزدوجة فى اللهو بالصيد يقول فيها

ماالعمر ماطالت به الدهور العمر ماتم به السرور

وللحسن بن وكيع مزدوجة فى فصول العام أولها .

ياسائلى عن أطيب الدهور   وقعت فى ذاك على الخبير

٢ــ المشطر وهو أن تتحد القافية فى أشطار القصيدة أربعة أربعة أو أكثر فتسمى مربعة أو مخمسة وهكذا كقول الحسن بن وكيع المذكور من مربعة له

رسالة من كلف عميــــد   حياته فى قبضة الصدود
بلغه الشوق مدى المجهود   مافوق مايلقاه من مزيد
جار عليه حاكم الغرام   فدق أن يدرك بالأوهام
فلو أتاه طارق الحمام   لم يره من شدة السقام

٣ــ المسمط وهو أن يؤتى بأقسمة من قافية واحدة بعدها قسيم من قافية أخرى ثم يؤتى بمثل تلك الأقسمة عددا ووزنا من قافية أخرى وبعدها قسيم من قافية القسيم المذكور ووزنه وهكذا من المخالفة فى الأقسمة المتعددة والاتحاد فى القسيم المفرد ثلاثة كانت الأقسمة كما تقدم التمثيل لذلك صفحة ٤٧ أم أكثر كقول الأمير تميم بن المعز

دم العشاق مطلول   ودين الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول   ومبدى الحب معذول
وإن لم يصغ للأثم

وأحور ساحر الطرف   يفوق جوامع الوصف
مليح الدل والظرف   جنت ألحاظه حتفى
فمن يعدى على الظالم

وقد يبتدأ ببيت مصرع غير الاقسمة يأتى عليه القسيم الملتزم مثل

توهمت من هند معالم أطلال
عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى

مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السما كين هطال

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق ميله
فجعت به فى ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على سرباله نضح جريال (١)

كما قد يبتدأ ببيت غير مصرع قبل الأقسمة يلتزم مثله بعد كل أقسمة كقول بن المعتز

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت فى غرته وبشرب الراح من راحته كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع
ما لعينى غشيت بالنظر أنكرت بعدك ضوء القمر وإذا ماشئت فاسمع خبرى
غشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى (٢)

---

(١) تعزى هذه الابيات فى بعض الكتب الى امرىء القيس وهى نسبة غير مسلم بها وغير متفقة مع طبيعة الاشياء

(٢) بهذا الذى ذكرناه من تغير فى لفظ الشعر وأسلوبه نكون قد تناولنا كل ماعددناه من تغير حياة اللغة جملة فى ألفاظها وأساليبها صفحة ٤٩ ماعدا الشغف باستعمال ألفاظ القرآن والتوسع فى ألقاب التعظيم والتغالى فى الاطناب لأن هذه الثلاثه كانت أظهر فى النثر منها فى الشعر وإن لم يخل بعض الشعر منها .

ناحية المعانى والأخيله

لقد كان نضج العقول واتساع الأفكار بما حدث فى العهد العباسى من تدوين العلوم وترجمتها عاملا مهما على تفسيح ميادين المعانى وتفجير ينابيعها. وكان وضع القصة المعتمدة على الفرض والتخيل، ومظهر الحضارة المصحوبة بمحاسن الطبيعة وجمالها، منميا لملكة التصور ومكثرا لأنواع الأخيلة. كما كانت الملاحاة الدائبة بين الجماعات من جنسية ومذهبية، والخصومة القائمة بين الزهاد والمستمتعين، من أقوى البواعث على نشر المباحثة والمناظرة وخلق القدرة على الجدل والسفسطة فى النفوس، فلم يعد الناس يتقبلون القضايا مجردة من الحجة والدليل وكل هذا عاد على المعانى والأخيلة بتقدم واضح ورقى كبير أجملنا مظاهره حيث الكلام على ما كان لحياة اللغة فى ذلك من نصيب وها نحن أولاء مفصلوه فى الشعر تفصيلا يعتمد أول ما يعتمد فى التمثيل له على ما أسلفنا من نماذج فيه

١ — استنباط الدقيق والجديد من المعانى — جال الشعراء فى هذا الميدان جولات بعيدة المدى ظهر أثرها متشعب النواحى فى كل ما عالجوا من فنون الشعر حتى لقد تزاحم الكثير منها فى القصيدة الواحدة تزاحما كان غير معروف. كما فعل ابن الرومى فى قصيدته السالفة

فقد طالت القصيدة جدا فى العصر العباسى الثالث وكثرت فيه الالقاب كما رأيت فى بعض ما مضى، ووجد من الشعراء منذ العصر الاول من أقتبس ألفاظ القرآن كأبى العتاهية إذ يقول

المرء آفته هوى الدنيا   والمرء يطغى كلما استغنى

التي تصدى فيها لهجاء إبراهيم بن المدبر حيث جعل ثناء رواده عليه شركا ليستميحه غيرهم فيخيب خيبتهم،وحيث جعل نكوص هجائه عنه لنجاسة لؤمه لا لأنه جنة، وحيث جعل هذا الهجاء لباسا يضنى روحه ويشقيها انتقاما للأبراد التي طالما أشقاها جسده ، وهكذا من سائر المعانى الدقيقة التي عالجها. وكما فعل الرفاء فى رثائه صديقه الفتى المصلوب من بنى شيبان إذ تصوره بدرا مفقودا مع أنه غير آفل،وإذ يسوى بين ثنى عطفه فى غلالة الصلب وسابغة الحرب،وإذ جعله معرى كالسيف منتضى،واذ اعتقد أن القدر أحله الهواء ضنا به عن ضنك الثرى، الى آخر ما عالج (١) وكما فعل الصابى فى قصيدته التي يعزى بها نفسه وهو فى السجن،من تفضيل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ومن جعله

---

(١) معظم ماوقع من معان فى المصلوبين جاء جديدا لأن التمثيل بقتلاه لم يكن شائعا ومن أسير القصائد فيه قصيدة ابن الانبارى فى ابن بقية الوزير الوزير ومنها :

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق تلك احدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا ... وكلهم قيام للصلاة
ولما ضاق بطن الارض عن أن ... يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الاكفان ثوب السافيات

ومن جيده أيضا قول عمارة اليمنى

ومد على صليب الصلب منه ... يمينا لاتطول الى شمال
ونكس رأسه لعتاب قلب ... دعاه الى الغواية والضلال

هذه النائبة أثرا لمنازلته الدهر وتلك اليد ضده والسعاية به أثرا لمده يده الى النجم وسعيه نحو المجد، الى آخر ماتناول وهو كثير. ولغير هؤلاء فيما تقدم من نماذج تناول دقيق للمعانى وإن لم يك فى القصيدة بالكثير. كالذى رد به التهامى تهمة حبيبته إياه أنه نسيها بجديد ،من أنها أخذت حواسه وعقله فكيف يعشق لو أراد ، وكالذى ألم به مهيار فى تهنئته ابن على المغربى بالنيروز وهو يهنئه بالوزارة ، وكالذى عالجه الغزى فى مدحه البيهقى من خلطه مدحه بأنه يكره مدح الناس،فى شبه تخويف عما قد يحمله عليه المطل من هجاء ،ثم كالذى قاله الارجانى فى هجو أهل زمنه وسوء حالهم من عدم إعطائهم اذا مدحوا وحنقهم اذا لم يمدحوا.

وهذه طائفة ثانية من المعانى الدقيقة التى تظهر عليها الجدة مع دقتها.

قال بشار ينسب العشق الى الاذن كالعين

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الاذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال فى إهلاك ماله بعدوى كفه من كف ممدوحه

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

وقال أبو نواس يشبه نفسه وقد حرم عليه الخليفة الشراب ـ فكان يمدح الخمر ولا يشربها ـ بقعدى الخوارج يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحكيما
كل عن حمله السلاح الى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقيما

وقريب من هذا قول الغزى

أنا فى الحلة الغداة كأنى علوى فى قبضة الحجاج

وقال ابن المعتز جاعلا تحكم الضيف بربعه أنفذ من تحكم آبائه على الأمم

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائى على الأمم

فكل مافيه مبذول لطارقه ولا زمام له الا على الحرم

وقال أبو فراس فى أثر سنان أصاب خده فعز ذلك على حبيبته

لما رأت أثر السنان بخده ظلت تقابله بوجه عابس

خلف السنان به مواقع لثمها بئس الخلافة للمحب البائس

حسن الثناء بقبح ماصنع القنا يوم الطعان بصحن خد الفارس

وقال ابن الرومى يحلل لنفسه عدم تغاضيه عن خطأ صديقه

ياأبا القاسم الذى كنت أرجو ه لدهرى قطعت متن الرجاء

أنت عينى وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقذاء

وقال فى الحبيبة تقتل بنظرها وإعراضها

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم

فالموت إن نظرت وان هى أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم

وقال أبو تمام يجعل نغمة الطالب تعويذة لعطايا الممدوح كيلا تجن

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وقال يذكر فضل الحاسد على المحسود

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ماكان يعرف طيب عرف العود

وقال يذكر فضل قبور بنى مالك على الثرى

بنى مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لكم مستشرفات المعالم

غوامض قيد الكف من متناول　　وفيها علا لايرتقى بالسلالم

وقال يجعل المجد شفيعه فى عدم التقاضى

واذا المجد كان عونى على المر　　ء تقاضيته بترك التقاضى

وقال المتنبى يذكر أنه رأى الماضين من فلاسفة وملوك فى ابن العميد

من مبلغ الأعراب أنى بعدها　　جالست رسطاليس والاسكندرا

وسمعت بطليموس راوى كتبه　　متملكا متبديا متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما　　رد الاله نفوسهم والأعصرا

نسقوا كما نسق الحساب مقدما　　وأتى فذالك اذا أتيت مؤخرا

إلى غير ذلك مما لايتناوله إحصاء

هذا ـ ولقد كانت رغبة المحدثين فى تدقيق المعانى حاملة لهم على استخراج المكنون وتجلية المستور فجاءت لذلك لابسة ثوب الجدة والابتكار ولعلهم لهذا كانوا اذا ألموا بقديم جعلوا لأنفسهم فيه ميزة أو يدا بجديد وهذه ناحية حافلة بالأمثال المشرفة لكثير منهم فى كثير من أبواب الأدب ولا سيما باب السرقات. وقد ذكر منها طائفة صالحة أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين وهذا بعض ماجاء فيه وفى غيره كالعمدة لابن رشيق

قال أبو نواس وله فى هذا الباب باع طويل

واذا المطى بنا بلغن محمدا　　فظهورهن على الرجال حرام

فكان أوثق وأسخى وأرق من الفرزدق حيث يقول

متى تأتى الرصافة تستريحى　　من الأنساع والدبر الدوامى

وقال فى محاسن حبيب باك

يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

فكان فاضلا الأسود بن يعفر بالزيادة والرقة إذ يقول

يسعى بها ذو توأمين كأنما قنأت أنامله من الفرصاد

كما كان معبد الطريق لأن يزيد عليه غيره كلوأواء الدمشقى فى قوله .

وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

وقال فى دقة أخذ :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فكان بيته أعم معنى وأشد مبالغة من بيت جرير

اذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

ومثل هذا فى دقة الأخذ قول أبى تمام

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر

فانه جعل الموت فى الحرب انتصارا كما جعل ابن الوردى اجتهاده عذرا فى قوله

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو ينال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال فى تمنى الطير غزوة ممدوحه لتأكل من لحم قتلاه

تتمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره

فكان له فضل الايجاز والايضاح على النابغة حيث يقول .

اذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله اذا ما التقى الجيشان أول غالب

وقال فى ذلك مسلم

قد عودا الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وقال فيه أبو تمام

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

ثم جاء المتنبي ففضل الجميع بما زاد فيه اذ يقول

يفدى أتم الطير عمدا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم

وما ضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم

وقال أبو تمام فى إعراض ممدوحه عن الدنيا للسؤدد

يصد عن الدنيا اذا عن سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد

فكان قوله بزيادته أقوى من قول المعذل بن غيلان .

ولست بنظار الى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وقال منصور النميرى

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها لخلتك إلا أن تصد ترانى

ففضل النابغة حيث يقول

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت ان المنتأى عنك واسع

وهذا معنى أكثر فيه المحدثون غير منصور فأجادوا قال سلم الخاسر .

ولو ملكت عنان الريح أصرفها فى كل ناحية مافاتك الطلب

وقال البحترى .

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب

وقال على بن جبله .

ومالا مرىء حاولته منك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع

بلى هارب لايهتدى لمكانه ظلام ولاضوء من الصبح ساطع

على أنا لانغمط المتقدمين حقهم فى أن لهم من المعانى مالم يزد فيه المتأخرون قلوا أم كثروا كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحاهم سواء ذو العمامة والخمار

فقد أخذه المتنبي دون زيادة إذ يقول

ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

وكقول عمر بن أبى ربيعه .

لقد دب الهوى لك فى فؤادى دبيب دم الحياة الى العروق

فقد أخذه مسلم كما هو فى قوله

تجرى محبتها فى قلب عاشقها جرى السلامة فى أعضاء منتكس

وأخذه أبو نواس كذلك ولكن نقله الى الخمر بقوله

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

٢ــ الاكثار من ضرب المثل وحسن التعليل ــ كان من أهم الدواعى الى طلب الأمثال حاجة العقلية الجديدة الى شفع القضايا بما يوضح معناها ويؤيد دعواها وقد ساعد القائلين على ضربها ما انتشر فى البيئات الجديدة منذ الصدر الاول من ترجمة الاقاصيص فى الحكم والامثال ووضع قواعد العلم فى مختلف الفنون ولذلك نعد منها ماسبق آنفا فى استخدام مصطلحات العلوم . وأنت اذا رجعت الى ما أسلفنا من نماذج ألفيتها كثيرة الانبثاث فى ثناياها لابن الرومى والمتنبى وأبى فراس والصابى والخفاجى والأرجانى وابن عنين فارجع الى ما اختير لهم تجدها بارزة فيه .وهذه طائفة ثانيه .

قال أبو تمام

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال

إن ريب الزمان يحسن أن يهـدى الرزايا الى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابى

وقال

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وقال

يأيها الملك النائى برؤيته وجوده لمراعى جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ان السماء ترجى حين تحتجب

وقال البحترى

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال

دان على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

وقال

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن درارىّ الكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيهب

وقال ابن الرومى

وما الحسب الموروث لادر دره بمحتسب الا بآخر مكتسب
اذا العود لم يثمر وإن كان شعبة من المثمرات اعتده الناس فى الحطب

وقال

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد
والا فما يبكيه منها وإنها لأحسن مما كان فيه وأرغد

وقال المتنبى

وشبه الشىء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام

وقال قابوس بن وشمكير

ياذا الذى بصروف الدهر عيرنا هل عاند الدهر الا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفى السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وقال ابن المعتز

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من شدة الفتك نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

وقال ابن نباتة السعدى من وصف فرس أغر محجل

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير زهوا ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا

وقال ابن قلاقس الاسكندرى

مضى معهم قلبى فلله دره | لقد سرنى إذ مرمع من يسره
وأطول من هجر الحبيب وصبونى | ويوم النوى ليلى وهمى وشمره
وليس دما ماء الجفون وإنما | فؤادى بماء الدمع قد ذاب جمره

وقال ابن شبل البغدادى

يفني البخيل بجمع المال مدته | وللحوادث والايام مايدع
كدودة القز تبنيه ويهدمها | وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

٣ــ استخدام البراهين العقلية والآراء الفلسفية ــ لم تكن شاعرية الشاعر قبل العصر العباسى تعتمد منه على ثقافة علمية ولذلك بقى شعره فطريا ليس فيه أثر من تثقيف وتعليم . أما فى العصر العباسى فقد انخرط الشعراء فى زمرة العلماء وأصبح منهم فى كل ناحية أعلام وتأثر شعرهم من هذه الناحية تأثرا شديدا فكان ميدانا لأفكارهم العلمية ومجالا لآرائهم الفلسفية وظهر فيه العقل المثقف بمظهر الغلبة على العقل الفطرى. وكان المجتمع الجديد بما فيه من حوار ونقاش فى الدين وغير الدين منميا لهذه الظاهرة دافعا لها الى الامام. ولعل أول خطوة فى سلوك هذه السبيل كانت القدرة على صوغ الحكمة بعد ضرب المثل وإحسان التعليل على ألسنة كثير من شعراء العصر الأول كبشار وأبى العتاهية، وبعدها كان اقتباس بعض المعانى الفلسفية لشيوع العلوم القديمة بين المسلمين بعد ترجمتها منذ عهد المنصور الى عهد المأمون . وقد ظهر هذا الاقتباس على ألسنة بعض شعراء العصر الثانى كابن الرومى ولما جاء العصر الثالث وفاضت فيه العلوم الفلسفية فيضا اغترف الشعراء منها اغترافا ظهر غزيرا على لسان أول شعرائه المتنبى ثم زاد غزارة وعمقا بعقلية

فيلسوفه واخر شعرائه المعرى. ولكن فى العصر الرابع بعد هذا المعين على الشعراء فعجزوا عن الامتياح. ومن حاول منهم السقيا على طول الرشاء أبعد التفكير ووقع فى الخفاء.

وهذى بعض أمثلة لمن ذكرنا من الشعراء.

قال بشار فى الحكم القريبة من وحى الفطره

إذا كنت فى كل الامور معاتبا ‏ ‏ صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه ‏ ‏ مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ‏ ‏ ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ‏ ‏ كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال فى فلسفة الحيرة وكان من أصحابها

طبعت على مافى غير مخير ‏ ‏ هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد ‏ ‏ وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر ‏ ‏ وأمسى وما أعقبت الا التعجبا

وقال أبو العتاهية وكانت فلسفته فى الزهد والدين ـ وله فى ذلك الأرجوزة التى قلنا آنفا إن بها أربعة آلاف مثل ـ يعظ ويذكر

ياعجبا للناس لو فكروا ‏ ‏ وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا الى غيرها ‏ ‏ فانما الدنيا لهم معبر
الخير مما ليس يخفى هو الـ ‏ ‏ ـمعروف والشر هو المنكر
والموعد الموت ومابعده الـ ‏ ‏ ـحشر فذاك الموعد الاكبر
لافخر الا فخر أهل التقى ‏ ‏ غدا اذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى ‏ ‏ والبر كانا خير ما يذخر

عجبت للانسان فى فخره وهو غدا فى قبره يقبر
مابال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لايملك تقديم ما يرجو ولاتأخير ما يحذر
وأصبح الأمر الى غيره فى كل مايقضى ومايقدر

وقال ابن الرومى ـ وكان شغوفا بمخالفة المألوف فى فلسفته ـ (١) يمدح الحقد ويحسنه.

وخير سجيات الرجال سجية توفيك ماتسدى من القرض بالقرض
ولاعيب أن تجزى القروض بمثلها بل العيب أن تدان ديناولا تقضى
ولولا الحقود المستكنات لم يكن لينقض وترا آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض

وقال المتنبى ـ وقد مزج الفلسفة بحياته مزجا ـ يعبر عن آماله وآلامه

أود من الأيام مالا توده وأشكو اليها بيننا وهى جنده
أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه فما طلبى منها حبيبا ترده
وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شىء فى طباعك ضده
وأتعب خلق الله من زاد همه فقصر عما تشتهى النفس وجده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

---

(١) يدل على تأصل هذه الهوية فى نفسه قوله

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه وان ذممت فقل قىء الزنابير
مدحا وذما وماجاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبى ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده
وحكمه أشهر من أى تدون وأكثر أن تحصى

أما أبو العلاء فقد خلق فيلسوفا وللفلسفة عاش وحسبه أن خلف فى آرائه الفلسفية ديوانه الضخم « اللازوميات » وحسبك أن تتعرف الآن غزارة آرائه الفلسفية وتزاحمها على الموضوع الواحد بالرجوع الى تائيته التى اخترناها بالنماذج من هذا الديوان عن فلسفة فى المرأة . فقد قرر فيها أن النساء ذوات خداع وأنهن فوارس فتنة للرجال وآيات إغراء وأنهن الظالمات وإن ادعين أنهن المظلومات، ثم ذكر أن الرجل يصحبهن فيخرجن له الأولاد وفيهم النوائب المسقمات وأبان وجه ذلك فى الذكور والاناث وعاد يحذر من تستر المرأة وخداعها بالحجاب : ثم انتقل الى تعليم المرأة الفصاحة والبيان فجعله فى يدها أداة شر ومعول فساد وأبان أن خير ماتتعلمه القراءة والتلاوة على عجوز وأن خير ماتعمل حمل المغزل لاحمل الأقلام ، ثم غادر هذا الى تحذير الشيخ المقل أن يتزوج من المعصرة المرفهة والى الرجل مطلقا أن يجاوز الواحدة الى ضرة والى الشاب أن يسرف فى شبابة للغانيات. ثم ختم آراءه فى ذلك بتقريره أن حفظ الخريدة لا يكون الا ببعل يسد غاربها فتفديه بالورع والسكوت . كل هذه النواحى قد عالجها فى تلك القصيدة معالجة فيلسوف خبير فى تحديد معان وبسط آراء فجاءت عنوانا ظاهرا لمعالجاته الفلسفية ودليلا

واضحا على نضوج عقله وغور فكره وعليك أن ترجع اليها لترى أن ماذكرناه عنها أقل مما تقف عليه بقراءتها .

٤ — الابداع فى التصوير والاغراب فى الخيال — كانت هذه الناحية أظهر النواحى فى شعر العصر العباسى منذ أن بدأ إلى أن زال . ذلك بأنه ورث إذ بدأ حضارة فارسية ضاربة فى القدم الى عهد سحيق وفيها من آثار الخيالات الواسعة والتصاوير البارعة ومن صناعات الايدى الصناع ذات المهارة والنقش الشيء الكثير ، هذا الى ماجادت به الطبيعة تلك البلاد من مناظر ذات بهجة وسحر . فكان شعراء بغداد حيث تلفتوا وجدوا منابع الخيال على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفى من الزلال ولذلك جروا فى ميدانه وطاروا فى سمائه الى مدى بعيد أنتج من التصاوير الهائلة والخيالات المبدعة ماجاء فتنة للناظرين وصار لمن خلفهم من الشعراء بعد انتشار الآداب فى الحواضر والأمصار المأخذ ومحل المحاكاة فى مصر والشام وغيرهما من سائر الأقاليم مع الاحتفاظ لكل إقليم بسمة حضارته وطبيعة أرضه الى حد ما . واليك بعض ماكان لهؤلاء وهؤلاء من آثار نفيسة مشكورة فى هذا الباب بعد الاشارة الى مابرز منه فى النماذج قبل .

رأيت فيما رأيت وصف بشار لحبيبته وكيف أبدع فى تشبيهاته محاسنها، ووصف أبى نواس سلاف الشهد ونحله كيف انسجم فيه التصوير وتسلسل الخيال، ووصف البحترى خروج المتوكل فى عيد فطر للصلاة وكيف اشتق من شعائر الدين عن طريق الخيال ماخلع على المركب جلالا ليس بعده جلال . ووصف ابن المعتز الخمر وساقيها ومجلسها والخروج

لصيد شوانها ، وتخيله فى وصف الكأس والبذل والاستهتار فى الشراب والسلوقية كيف تصيد وطواف السقاة ونشوة الشاربين ثم مجلس الشراب أرضه وسمائه وحيطانه واصطخاب العيدان فيه . ووصف السرى الرفاء لصديقة المصلوب وما تضمن من خيال جديد . ووصف التهامى للثغر والطيف ومظاهر الليل فى ثباته أولا وفى انهزام أدهمه أمام أشقر الفجر ثانيا الى آخر ماأغرب به من خيال . ووصف صردرلمداد دواته وقد بدأ يعلوه المشيب وما اندفع اليه من وصف القلم والقراطيس . ووصف ابن حيوس وعمادة اليمنى ، الأول دار تاج الملوك المرداسى بالشام والثانى دار آل رزيك بقاهرة العزيز وما جريا اليه وراء الخيال فيما عالجا من وصف النقوش والتهاويل على اختلاف أنواعها وتنوع مرائيها . ووصف ابن التعاويذى غلمان الناصر الاتراك وصفا عقد فيه بين فتنة الجمال وجرأة الاقدام . الى غير هذه من مظاهر الحضارة المختلفة الألوان على أنه لايفوتنا التنويه بتعرض الطغرائى لمظهر بدوى دفعه اليه ذكر القديم والحنين الى ديار الأعراب هو وصفه هاجرة بدأ فيها مع صحبه رحلة جاوزتها الى الليل فاستغرقته الى السحر منه حيث وردوا غديرا اشتبه ماؤه على عيسهم بضوء الفجر المنبعث عليهم من الشرق الى غير ذلك مما بلغ فى تصويره حدا نرى من الظلم له التعرض لوصفه دون ذكره فلترجع اليه هناك ولنعد نحن الى ما وعدنا به من خيال وتشبيه بعد الاشارة الى هذه الاوصاف .

قال بشار يشبه فؤاد المضطرب وعين الساهر

كأن فؤاده كرة ترامى   حذار البين لو نفع الحذار

يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار
أقول وليلتي تزداد طولا أما لليل بعدهم نهار
جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

وقال فى نوع شرابه ومحاسن محبوبته

أيها الساقيان صبا شرابي واسقياني من ريق ثغر برود
إن دائي الصدى و إن شفائي شربة من رضاب بيضاء رود
عندها الصبر عن لقائي وعندي زفرات يأكلن قلب الجليد
ولها مبسم كثغر الأقاحي وحديث كالوشي وشي البرود
نزلت فى السواد من حبة القلـــب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليال والليالي يبلين كل جديد
لا أبالي من ضن عني بوصل إن قضى الله منك لي يوم جود

وقال فى تشبيه العظام بالخيزران وهو جديد

ودعجاء المحاجر من معد كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وقال فى معنى بدوى زاده قوة وأسرا

ويوم كتنور الاماء سجرنه وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسي فى أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

وقال أبو نواس فى نواح من تشبيهات الخمر

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كف لؤلؤة ممشوقة القد
تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها خمرا فما لك من سكرين من بد
كأسا اذا انحدرت فى حلق شاربها رأيت حمرتها فى العين والخد

وقال أبو تمام فى الغيث والسحاب

سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا ... يدا قالت الدنيا أتى قاتل المحل

اذا ماارتدى بالبرق لم يزل الندى ... له تبعا أو يرتدى الروض بالبقل

اذا انتشرت أعلامه حوله انطوت ... بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال البحترى فى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث

ولما التقينا والاوى موعـد لنا ... تعجب رائى الدر حسنا ولا قطه

فمن لؤلؤ تجلوه عنـد ابتسامها ... ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال ابن الرومى فى خباز رقاق

ماأنس لاأنس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

مابين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتهـا قوراء كالقمر

الا بمقدار ماتنداح دائرة ... فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال فى صانع زلابية

ومستقر على كرسيه تعب ... روحى الفداء له من منصب نصب

رأيته سحرا يقلى زلابية ... فى رقة القشر والتجويف كالقصب

يلقى العجين لجينا من أنامله ... فيستحيل شبابيكا من الذهب

وقال ابن المعتز فى الخمر

وأمطر الكأس ماء من أبارقه ... فأنبت الدر فى أرض من الذهب

وسبح القوم لما أن رأوا عجبا ... نورا من الماء فى نار من العنب

وقال فى أثر النشوه

وقد شربوا حتى كأن رءوسهم ... من اللين لم يخلق لهن عظام

وقال فى قيام الساقين على رءوس الندامي

وكأن السقاة بين الندامى ألفات بين السطور قيام

وقال فى سيفه

ولى صارم فيه المنايا كوامن فما ينتضى الا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنه بقية غيم رق دون سماء

وقال فى فرسه

ولقد وطئت الغيث يحملني طرف كلون الصبح حين وقد
وكأنه موج يسيل إذا أطلقته واذا حبست جمد

وقال السري الرفاء فى حدائق

وحدائق يسبيك وشى برودها حتى تشبهها سبائب عبقر
يجرى النسيم خلالها فكأنما غمست فضول ردائه فى عنبر
باتت قلوب المحل تخفق بينها بخفوق رايات السحاب الممطر

وقال أبو الفرج الببغاء فى كانون

وذى أربع لايطيق النهوض ولا يألف السير فيمن سرى
تحمله سبجا أسودا فيجعله ذهبا أحمرا

وقال فى ناره

إذا رمت بالشرار واضطرمت على ذراها مطارف اللهب
رأيت ياقوتة مشبكة تطير منها قراضة الذهب

وقال فى فحمه

كان كالآبنوس غير محلى فغدا وهو مذهب الآبنوس
لقى النار فى ثياب حداد فكسته مصبغات عروس

وقال أبو الفضل الميكالى فى شرار النار

كأن الشرار على نارنا وقد راق منظرها كل عين
قراضة تبر اذا ماعــلا فاما هوى ففتات اللجين

وقال ابن بابك فى غدير تعتدل عليه الغصون وتميل

وغــدير ماء أفعمت أطرافه كالدمع لمـا ضـاق عنـه مجال
قمر الرياض إذا الغصون تعدلت وإذا الغصون تهدلت فهلال

وقال الصابى يصف يد كاتب

وكم من يد بيضاء حازت جمالهـا يد لك لاتسود الا من النقس
إذا رقشت بيض الصحائف خلتها تطرز بالظلماء أردية الشمس

وقال أبو العلاء فى ليلين مختلفين

وليلين حال بالكواكب جوزه وآخر من حلى الكواكب عاطل
كأن دجاه الهجر والفجر موعد بوصل وضوء الصبح حب مماطل

وقال يرد على حبيبته فى حوار

هى قالت لما رأت شيب رأسى وأرادت تنـكرا وازورارا
أنا بدر وقد بدا الصبح فى رأ سك والصبح يطرد الأقمـارا
لست بدرا وانما أنت شمس لاترى فى الدجى وتبـدو نهارا

وقال ابن سناء الملك

ياعاطل الجيد الا من محـاسنه عطلت فيك الحشا الامن الحزن
فى سلك جسمى در الدمع منتظم فهل لجيـدك فى عقد بلا ثمن
لاتخش منى فانى كالنسيم ضنى وما النسيم بمخشى على الغصن

٥ — المبالغة والتهويل — لعل أول ماحبب الى شعراء العصر

العباسى المبالغة والتهويل أن معظمهم كانوا من المولدين الراجعين فى نسبهم الى أصل فارسى وللفرس ولع بالمبالغة والاغراق شديد . وإذ كانت هذه الفئة المولدة فى العصر العباسى الاول ذات شأن لدى الخلفاء ووزراء الفرس ورجالاتهم ذوى النفوذ فقد اكتسبوا رفعة جعلتهم القدوة أمام غيرهم من سائر الشعراء وانساق الجميع الى هذه الظاهرة رغبة فى التحبب وأكثروا منها فى مدائحهم طمعا فى ابتزاز المال . على أن هناك سببا آخر لشيوع المبالغة والغلو بين طبقات الشعراء بعيدا عن تلك الطبيعة الفارسية وهذه الرغبة فى جذب المال هو تفتح أبواب المعانى واتساع مناحى التفكير ومسابقة الشعراء بعضهم بعضا فى هذا الميدان وطمع كل أن يكون المجلى فى تلك الحلقة أمام مناظريه، فان هذا الطمع لابد يحدوه الى الاتيان بجديد قلما تسعفه الحقائق الخالصة فيه فينزع عنها الى ضروب المبالغات والتهويل. وإن نظرة الى ماأسلفنا من نماذج لتريك هذه الظاهرة بادية للعيان وبخاصة كما ذكرنا فى المديح . فهذا مسلم قد رفع يزيد الشيبانى فى شجاعته الى حيث شابه رسول الله ثم جعله عز الخلافة وعدة بنى العباس وهذا أبو تمام فى رثائه ابن حميد الطوسى قد بالغ فى كثير من صفاته حتى جعل موته بين الطعن والضرب نصرا وحياه .وزاد عنه البحترى من شعراء العصر الثانى فى مدائحه المتوكل على الله . وما كاد يحل العصر الثالث حتى صارت المبالغات أساسا للقول وارتفع بها شعراؤه الى ماكان يمقت قبلا من غلو واغراق فقد فتح هذا الباب على مصراعيه للشعراء أول شعرائه أبو الطيب المتنبي فأتى بما لم يدر بخلد فى المدائح وفى غير المدائح على السواء

وهاهى تلك المدحة التى اخترناها آنفا من مدائحه فى سيف الدولة ابن حمدان قد بدأها بجعله حزب الله وبأنه راع الدهر ثم تحدى الدهر أن يحدث خطوبا اذا شك فيما قال وعلى هذا النسق جرى الى آخر ما قال . ، وكذلك كانت مبالغاته وأشد فى غير المديح كما سيأتى ثم كان العصر الاخير أشد طغيانا وأكثر افتنانا فى هذا الباب كما ترى ذلك فى قصيدة الابيوردى التى اخترناها نموذجا للفخر فيما اخترناه

واليك طائفة أخرى غير ماأشرنا اليه فى النماذج من المبالغات

قال بشار فى نحافته من أثر الحب

سلبت عظامى لحمها فتركتها عوارى فى أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فجعلتها أنابيب فى أجوافها الريح تصفر
خذى بيدى ثم ارفعى الثوب فانظرى ضنى جسدى لكننى أتستر
وليس الذى يجرى من العين ماؤها ولكنها نفس تذوب فتقطر

وقال المتنبي فى ذلك

روح تردد فى مثل الخلال اذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقال أبو نواس من مدح الرشيد

ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان
ماتنطوى عنه القلوب بنجوة إلا يحدثه بها اللحظان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

وقال ابن الرومى من هجائه ابن يوسف

لو أن قصرك يابن يوسف كله إبر يضيق بها فناء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة   ليخيط قـد قميصه لم تفعل

وقال ابراهيم بن سيار النظام

توهمه طرفى فآلم خده   فصار مكان الوهم من نظرى أثر
وصافحه كفى فآلم كفه   فمن صفح كفى فى أنامله عقر
ومر بفكرى خاطرا فجرحته   ولم أر خلقا قط يجرحه الفكر

وقال ابن دريد يخاطب الدهر ويعلو عليه

مارست من لوهوت الافلاك من   جوانب الجو عليه ماشكا
ولو حمى المقدور منه مهجة   لرامها أو يستبيح ماحمى
تغدو المنايا طائعات أمره   ترضى الذى يرضى وتأبى ماأبى

وقال المتنبي أيضا .

لو كان علمك بالاله مقسما   فى الناس مابعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ماأنزل التـوراة   والقرآن والانجيلا

وقال ابو العلاء يمدح شريفا يسمى محمدا

لولا انقطاع الوحى بعد محمد   قلنا محمد عن أبيه بديل
هو مثله فى الفضل الا أنه   لم يأته برسالة جبريل

وقال ابن سناء الملك من قصيدة طويله .

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا
ولكننى لاأرهب الدهر إن سطا   ولا أحذر الموت الزؤام اذاعدا
توقد عزمى يترك الماء جمرة   وحيلة حلمى تترك السيف مبردا
ويأبى إبائى أن يرانى قاعـدا   وأنى أرى كل البرية مقعدا

٦ — تمحيص الافكار وترتيب العناصر — أظنني في غير حاجة أن أعلل هذه الظاهرة لأن أسبابها أوضح من أن ينبه عليها. على أني أجمل هذه الأسباب في أن الشعراء العباسيين أصبحوا ينزعون في الفطرة الشعرية لاعن تلك الفطرة وحدها كما كان أسلافهم بل عنها ممزوجة بثقافة تجمع الى مسائل الأدب والعلم والفلسفة وغيرها مما يوسع العقل والفكر، فنون حضارة وارفة الظلال تنمي الذوق وترقى الاحساس بالجمال. ولذلك كانوا يمحصون أفكارهم وينظمون عناصر أقوالهم ثم يبرزونها في ثوب ذي جمال خلاب كما سبق ذلك بناحيته ظاهرا في النماذج أتم ظهور.

فقصيدة العباس ابن الأحنف قصة غزلية محكمة النسج قوية الأداء. وقصيدة أبي نوس أجمع وصف يتناول صنع خمـــر الشهد مذخرج النحل يتغذى لخلاياها الى أن غادرت الدنان بعد حقب الى آفاق السراء. وقصيدة ابن المعتز وصف يحكي العيان مرتبا في الدعوة الى الخمر والصيد لها والجلوس عقب ذلك في مجلس الشراب. وقصيدة ابن نباتة حكاية زورة ليلية لحبيب ذات تسلسل وانسجام. وقصيدتا ابن حيوس وعمارة اليمني تناولتا في دقة وإحكام كل مايجول في الخاطر من محاسن القصور. وقصيدة الطغرائي أحسن مايوصف به واصف رحلة بدوية في هاجرة نهار وظلام ليل ترد بعدها الابل غديرا في منبلج الصباح. وقصيدة ابن عنين خير تعبير لما يجول في نفس هازم ومهزوم لكليهما من الشجاعه حظ ونصيب :

ولقد حملت هذه الظاهرة شعراء العباسيين أن يبرعوا البراعة كلها في ابتداء القصيدة وفي الانتقال خلالها من المطلع الى ماهو الغرض

المقصود فيها ثم فى إنهائها الى درجة حملت رجال البلاغة على تدوين هذه المحاسن الثلاثة فى البديع باسم حسن الابتداء وحسن الانتقال وحسن الانتهاء، ومن الاول تفرعت براعة الاستهلال .

فحسن الابتداء ويسمى براعة المطلع أن يتخير الشاعر لمطلع قصيدته المعانى الصحيحة الملائمة، والالفاظ الرشيقة العذبة ويتحرز مما يتطير منه من المعانى ومايستكره ويجفى من الألفاظ، لأن المطلع أول مايقرع السمع فيسترعى الآذان أو تمجه الآذان. فأذا أضاف الى هـذا الحسن جعل أول بيت من القصيدة مشعرا بالغرض منها فى إشارة لطيفة فقد ضم الى براعة المطلع براعة أخرى هى براعة الاستهلال وضمن بهذين حسن التقبل والاصغاء

فمن محاسن الابتداء قول ابى نواس

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ماأقوت وطيب نسيم

وقول البحترى

بودي لو يهوى العذول ويعشق ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق

وقول صريع الغوانى

أجررت ذيل خليع فى الهوى غزل وشمرت همم العذال فى عذلى

وقول أبى العلاء

ياساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعوانا على السهر

وقول التهامى

حازك البين حين أصبحت بدرا إن للبـدر فى التنقل عـذرا

ومما ضم الى براعة المطلع براعة الاستهلال قول أبى تمام فى الرثاء

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر　　فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقول المتنبي فى الشفاء من مرض

المجد عوفى إذا عوفيت والكرم　　وزال عنك الى أعدائك السقم

وقول أبى فراس على وشك رحيل

ياطول شوقى إن كان الرحيل غدا　　لافرق الله فيما بيننا أبدا

وحسن التخلص ويسمى براعة المقطع هو الانتقال مما بنى عليه مطلع القصيدة من نسيب أو غيره الى الغرض الاصيل على معبر من قوة الاتصال بين المعنيين فى دقة لطف وحسن وتمام كقول مسلم فى يحيى وجعفر

أجدك هل تدرين كم رب ليلة　　كأن دجاها من قرونك تنشر

لهوت بهـا حتى تجلت بغرة　　كغرة يحيى حين يمدح جعفر

وكقول البحترى فى الفتح بن خاقان

رياض تردت بالنبـات مجودة　　بكل جديد الماء عذب الموارد

اذا راوحتها مزنة بكرت لهـا　　شآبيب مجتاز عليها وقاصد

كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت　　عليها بتلك البارقات الرواعد

وكقول المتنبي فى سيف الدولة

خليلى مالى لاأرى غير شاعر　　فكم منهم الدعوى ومنى القصائد

فلا تعجبا إن السيوف كثيرة　　ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وكقول البها زهير المتوفى سنة ٦٥٦ فى صلاح الدين بن العزيز

أهوى التذلل فى الغرام وإنما　　بأبى صلاح الدين أن أتذللا

مهدت بالغزل الرقيق لمدحه　　وأردت قبل الفرض أن أتنفلا

وحسن الانتهاء ويسمى براعة الختام أن تختم القصيدة بما يشعر بالانتهاء

فهو فى النهاية نظير براعة الاستهلال فى الابتداء وهو آخر مايعى السمع ويرتسم فى النفس كقول المتنبى

فلا حطت لك الهيجاء سرجا   ولا ذاقت لك الدنيا فراقا

وكقول أبى العلاء

ولا تزال لك الأيام ممتعة   بالآل والحال والعلياء والعمر

وكقول الأرجانى

علاك سوار والممالك معصم   وجودك طوق والبرية جيد

وكقول الغزى

بقيت بقاء الدهر ماذر شارق   وغار جديد المكرمات وأنجدا

وكقول ابن النبيه

دمتم بنى أيوب فى نعمة   تجوز فى التخليد حد الزمان

والله لازلتم ملوك الورى   شرقا وغربا وعلى الضمان

وقد كانت عناية الشعراء قبل العصر العباسى بهذه البراعات قليلة وما كان عليهم فى إغفالها من عاب . أما فى العصر العباسى فقد عنوا بها أتم عناية ولذلك كان من المآخذ عليهم إغفالها كما كان من المآخذ الشديدة أن يأتوا فيها بما يعاب (١)

(١) ظهر عيب المولدين اكثر ما ظهر فى المطلع والانتقال دون الانتهاء فمن سوء المطلع ما كان من إسحق الموصلى اذ دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصر فأنشده

يادار غيرك البلى ومحاك   ياليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر

ناحية الأغراض والفنون

لعله من الملائم وقد عرفت الأغراض الثلاثة التي كانت أهم أغراض الشعر فى العصر الاموى أن نبدأ بها الآن فى هذا العصر العباسى وبعدها نزجى القول الى ما كان له فيه من سائر الفنون .

١ — العصبية والسياسة — أحيت الدولة الأموية العصبيات

ومن الانتقال المقتضب قول البحترى

وهوى تجدده الليالى كلما قدمت وترجعه السنون فيرجع
يأيها الملك الذى سقت الورى من راحتيه غمامة ما تقلع

ومن سوء المطلع وقبح الانتقال ما كان من أبى نواس إذ دخل على الفضل البرمكى فأنشده مبتدئا

أربع البلى إن الخشوع لبادى عليك وإنى لم أخنك ودادى

ثم انتقل إلى مدح البرامكة بقوله

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغادى

فكان ذلك منه عجبا وهو البارع فى البراعات يجمعها فى قصائده جمعا كما فعل فى قصيدته إذ عزم على الرحلة من بغداد إلى مصر لمدح الخصيب فقد ابتدأها بقوله متحدثا عن زوجته

تقول التى من بيتها خف محملى عزيز علينا أن نراك تسير

وتخلص إلى المدح بقوله مخاطبا لها

ذرينى أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

ثم ختمها بقوله مخاطبا الممدوح

فان تولنى منك الجميل فأهله وإلا فانى عاذر وشكور

وكانت أقوى ماتكون بين اليمنية والمضرية منذ تقريب معاوية اليمن وإبعاده قيسا فكانت الملاحاة بين العنصرين قوية شديدة وكانت تزداد شدة كلما تقدمت بالدولة الأيام حتى ورثتها الدولة العباسية بالغة منتهاها وقد زاد العنصر اليمني قوة على المضرى أن أم السفاح كانت منه ـ ولذلك خلفه أبوه قبل أبي جعفر وهو أكبر منه لأنه ابن أم والد ـ مع من انضم الى شعراء اليمن العرب من الموالى الذين كانوا ينتمون الى قبائله ولاء وهم كثير منهم أبو نواس الحكمى الذى يقول فيهم .

وقد نافحت عن أحساب قوم ... هم ورثوا مكارم ذى نواس

فان تك أوقدت للحرب نار ... فما غطيت خوف الحرب راسى

سأبلى خير ما أبلى محام ... اذا ما النبل ألجم بالقياس

فما بال النعاج ثغت بشتمى ... وفى زمعاتهن دم الفراس

وماحامت عن الأحساب إلا ... لترفع ذكرها بأبى نواس

غير أن ظهور الشعوب الأخرى بمعاداة هذين العنصرين العربيين معا كان من شأنه أن يخضد شوكة هذا الخلاف ويضعف منه على أن تبقى الصولة لمضر لبقاء الخلافة بعد النبوة فيها كما كانت ولذا بقى الفخر لها وحدها دون اليمن حتى على ألسنة الخلفاء الذين ينبغى أن يكونوا آخر المتعصبين كما تلمح ذلك فى قول ابن المعتز مفتخرا .

اذا شئت أوقرت البلاد حوافرا ... وسارت ورائى هاشم ونزار

وعم السماء النقع حتى كأنه ... دخان وأطراف الرماح شرار

وقد استغل العباسيون الشعر فى تأييد ملكهم ضد الطامعين فيه من آل على كما كان يفعل الأمويون فقوبل شعراؤهم الموالون أمثال مروان

ابن أبى حفصة وعلى بن الجهم وأبان بن عبد الحميد بطبقة من الشعراء المعارضين الذين يتعصبون لآل على، كالسيد الحميرى ودعبل الخزاعى ومسلم ابن الوليد، وطالت الملاحاة بين الطبقتين فى شدة واحتدام كما ترى فى هذين المثلين .

قال مروان يخاطب بنى على طالبا اليهم تخلية الطريق لبنى العباس

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام

وارضوا بما قسم الاله لكم به ودعوا وراثة كل أصيد حامى

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الاعمام[1]

---

(١) شاع استعمال هذا المعنى الذى ألم به مروان تأييدا ونقضا

قال الطاهر بن على العباسى فى تأييده زائدا عليه

لو كان جدكم هناك وجدنا فتنازعا فيه لوقت خصام

كان التراث لجدنا من دونه لحواه بالقربى وبالاسلام

حق البنات فريضة معلومة والعم أولى من بنى الاعمام

وقال محمد بن يحيى التغلبى فى نقضه زائدا أيضا

لم لايكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات وراثة الاعمام

للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللتراث وإنما صلى الطليق مخافة الصمصام

وذكر صاحب الأغانى أن بيت مروان الاخير هذا كان السبب فى قتله فقد روى عمن حدثوه عن عطية الأضجم أنه قال « لزمت مروان لما قال هذا البيت وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك ومازلت ألاطفه وأبره

وقال الحميرى وكان يفضل عليا على الراشدين كما يفضل أبناءه على العباسيين

اذا أنا لم أحفظ وصاة محمد ولا عهده يوم الغدير المؤكدا
فانى كمن يشرى الضلالة بالهدى تنصر من بعد التقى وتهودا
ومالى وتيم أوعدى وإنما أو لو نعمتى فى الله من آل أحمدا
تتم صلاتى بالصلاة عليهم وليست صلاتى بعد أن أتشهدا
بكاملة إن لم أصل عليهم وأدع لهم ربا كريما ممجدا
بذلت لهم ودى ونصحى ونصرتى مدى الدهر ما سميت ياصاح أحمدا
وإن امرأ يلحى على صدق ودهم أحق وأولى فيهم أن يفندا
فان شئت فاختر عاجل الغم ظلة والا فأمسك كى تصان وتحمدا

وقد حرك ماجد للموالى فى العصر العباسى من تقريب ، ماكان مالئا نفوسهم من حقد على العرب طوال العهد الأموى فأخذوا يفاخرونهم ويذكرون مثالبهم وأخذ العرب يردون عليهم مايقولون حتى نشأت عصبية أعم من السابقتين بين العرب والعجم قوى فيها سلطان العجم لنفوذ الفرس وكثرة الشعراء الموالى . فعلن أمر الشعوبية وصار لها شأن خطير وتعصب لها عدد وافر من الشعراء كبشار وديك الجن

وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا وعرفت ذلك بنو حفصة جميعا فأنسوا بى ولم أزل أطلب له غرة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل أظهر له الجزع عليه وألازمه وألاطفه حتى خلالى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت بحلقه فما فارقته حتى مات فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وارتفعت الصيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن ومافطن بما فعلت أحد ولا اتهمنى به »

والخريمي والمتوكلي وغيرهم،وقام من ينافح عن العرب ويرد على هؤلاء أمثال يزيد المهلبي ولكنهم قليل وهاك مثلين مماكان يقال .

دخل أعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي فتنقص الموالي أمام بشار فقال بشار .

خليلي لا أنام على اقتسار ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عني وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العري خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع بني الأحرار حسبك من خسار
وكنت اذا ظمئت الى قراح شركت الكلب في ولغ الاطار
تريغ بخطبة كسر الموالي وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدريها ولم تعقل بدراج الديار
وتتشح الشمال للابسيها وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب فى حر نار
وفخرك بين خنزير وكلب على مثلي من الحدث الكبار

ولما قتل الخدم الخليفة المتوكل قال يزيد المهلبي من مرثيته يعيب على بني العباس إبعاد العرب وتقريب الموالى .

لما اعتقدتم أناسا لاحلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم والمجد والدين والأرحام والبلد
إذا قريش أرادوا شد ملكهم بغير قحطان لم يبرح به أود
أضحى شهيد بني العباس موعظة لكل ذى عزة فى رأسه صيد

خليفة لم ينل ماناله أحـــد ولم يضع مثله روح ولاجسد
قد وتر الناس طرا ثم قد صمتوا حتى كأن الذى نيلوا به رشد
من الألى وهبوا للمجد أنفسهم فما يبالون مانالوا اذا حمدوا؟

وقد ضعف أمر هذه العصبيات جميعا بتغلب الاتراك على العرب فى العصر الثانى ثم بانحلال الدولة الى دويلات فى الثالث الا ماكان من الاشادة بالعلوية فى مصر أيام الفاطميين وبالعربية فى الشام أيام الحمدانيين على أن هذه الاشارة لم تلبث أن زالت فى العصر الرابع الذى تملك فيه الأتراك شرقا والأكراد غربا

٣ — المدح والهجاء — كما فى الشعر السياسى فى المدح والهجاء على العهد الأموى فأصبح لهما تبيعا لا استقلال له ، لم يلبث أن صار كذلك فى العهد العباسى منذ عصره الأول لميل النفوس بطبعها الى حب الثناء وغلوها فى هذا الحب واتخاذ الشعراء هذا الميل أحبولة لتصيد المال ثم سخاء ذوى الأمر لهم ببذله سخاء منقطع النظير . ولهذا كثر قائلوا المديح وطالبوه وتعدى الشعراء التكسب بالشعر للعيش والحياة الى التكسب به لاقتناء الثروات الواسعة ومجاراة ذوى اليسار والبذخ فى مظاهر الرفاهة والتمتع بنعمى الحياة [1] ومن ثم هجروا مواطنهم الأولى وأقاموا فى بغداد متحضرين يتمتعون فيها بأجزل

---

(١) ذكر صاحب الأغانى أن سلما الخاسر خلف ثروة مقدارها خمسون ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع . وقد خلف مروان أكثر من ذلك ومثلهما فى هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا يفوقونهم كسبا ولكنهم لايبقون على شىء كأبى نواس

العطايا وأسنى الصلات حتى من الخليفة المنصور على ما كان معروفا به من التشدد فى خزن المال . روى أن أبا دلامة لما أنشده قوله

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم　　قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس كلكم　　الى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائم المنصور رأسكم　　فالعين والأنف والأذنان فى الراس

قال له بأى شىء تحب أن أعينك قال تملأ لى هذه الخريطة دراهم فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم

ومنذ عهد ابنه المهدى أخذت الأموال تتدفق على الشعراء قيل دخل عليه عمرو بن سلم الخاسر فأنشده

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى　　مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدى عدلا ونائلا　　كأنهما عدل النبى ونائله

فقال له أما ما ذكرت ياسلم من الجود فوالله ماتعدل الدنيا عندى خاتمى هذا، وأما العدل فانه لايقاس برسول الله صلى عليه وسلم أحد فيه ، وإنى لأتحراه جهدى . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب ، ودخل عليه بعدها فأنشده

إن الخلافة لم تكن بخلافة　　حتى استقرت فى بنى العباس
شدت مناكب ملكهم بخليفة　　كالدهر يخلط لينه بشماس

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبا . ثم دخل عليه بعدها فأنشده

أفنى سؤال السائلين بجوده　　ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله　　نفد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا

وقد أعطى ابنه الهادى عشرين ألف درهم لشاعر أجاد وصف الصمصامة سيف عمرو بن معديكرب الزبيدى حين حصل عليه وكان مغرما باقتناء السلاح وسيأتى الوصف

أما الرشيد فقد غطى فى ذلك على ما كان لأبيه وأخيه ، مدحه مروان بقصيدة يقول فيها

وسدت بهارون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه ... له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسرا عن يد وهو صاغر
ترى حوله الأملاك من آل هاشم ... كما حفت البدر النجوم الزواهر

فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعته وأمر له بعشرة من رقيق الروم وحمله على برذون من خاص مراكبه. ثم كان جوده على الشعراء يجاوز كل أمل فى محافل البيعات

وكذلك كان أبناؤه الأمين والمأمون والمعتصم ولا سيما المأمون على طول مدته فى الخلافة. قال لمحمد بن الجهم يوما أنشدنى ثلاث أبيات فى المديح والهجاء والرثاء ولك بكل بيت كورة فأنشده فى المديح

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأنشده فى الهجاء

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم ... حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وأنشده فى الرثاء

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

وعلى مثل هذا كان للشعراء الواثق والمتوكل ابنا المعتصم وبخاصة المتوكل

ومدائح البحترى فيه وعطاياه للبحتري مما ضربت به الأمثال ومن بعده تغير مجرى التاريخ

وقد اقتدي بالخلفاء فى ذلك الأمراء والوزراء. وأخبار آل برمك فى هذا أشهر من أن تذكر أو ينالها تعداد وكفى أنها كانت من أهم بواعث الحقد عليهم فى نفس الرشيد

بذلك وغيره كثرت المدائح وجادت وكثرت فيها المبالغات كما قرأت بالنماذج فى مدحتى مسلم وأبى تمام

هذا واذ كان من شأن الشاعر المتكسب بشعره أن يتخذ الهجو عصا فى هذا الباب يهيب بها على المماطلين وينال بأذاها البخلاء والمانعين، لم يك مفر أن يكثر الهجاء مع المديح على أن مما أكثره غير ذلك، تحاسد الشعراء وما أنتجه فى نفوسهم من عداوة أعادت ذكرى ما كان بين الفرزدق وجرير وحلبتهما بصورة أوسع أفقا وأشد بشاعة ونكرا، ولا يجوز أن نغفل هنا ذكر العصبيات الماضية وماخلفته من ألوان الهجاء.

وقد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين الى درجة أنه كان يسمع هجوه بنفسه ويصفح. روى أن دعبلا حين هجاه بقوله

أيسومنى المأمون خطة عاجز ... أو ما رأى بالامس رأس محمد
يوفى على هام الخلائف مثل ما ... توفى الجبال على رءوس القردد
ويحل فى أكناف كل ممنع ... حتى يذلل شاهقا لم يصعد
إن الترات مسهد طلابها ... فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

لم يزد أن قال « قاتل الله دعبلا متى كنت خاملا وفى حجر الخلافة ولدت وبدرها غذيت وفى مهدها ربيت »[١] فتنزل الشعراء فى عهده ـ وقبل عهده إرضاء للسياسة والعصبيات ـ الى الاقذاع فى الهجو والبذاءة فى الالفاظ وقد جعلهم يغلون فى ذلك أشد غلو ضعف الوازع الدينى وماجرته مثالب المدنية على النفوس من الانغماس فى مفاسدها والفتنة بها الى أن عد بعضها من المحاسن وهو من المقابح فى الحضيض. هذا الى أن التسابق فى التهاجى كان رغبة بين بعض الشعراء وبعض دون أن يرتكز فى نفوسهم الى أحقاد أو أسباب سواه

قال بشار يهجو المهدى فى مدحه وزيره يعقوب بن داود

بنى أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزق والعود

وقال أبو نواس يهجو المفضل بن سيابة بالبخل

أصبحت أجوع خلق الله كلهم ... وأفزع الناس من خبز اذا وضعا
خبز المفضل مكتوب عليه ألا ... لابارك الله فى ضيف اذا شبعا
إنى أحذركم من خبز صاحبنا ... فقد ترون بحلقى اليوم ماصنعا

وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة بالجبن

فصغ ماكنت حليت به سيفك خلخالا
فما تصنع بالسيف اذا لم تك قتالا

---

(١) روى أن أبا سعد المخزومى دخل على المأمون وأنشده شعر دعبل هذا ثم قال « أتأذن لى ياأمير المؤمنين أن أجيئك برأسه » فقال له « لا، هذا رجل فخر علينا فافخر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا »

وشاع هجوهم بدمامة الخلق كما قال البحتري يذم بكبر الأنف

رأيت الخثعمي يقل أنفا يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعدا فقصر كل سام لهيبته وغص به الهواء
هو الجبل الذى لولا ذراه إذن وقعت على الارض السماء

وقد ساد الهجاء المديح فى العصر الثانى لقلة الأجواد وعدم معرفة ذوى اليسار ببلاغة القول، فظهر تبرم الشعراء من هذه الحال والاكثار من هجو الناس والزمن، ونبغ فى هذه الناحية ابن الرومى نبوغا لم يصله سواه كما رأيت فى ذمه ابن المدبر آنفا وكما ترى الآن حيث يذم رؤساء زمنه لبخلهم، على مدحه لهم فيقول

قل للذين مدحتهم فكأنما مسخوا كلابا غير ذات خلاق
ردوا على صحائفا سودتها فيكم بلا حق ولا استحقاق
ماكان مثلى مادحا أمثالكم لولا اتهامى ضامن الأرزاق
أسخطت خلاق البرية فيكم فبلغتم منى رضا الخلاق
أغرقت فى نزعى لكم ولربما حرم الرماة الصيد بالاغراق

ولما أقبل العصر الثالث تفجرت ينابيع الجود من جديد على أيدى حكام الدويلات وعظماء رجالها فتسابق الفواطم والحمدانيون وآل بويه فى الاغداق على الشعراء وبذلك بلغ المدح الذروة التى ليس فوقها ارتفاع ولكن مع بقاء الهجو مسايرا له إذ لا غنى عنه فى تقريع اللؤماء. قال المتنبي يهجو كافورا وقد سمعت كيف كان مدحه لسيف الدولة بن حمدان بالنماذج

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله فى مصر تمهيد

صار الخصى إمام الآبقين بها   فالحر مستعبد والعبد معبود
من علم الأسود المخصى مكرمة   أقومه البيض أم آباؤه السود
أم أذنه فى يد النخاس دامية   أم قدره وهو بالفلسين مردود

غير أن حال الشعر عادت فى العصر الرابع الى الكساد لتغلب العجمة على الحكام فالتفت الشعراء بعدائحهم الى القديم ومن ذلك نشأ شعر التصوف بالغزل فى ذات الله ومدح النبى والخلفاء

٣ — الغزل — لقد ابتعد الغزل أول العهد العباسى عما كان له فى عصر بنى أمية ابتعادا كثيرا لم يحدث مثله للفنين السابقين معه، وكان المنشأ الأول لهذا الابتعاد فتن الدنية ومفاسد الحضارة التى تعدت الطبقه العليا الى مادونها من سائر الطبقات فمات بذلك النسيب العذرى ولم يعد يظهر الا على ألسنة القليل كالعباس بن الأحنف وقد رأيت له قصيدة فيه . أما جمهرة المتغزلين فقد انساقوا وراء المتعة والاباحه الى حد أباح لهم ماكان غير موجود حتى فى الغزل اللاهى أيام بنى أمية من كشف فى الوصف وتبذل فى القصة وفحش فى الالفاظ كما يقول بشار فى معشوقته فاطمه

عجبت فطمة من نعتى لها   هل يجيد النعت مكفوف البصر
أذرت الدمع وقالت ويلتى   من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بدد هذا نقبى   ووشاحى حله حتى انتثر
فدعيني معه ياأمتا   علنا فى خلوة نقضى الوطر
أقبلت مغضبة تضربها   واعتراها كجنون مستعر
بأبى والله ما أحسنه   دمع عين يغسل الكحل قطر

وقد حملهم الاستهتار باللذة والاستمتاع بالغلمان استمتاعهم بالنساء ، أن يتغزلوا فى المذكر كما يتغزلون فى الاناث وتلك عادة سيئة قذرة كانت شائعة بين الفرس وانتقلت الى العرب بفسدة الموالى ومن لف لفهم من ذوى الاباحة والمخنثين كأبى نواس وحماد عجرد ومطيع بن اياس ويحيى بن زياد وحسين بن الضحاك وأمثالهم ممن كان همهم الاجتماع على الشراب مع القيان والغلمان يشربون ويمزحون ويصفون الخمر ويهزلون لا يردعهم عن دناءات النفوس خلق ولا نزعهم دين فكان غزلهم دعارة وعهراً،وقوى ذلك فيهم انحطاط المستوى العام للاخلاق. قال أبو نواس العاهر فى غلام

يابدعة فى مثال · يجوز حد الصفات
فالوجه بدر تمام · بعين ظبى فلاة
والقد قد غلام · والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو · مؤنث الخلوات
زها على بصدغ · مزرفن الحلقات
من فوق خد أسيل · يضىء فى الظلمات

وقال ابن الضحاك الخليع فى غلام يستحم

وابأبى أبيض فى صفرة · كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة · تلوح فيها عكن بضه
غصن تبدي يتثنى على · مأكمة متقلة النهضة
كأنما الرمش على خده · طل على تفاحة غضه
صفاته فاتنة كلها · فبعضه يذكرنى بعضه

وقد أنتج الانحدار فى هذه الحمأة القذرة وصف محاسن المذكر كالعذار[1] وشيوع هجو الناس باللوطية والأبنة مع الاسترسال فى هذه السبل بصراحة فى الوصف والحكاية صارت سبة للأدب العربى وقذى فى عيون قارئيه. ثم كان أن عمد المتغزلون الى إظهار المتغزل فيه بصورة المذكر وإن كانت الصفات صفات إناث كما يقول أبو نواس

يا قمراً أبصرت فى مأتم　　يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس　　ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأتم لى كارها　　برغم دايات وحجاب
لا تبك ميتا حل فى قبره　　وابك قتيلا لك بالباب

وعلى ذكر الغزل وما وقع فيه من جديد نذكر الحملة التى وجهت الى ما كان من ابتداء القصائد فى كل الاغراض ما عدا الرثاء بما كانت تبدأ به الى هذا العصر من تشبيب يتناول الوقوف بالديار والاطلال والتألم لمفارقة أصحابها لها وسير الابل مفرقة أو محققة للقاء، مع ما يأتى خلال ذلك كله من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزليين فنقول. إن أول من قادها أبو نواس[2] فقد رفع عقيرته ينعى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم

---

(١) من ذلك قول بعضهم

أيا قمراً من شمس طلعة وجهه　　وظل عذاريه الدجى والاصائل

(٢) قيل إن أول من تنبه الى ذلك مطيع بن اياس وقد اجتمع بفتى من أهل الكوفة ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن فقال مطيع

لأحسن من بيد يحار بها القطا　　ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما　　له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

ويطلب اليهم فى سخرية لاذعة هجره الى ماأصبح ملائما من جديد. كأن يجبه من يقف على الطلول فيقول

تبكى على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لى من بنو أسد
لاجف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

أو يشمت بتفاعيل الرياح والامطار فى الرسم فيقول

دع الرسم الذى دثرا يعانى الريح والمطرا
ألم تر مابنى كسرى وسابور لمن غبرا

ثم يطلب أن يكون البديل صفة الخمر فيقول

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويفعل هذا فى قصائده مشركا معه هذا التنديد تارة كمطلعه

لاتبك رسما بجانب السند ولا تجد بالدموع للجرد
ولا تعرج على معطلة ولا أثاف خلت ولا وتد
ومل الى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
ممهد صففت نمارقه فى ظل كرم معرش خضد
ثم اصطبح من أسيرة حجبت عن كل عين بالصون والرصد
محجوبة فى مقيل حوبتها تسعين عاما محسوبة العدد

ومكتفيا بالتنبيه تارة كمطلعه

دع الربع ما للربع فيك نصيب وما إن سبتني زينب وكعوب
ولكن سبتنى البابلية إنها لمثلى فى طول الزمان سلوب

وكثيرا ماكان يقصد الى الخمر قصدا كأن يقول

دع عنك لومى فان اللوم اغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها   لو مسها حجر مسته سراء (١)

ولما حبسه الخليفة لذلك عاد الى الاطلال ولكن بهذا الاسلوب

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا

فقد طالما أزرى به نعتك الخمـــرا

دعانى الى نعت الطلول مسلط   تضيق ذراعى أن أرد له أمرا

فسمعا أمير المؤمنين وطاعة   وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

وقد أثرت هـذه الحملة فى شعراء العصر الأول أشد تأثير فاتبعه فيها كل ذى هوى للخمر، وابتدأ بالمقصود فى القصيدة من صدعنها، إلا طائفة قليلة بقيت على عرف الاقدمين فى الابتداء. واستحدث الجميع المعانى إلا طائفة أقل منها كانت تنتزع أحيانا منزع البدو فى المعني المراد كدعبل إذ يقول فى الحماسة من قصيدة مطلعها

بانت سليمى وأمسى حبلها انقضبا   وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا

فى بذل المال للثناء

قال سلامة أين المـال قلت لها   المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

هذى سبيلى وهذا فاعلمى خلقى   فارضى به أو فكونى بعض من غضبا

وقد استمرت المبادىء على هذه الأنحاء طوال العصر الثانى بعد الاول. ولما جاء الثالث بقيت عليه تقريبا فى العراق وفارس وخراسان وعادت الى القديم فى الجزيرة والشام ومصر مع نزوح القول فى جميعها الى هذا المنزع الجديد. ولما حل العصر الرابع نشأ بجانب هذا الغزل المكشوف

(١) نرى أن نثبت هنا البيت الثالث بعد هذين البيتين مثلا لما طالما نبهنا عليه من الفحش فى المعنى والبذاء فى اللفظ وهو

من كف ذات حر فى زى ذى ذكر   لها محبـان لوطى وزناء

غزل عف بعث به أخوه العذرى القديم لانتشار الروح الصوفية فيه كما رأيت فى قصيدة ابن الخياط .

هذا — ولقد كان للشعر منذ العصر العباسى الاول جولات واسعات فى فنون أخرى غير هذه الفنون الثلاثة جاء بعضها أول ماجاء نتيجة لها . كالفخر الذى دفعت اليه العصبية ، والمجون الذى أنشأه الاستهتار ، والخمريات التى شغلت المطالع أولا واستقلت بعد بسائر القصيد وجاء بعضها مستقلا عنها كالرثاء والزهد والصفات . فهذه ستة فنون غير الثلاثة السابقة وإليك كلمة عن كل فن منها على سبيل الاجمال

٤ — الفخر — حالف الفخر العصبيات منذ العهد الجاهلى الى آخر العصر الاموى وكان ينزع فيها جميعا عن الحسب والنسب ولكن استمرت منازعه الحسبية العظامية غلابة على النسبية العصامية حتى العصر العباسى الاول الذى قامت فيه الشعوبية على قدم وساق فانعكست الآية بسنته المعفية على كل قديم . ثم توارى الامران تقريبا فى العصر الثانى وعادا الى الظهور كفرسى رهان فى الثالث الذى حظى الفخر فيه بعدد وافر من الشعراء نذكر منهم المتنبى وأبا فراس والشريف الرضى وأبا العلاء فقد جمعوا فى مفاخرهم بين الطهرين وإن كان فى المتنبى دونهم بعض الحيدة عن الاحساب . ثم جاء العصر الرابع فنضبت فيه الصفات الشخصية وأصبح الفخر إما بالعظام كما رأيت فى مفخرة الابيوردى بسفيانيته أو بانتحال الصفات على غير أساس كما شاهدت فيما نقلنا آنفا لابن سناء الملك . وهذا مثل لكل من لم يتقدم له فخر من تلك الشخصيات

قال المتنبى من قصيده

ما مقامى بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكن ... قيصى مسرودة من حديد
أنا ترب الندى ورب القوافى ... وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله ... غريب كصالح فى ثمود

وقال الرضى من قصيده

أنا من علمت قديمه وحديثه ... علم اليقين وإن جهلت فسائل
قومى الملوك وخيم نفسى خيمها ... أفلج بمثل أواخرى وأوائلى
نحن الولاة العادلون ولم تزل ... آثارنا حلى الزمان العاطل
واذا الخصوم تجادلوا فى مجدهم ... ظهرت دلالة مجدنا فى كامل

وقال أبو العلاء من قصيده

وكم من طالب أمدى سيلقى ... دون مكانى السبع الشدادا
يؤجج فى شعاع الشمس نارا ... ويقدح فى تلهبها زنادا
ويطعن فى علاى وإن شسعى ... ليأنف أن يكون له نجادا
فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا ... ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

ه — المجون — كان منشأ المجون وهو من مستحدثات العصر العباسى كما قلنا، الاستهتار الذى استهزأ بالدين فكانت الزندقة والالحاد، واستهتر بالاخلاق فكانت الرذيلة والفساد، ثم استهتر بالعرف فكان الفحش فى المعانى والبذاء فى الألفاظ. وشياطينه الأوائل وغارسو بذوره هم تلك الطائفة التى ذكرنا فى الخروج على القديم

وقد ساعد على انتشار هذه السموم ما غزا البيئات العربية من الآراء الفلسفية المختلفة والاباحية الداعية الى مشاركة الانسان لأخيه الانسان فى كل

شيء ثم عبادة المادة وعدم المبالاة بزواجر الاديان ، ذكروا أن مطيع بن اياس مر بيحيى بن زياد وحماد بن اسحق وهما يتحادثان فقال لهما فيم أنتما قالا فى قذف المحصنات فقال «أو فى الارض محصنة تقذفانها» كما ساعد عليها أيضا ما كان يعقده بعض الأمراء والوزراء من مجالس الشراب والمنادمة التى يحضرها أمثال هؤلاء فيعمرونها بالتهتك والخلاعة ويحا كونها فى صورة أشنع منها بمنازل بعضهم كما كانوا يفعلون فى منزل إسماعيل القراطيسى بالكوفة. ولقد جرت صحبة هؤلاء الى إفساد كثير من أبناء الخلفاء ، والأغانى يذكر أن جعفر بن المنصور أفسده مطيع بن اياس ، ومحمد الأمين أفسده أبو نواس وحسين بن الضحاك . ولم يلبث اضطراب الحركة الفكرية وتزاحمها فى أذهان الناس بما نقل واستنبط من حقائق فلسفية مختلفة فى الدين والرياضة والفلك والطب وسائر العلوم، أن فصل ذوى المجانة فى الدين عن مجان الفضيلة والعرف ، فكان من الأولين طائفة الزنادقة الملحدين الذين كان دأبهم التشكيك فى حقائق الدين بشكل جدى لامجانة فيه كصالح بن عبد القدوس وأبان بن عبد الحميد وعمارة بن حمزة وغيرهم، وكان من الآخرين مجان الهزل الذين دأبهم التضحيك كمن ذكرنا مع أبى نواس. ومن أمثلة مجونهم قول دعبل عن ديك له أخذه صالح المؤذن لضيوفه .

أسر المؤذن صالح وضيوفه ... أسر الكمى هفا خلاله الماقط
بعثوا عليه بناتهم وبنيهم ... مابين ناتفة وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا ... خاقان أو هزموا كتائب ناعط

نهشوه فانتزعت له أسنانهم وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

وقد كان لهذا النوع من المجون شأن كبير فى العصر العباسى الثالث ومن مشهورى رجاله بالعراق أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن سكرة الهاشمى وأبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج ومنهم بالشام أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكى . فمن مجون ابن سكرة قوله فى جارية بخراء تدعى خمرة جعلها محطا لكثير من مجونه

هل لك ياخمرة فى تجرة مربحة مامثلها تجره
سيرى الى البصرة واسترزقى ربك بالنكهة فى البصره
تزكوبها النخل وتحمر فى غير أوان الحمرة البسره

ومن مجون ابن حجاج قوله لرجل دعاه الى عرس ثم أخلف

أين نصيبى من الطعام وما طمعت فى لعقة من المرقه
أشفقت منى وكان يقنعنى عندك ماليس يوجب الشفقه
قطعة لحم فى وزن خردلة على رغيف كأنه ورقه

ومن مجون أبى الرقعمق قوله عن قيادته من قصيده .

فأطيب العيش كان عندى أيام للفسق قلدونى
وكنت طبا به بصيرا وأقود الناس فى سكون
فكم غزال أخذت قسرا وكم مليح حوت يمينى
والناس يسعون نحو دارى من كل أرض ويقصدونى

٦ — الخمريات — قلنا إن الخمريات شغلت مطالع القصائد أولا مكان التشبيبات القديمة ثم استقلت بعد بسائر القصيدة ، ولذلك تعد من الفنون الجديدة في العصر العباسى. نعم إن الخمر نالها فى عهد بنى أمية

شيء من أيام يزيد بن معاوية وأشياء على أيام الوليد بن يزيد، ولكن ذلك لم يصل بها الى أن تكون فنا من فنون الشعر مستقلا حتى جاء أبو الهندى عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحى وكان شاعرا مطبوعا من مخضرمى الدولتين فأشاد بذكرها لادمانه المعاقرة وشغفه بالشراب مع ما كان يرمى به من الفسق وفساد الدين حتى كاد شعره يكون كله فيها وكان فى تلك الاشادة كثير الحض عليها كقوله

قل للسرى أبى قيس أتهجرنا ... ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت ... فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولا نسيت حمياها ولذتها ... ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس فلم يعدل بوصفها شيئا من الفنون حتى بلغ ما قاله فيها من القصائد والمقطعات والمطالع بضعة آلاف من الأبيات ولذا عد أمام واصفيها بالاجماع، واقتدى به فى ذلك عدد ممن عاصروه وان لم يساووه. وكذلك كانت الخمريات فى العصر الثانى ثم استفحل أمرها فى الثالث على عهد آل بويه الذين كان أغلب شعرهم فيها حتى لم تبق زيادة لمستزيد. وعلى هذا الطغيان كانت فى العصر الاخير. وقد رأيت من ذلك نماذج لأبى نواس ولابن المعتز وقبلها مثلها لعز الدولة وأبى العباس ابن ركن الدولة فلم يبق إلا نموذج نأتى به من العصر الرابع نخذه للطغرائى يصفها فى شيبه ويجعلها بديلة الشباب

قد كان لى فى شبيبتى مرح ... يحدث لى بغتة بلا سبب
فمذ تولى الصبا تبين لى ... أن الصبا كان موجب الطرب
حظ تولى فلست أدركه ... إلا بعون من ابنة العنب

فهاتها من شبيبتى بدلا أقض بها بعض ذلك الأرب
صفراء مثل النضار ألبسها مزاجها لؤلؤا من الحبب
فأسعد الناس من حوت يده ماشاء من لؤلؤ ومن ذهب

٧ــ الرثاء ــ ليس الرثاء محتاجا بعصرما فى وجوده الى تعايل مادامت رحى المنايا دائرات ومادام الدهر نقادا يستلب النفيس ويفجع بالعزيز. وكل مانريدأن ننبه عليه الآن أنالرثاء فى رقيهوانحطاطه كان سائر وراء المديح وأنه لذلك بلغ فى العهد العباسى من جودة المعانى وحسن التعبير مالميصل اليه فى سابق أو لاحق من العصور .وقد رأيت من مراثى العصر الأول قصيدة أبى تمام فى ابن حميد وهى مضرب الأمثال فى عظمةالمعانى وقوة الأداء،ورأيتفىالثانىمقطعةابن الزيات فى رثاء أم ابنه عمر وهى فيض من العاطفة الباكية والشعورالمحزون، ثم رأيت فى الثالث ـ وهوأرقىالعصوررثاء لأنه أرقاها مدحا ـ رثاء الرفاءلصديقه لمصلوب وهو نوع من الرثاء جديد ورثاء الرضى للصابى ولعله أروع رثاء يتبين فيه صدق الاخاء.واليك فى الرابع نموذجالابنسنانالخفاجى فى والدته وكانالرثاء متطامنا فيه تطا من المديح .

قبحا ليومك فالنوائب بعــــده جلل وكل رزية لاتفجع
لو كان ينفعنى السلو نبذته أسفا عليك فكيف إذ لا ينفع
هيهات يجمع شمل صبر نافر قلب بأيدى الحادثات مروع
أحنو الضلوععلى بواعث غلة ضمن كادراك أنها لاتنقع
عجبا لمن يبقى ذخائر ماله ويظل يحفظهن وهو مضيع
لايغبطن على البقاء مرزأ إن المودع إلفه لمودع

٨ – الزهد – من النواميس المقررة فى حياة الجماعات أن نزوع طائفةما الى ناحية ذات غلو و إفراط يقتضى نشوء أخرى مضادة لها فى الاتجاه ولذلك لما كان الوازع الدينى على عهد الراشدين وبنى أمية قويا يكاد يشترك فى الخضوع له الناس جميعادون استهتار أحدبالخروج عليه فى تبجح وتظاهر، لم تك ترى الزهد والغلو فى الدين باديا للعيان. أماحين غزت الاباحية الشعب العربى على عهد بنى العباس للاسباب الكثيرة التى ذكرناها فيماقدمنا ونشأت من غزوها طائفة المستهترين فلم يك مفر أن توجد طائفة تقاوم تلك: همها التزهيد فى هذه الحياة بتجسيم مقابحها وتكذيب زخارفها وعدم الاغترار بما فيها من متاع إن هو الاحطام، بقدر ترغيبها فى الآخرةومافيها من لذة وخلود نعم جدت هذه الطائفة وعلى أنها كانت إزاء تلك قليلة العدد محدودة الاشخاص أمكنها بقوة الدين ومدده القويم أن تنتج من المواعظ ونواحى الارشاد ما أنارا لسبل على أيامهم وبقى بعدهم هدى للناس. ثم كان أشخاصها ذوى مكانة فى نفوس الخلفاء وسائر الحكام إن لم يكن لدى بعضهم عن عقيدة وإخلاص فلا أقل أن يكون استرضاء للعامة بتقريب هؤلاء الوعاظ. وقد كان إمامهم فى العصر العباسى الأول أبو العتاهية الذى سلف من قصصه ووعظه مافيه الغناء. ولقد تفرع عن هـــذا الوعظ بالتزهيد نوع آخر من الحكمة هو تأديب النفس بضرب الامثال وقص الحكايات وأول من فعل ذلك أبان بنظمه كليلة ودمنة وتبعه من ذكرنا آنفا حيث الكلام على هذا الكتاب. ثم اتصل الزهاد والمؤدبون فلم تخل الأرض من حجج منهم لله على توالى العصور: على أن التأديب

بالتزهيد لم يعدم أن يصدر على لسان كثير من المستهترين فيكون حجة عليهم وتقوية للزاهدين .وهذا أبو نواس يقول.

أخي ما بال قلبك ليس ينقى　　كأنك لاتظن الموت حقا
ألا يابن الذين فنوا وبادوا　　أما والله مابادوا لتبقى
ومالك فاعلمن فيها مقام　　اذا استكملت آجالا ورزقا
ومالك غير ماقدمت زاد　　اذا جعلت الى اللهوات ترقى
وما أحد بزادك منك أحظى　　وما أحد بزادك منك أشقى

٩ — الصفات — وعلى قدم الوصف فى الشعر العربى منذ العهد الجاهلى لم يبلغ فيه ولا فى العصرين بعده شيئا مما بلغ فى عصر بنى العباس. ذلك بأن منابعه الحسية من مظاهر طبيعية وآثار حضارة ، والمعنوية من مشاعر نفوس ومدركات عقول ؛ كانت محدودة فى الأول واقفة عند حدود قريبة فى الاخيرين . أما فى العصر العباسي وقد تجلت فيه مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة وخطت فيه الوجدانات والعقول خطوات لم تك فى حساب ، فقد أصبح الشاعر إذا غار فى أعماق الفكر لاينتهى بقرار واذا طار مع الخيال لا يصل الى سماء ولذلك بلغوا فى الناحيتين مبلغا يدهش عقل من لايحيط بنواحى هذا الانقلاب الشمول. وليس يألو ماذكرنا من نماذج وما استشهدنا به فى معظم مامضى وبخاصة فى ناحية المعانى والأخيلة أن يكون دلائل ناطقة وآيات بينة على صدق مانقول فارجع اليه وإنه لقريب . ويكفى أن الوصف قد خلق بعض نواحى منذ العصر الأول وأنضجها فيه حتى صارت فنا مستقلا كما تقدم فى الخمريات. ولم يقف دون السير فى هذا العصر نفسه

بفن آخر جديد هو وصف هذه الرياض وماتحوى من آيات جمال كما رأيت فى بعض مااخترنا، ثم ماكاد الزمن يخطو الى العصر الثانى حتى استوى هذا الفن على سوقه يعجب الزراع وصدر فيه على ألسنة كثير من الشعراء مايبهر الناظرين وإليك بعض ماقيل

قال ابن المعتز يصف إقبال الربيع

ماترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار
وغناء الطيور كل صباح وانفتاق الأشجار بالأنوار
وكأن الربيع يجلو عروسا وكأنا من قطره فى نثار

وقال على بن الجهم يصف الورد

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها وراحت الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده الى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته أو مانعا جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد
ماقابلت طلعة الريحان طلعته الا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لاعذب الله إلا من يعذبه بمسمع بارد أو صاحب نكد

وقال ابن الرومى ـ وكان مولعا بالخلاف ـ يفضل النرجس على الورد

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه الا وناحله الفضيلة عاند
للنرجس الفضل المبين إذا بدا بين الرياض طريفه والتالد

فصل القضية أن هـذا قائـد   زهر الربيع وأن هـذا طارد
شتان بين اثنين هـذا موعد   بتصرم الدنيا وهـذا واعـد
فاذا احتفظت به فأمتع صاحب   بحياته لو أن حيا خالد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه   وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك فى الملاح سميه   أبدا فانك لامحالة واجـد
والورد إن فتشت فرد فى اسمه   مافى الملاح له سمى واحـد
هذى النجوم هى التى ربتهما   بحيا السحـاب كما يربى الوالد
فانظر الى الولدين من أدناهما   شبهـا بوالده فـذاك الماجـد
أين الخدود من العيون نفاسة   ورياسة لولا القياس الفاسـد

وحين أقبل العصر الثالث صارت الزهريات من أوسع فنون الشعر فلم تبق زهرة ولا ريحانة ولا أى شىء مما تنبت الرياض على اتساع الرياض الا أشبعه شعراؤه نعتا ووصفا. استمع الى القاضى على بن محمد التنوخى يقول

ورياض حاكت لهن الثريا   حللا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها   فتحلت بمثل در الخدود
أقحوان معانق لشقيق   كثغور تعض ورد الخدود
وعيون من نرجس تتراءى   كعيون موصولة التسهيد
وكأن الشقيق حين تبدى   ظلمة الصدغ فى خدود الغيد
وكأن الندى عليها دموع   فى عيون مفجوعة بفقيد

وعلى هذا الافتنان بقيت الزهريات فى العصر الرابع ، قال الأرجانى يصف روضة فى مطلع قصيدة غزليه

ماروضة أضحكت صبحا مباسمها ‏ دموع قطر عليها الليل ينسفك
فالنرجس الغض عين كلها نظر ‏ والأقحوانة ثغر كله ضحك
وللشقائق زى وسطها عجب ‏ إذا تمايلن والأرواح تأتفك
حمر الثياب تطير الريح شائلة ‏ أذيالها وهى بالأزرار تمتسك
اذا الصبا نبهت أحداقها سحرا ‏ حسبت مسكا على الآفاق ينفرك
أتم طيبا وحليا من ترائبها ‏ اذا اعتنقنا وخيل الليل تعترك

ولم يترك الوصف شيئا بعد هذين الفنيين من سائر فنونه الا أجاد فيه كما ترشد الى ذلك بعض النماذج والمستشهد به من الأبيات ومن العسير أن نتعرض للاستقصاء فان الباب طويل

١٠ — وأخيرا هناك فن عاشر لايصح إغفال التنبيه عليه هنا وإن سبقت الاشارة اليه،هو ضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها بالمزدوجات وغير المزدوجات نعم إن هذا الفن قد ابتذل الشعر وحط من قدره لأنه أخرجه فى معناه من أودية الخيال ومشاعر الوجدان ،وبعد به فى لفظه عن أناقة التعبير ورشاقة الاسلوب ولكن ذلك ليس بمخرجه عن أنه من فنون الشعر على أية حال. وإذ قد فاتنا التمثيل له فيما مضى فلنأت منه فى كل من العصرين الثالث والرابع بمثال لكثرته فيهما نظرا لتقدم العلوم

قال ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ فى الحد من منظومة له فى المنطق

إذا أردت أن تحد حدا ‏ فرتب الجنس القريب جدا
فانه يحصر كل ذاتى ‏ يكون للمحدود فى الصفات
ثم اطلب الفصول فهى الحاده ‏ من صورة أخذتها أو ماده

وقال الحريرى فى أدوات الشرط من ملحة الاعراب

هذا وإن فى الشرط والجزاء　　تجزم فعلين بلا امتراء
وأختهـا أى ومن ومهمـا　　وحيثما أيضا وما وإذما
وأين منهن وأنى ومـتى　　فاحفظ جميع الادوات يافتى

هـذا

ومما تقدم عن الشعر نماذج وقولا فى تلك النواحى الثلاث يتبين القارىء فضل المولدين عليه وكثرة حسناتهم فيه كما لايعدم أن يجد لهم فى كل ناحية بعض السيئات كانتقال الأعجمى على حاله ، وتعمل الصناعة اللفظية وغيرها فى الالفاظ والاساليب. وكتعمد الفلسفة الى درجة الخفاء والتصور الى حد الاغراب، وكذا الغلو فى المبالغات الى قة الاغراق وغيرها فى المعانى والاخيلة . ثم عدم التعفف عن الغزل فى المذكر والانحدار فى الخمريات والمجون وغيرها فى المقاصد والاغراض. على أن ذلك لايبرر لنا التعصب عليهم تعصبا يعمينا عما لشعرهم من حسن وجمال أو يجعلنا ننكره مع معرفتنا بجودته كما كان يفعل فى الحالتين كثير من القدماء[1] فان العقل يقضى بالعدل فى الحكم لهم

(١) من رجال الحالة الاولى أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فقدكان يأنف أن يروى للشعراء الاسلاميين فضلا عن المحدثين وهو الذى جالسه الاصمعى حياة طويلة فما سمعه يحتج ببيت إسلامى وكذلك كان الاصمعى ، ولكنه كان يستحسن بعض الشعر الحديث. ومن رجال الحالة الثانية ابن الاعرابى المتوفى سنة ٢٣١ فقد روى عنه أنه عرضت عليه أرجوزة لأبى تمام على أنها لأحد شعراء العرب فنالت منه نهاية الاستحسان حتى قال« هذا هو الديباج

وعليهم كالاقدمين سواء وقد أنصفهم ابن قتيبة وابن رشيق في ذلك بعض الانصاف (١)

وبعد

فانا واجدون من الحتم ألا ننهى الكلام على الشعر بعد الذى أسلفنا عن نهضته من حيث الأسباب والمظاهر فى تلك النواحى الثلاث دون أن نتعرض إجمالا لثلاث نواح أخرى تتصل بتلك النهضة ، هى مواطن الشعر وطبقات رجاله، ثم العوامل المساعدة لاسباب النهوض، ثم الغناء ومجالسه ، لاتصاله الوثيق بالشعر والشعراء

مواطن الشعر وطبقات رجاله

عرفت مما ذكرنا عن طابع كل عصر من العصور العباسية الاربعة فى حياة اللغة أن بغداد فى العصر الأول كانت محط الرحال وكعبة الآمال ومظهر العظمة والجلال لقوة الخلفاء فيه قوة تجعلهم مناط تحقيق الآمال ومفزع تفريج الكرب والآلام ولذلك تركز فيها كل شيء وقصدها ذوو الغايات من كل فن وفى مقدمتهم جمهرة الشعراء قصد توطن

الخسروانى .» واستكتبها فلما أنهاها قيل له إنها لابى تمام فلم يخجل أن قال «من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة » وألقى الورقة من يده وقال « خرق خرق ياغلام »

(١) كان ابن قتيبة يقدم القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة وأنه مرجع النحوى فى الشواهد واللغوى فى معانى المفردات والتراكيب ، ويقدم الحديث لعذوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه . وكان ابن رشيق على النحو من ذلك فقد جعل مثل القديم والحديث مثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن

وإقامة لا زيارة وإياب. ومن هنا كانت كل طبقاتهم من أهلها وإن كانوا في النشأة والنسب متعددي الأوطان. وعرفت أنها بالرغم مما أصابها في العصر الثاني بقيت مركز الادب وعش الشعر ولكن في تطامن وخضوع وقد ظهر من الشعراء في العصرين ست طبقات أولاها طبقة بشار من مخضرمي الدولتين وأشهر رجالها بشار وحماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وصالح بن عبد القدوس وأبو دلامة والسيد الحميري، ومروان بن أبي حفصة؛ ومن رجازها رؤبة بن العجاج. وثانيتها طبقة أبي نواس التي نشأت في صدر الدولة العباسية وأشهر رجالها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع بن عمرو السلمي وسلم بن عمرو الخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان بن عبد الحميد وكلثوم بن عمرو العتابي وأبو الشيص محمد بن رزين، ومن رجازه عمارة بن عقيل. والثالثة طبقة أبي تمام التي نشأت في آخر العصر الأول ومعظم رجالها أدرك العصر الثاني وأشهرهم أبو تمام ودعبل الخزاعي وديك الجن عبد السلام بن رغبان وعلي بن الجهم. والرابعة طبقة البحتري التي ظهرت شاعريتها في أول العصر الثاني وأشهر شعرائها البحتري وابن الرومي وابن الزيات. والخامسة طبقة ابن المعتز في وسط هذا العصر ومن شعرائها عبد الله بن المعتز وأبو الحسن علي بن محمد البسامي البغدادي. أما السادسة فهي الناشئة في آخره ومن شعرائها أبو القاسم نصر بن أحمد المعروف بالخبز أرزي وأبو بكر الحسن بن علي المعروف بابن العلاف. ومن الشواعر في الأول علية

المهدى. ومنهن فى الثانى فضل جارية المتوكل على الله العباسى وكان منزلها مجتمع الأدباء.

ثم عرفت أنها بدأت منذ العصر الثالث تفقد نفوذها وسطوتها لتفكك أوصال الدولة بانشاء الدويلات المزاحمة لها بحواضرها فيما كانت به ذات استئثار. فأخذ كل شيء يرحل منها الى تلك الحواضر حتى لم يبق لها إلا نصيب يسير وكان أن توزع اشعراء على الاقاليم أكثر مما توزع الادباء والعلماء فصار لشعراء كل أقليم من المزايا والخواص مالم يكن لغيرهم من سائر الشعراء.

وإنك بالرجوع الى ماذكرنا فى التصوير السياسى لهذا العصر تجدهم كانوا منضوين فى الممالك الشرقية لامارات غير عربية كآل بويه بالعراق وفارس ، والسامانيين فيما وراء النهر ، والغزنويين بخراسان . فى حين كانت الممالك الغربية عربية كالحمدانيين بالجزيرة والشام ، والفاطميين بمصر . أما الاخشيديون الاتراك بها فلم تكن مدتهم وهى ثلث قرن ذات تأثير . ومن ثم تحكم بأن الشعر فى الممالك الغربية كان خيرا منه فى الشرقية كما تحكم بأنه كان فى العراق وفارس خيرا منه فيما وراء النهر وخراسان. وفى الشام والجزيرة خيرا منه فى مصر؛ وأنه كان فى الوسطين خيرا منه فى الطرفين . وعلى هذا يكون الشعراء بالنسبة الى الاقاليم أربع طبقات وإليك أسماء أشهرهم على هذا التقسيم

فمن شعراء الجزيرة والشام أبو الطيب المتنبي فاتحة شعراء العصر وأبو فراس الحمدانى وكثير غيره من آل حمدان وأبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيبانى وأبو الفتح كشاجم محمود بن الحسين

الرملى والسرى الرفاء وأبو الفرج الوأواءوأبو الفرج الببغاءوأبو العباس النامى وأبو طالب الرقى وعبد المحسن الصورى وأبو الرقعمق وأبو القاسم الواسانى وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ثم خاتمته صاحب المعرة أبو العلاء

ومن شعراء مصر أبو محمد الحسن بن على بن وكيع التنيسى وأبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل بن طباطبا الحسنى وأبو القاسم بن أبى العفير الانصارى ومحمد بن عاصم الموقفى وأبو على الأمير تميم بن المعز الفاطمى والتهامى وكان فى الشام قبل.

ومن شعراء العراق وفارس الصابى وتاج الدولة بن عضد الدولة البويهى وكثير غيره من آل بويه والوزير المهلبى أبو محمد الحسن بن محمد وابن دريد والقاضى التنوخى أبو القاسم على بن محمد وابن لنكك أبو الحسن محمد بن محمد وأبو عبد الله الحسين بن على النمرى وأبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى وابن نباتة السعدى والشريف الرضى ومهيار وأبو الحسن على بن زريق وابن سكرة وابن حجاج

ومن شعراء ماوراء النهر وخراسان أبو الطيب طاهر بن محمد الطاهرى وأبو الحسن على بن الحسن اللحام وأبو محمد الحسن بن على المطرانى وأبوطالب عبد السلام بن الحسن المأمونى وأبو محمد عبد الله ابن عثمان الواثقى وأبو محمد عبد الله بن ابراهيم الرقاش والخوارزمى والهمذانى وأبو الفتح البستى وأبو الفضل الميكالى وأبو النصر محمد بن عبدالجبار العتبى وأبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى

وقد كان للثعالبى هذا على شعراء هذا العصر الثالث فضل ليس

لغيره مثله بتدوين أخبارهم فى كتابه الخالد « يتيمة الدهر » ذى الاقسام الاربعة فقد جعل القسم الاول وهو أضخمها لشعراء الشام وما حواليها من الجزيرة شرقا ومصر غربا وفيه عنى بآل حمدان، وجعل الثانى لشعراء أهل العراق وفيه عنى بآل بويه، وجعل الثالث لشعراء فارس وما اليها من جرجان وطبرستان منشأ البويهين، وجعل الرابع لشعراء ماوراء النهر وخراسان موطن السامانيين والغزنيين . وعقد فى أول القسم الاول بابا فى فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان كان مما قال فيه

« لم يزل شعراء عرب الشام ومايقاربها أشعر من شعراء عرب العراق ومايجاورها فى الجاهلية والاسلام . والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العربية ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم، ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبنى ورقاء هم بقية العرب المشغوفون بالادب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم وما منهم الا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل، انبعثت قرائحهم فى الاجادة فقادوا محاسن الكلام بالين زمام وأحسنوا وأبدعوا ماشاءوا »

ولما حل العصر الرابع وطوحت أحداثه بآل بويه من العراق وفارس، ومن قبلهم بالسامانيين فيما وراء النهر وبالحمدانيين فى الجزيرة

والشام،اضمحل الأدب والشعر فى خراسان إذ لم يبق فيه الا الغزنيون وايسوا للعربية بنصراء وبقى ضعيفا فى فارس والعراق ثم تنزل عن الهامة التى كانت له فى الجزيرة والشام وارتفع اليها فى مصر لبقاء الفاطميين. حتى إذا مازال الغزنيون من الشرق والفاطميون من الغرب فى نصفه الثانى تقلص نهائيا من القاصية واشتد ضعفه فى فارس وصار وسطا فى العراق والجزيرة ثم نزل عن الهامة فى مصر حتى كاد يصل مستوى الشام ، ولكن ساعد على بقائه ناميا فيهما إذ ذاك الحروب الصليبية أيام بني أيوب. وهذه أسماء أشهر الشعراء فيه بكل إقليم مرتبة على حسب التنازل فى القوة من الغرب الى الشرق ·

فى مصر — ابن زقاق البلقينى وظافر بن القاسم الاسكندرى وابو الفتوح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلاقس الازهرى وعمارة اليمنى وهبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المصرى وكمال الدين بن النبيه المصرى وابن عنين وأبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة وأبو حفص عمر بن الفارض وأبو الحسن جمال الدين بن مطروح والأمير سيف الدين الياروقى ثم أبو الفضل بهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ .

فى الشام — ابن سنان الخفاجى وابن حيوص الغنوى ومهذب الدين أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسى وبهاء الدين أبو الحسن بن على الساعاتى والملك الأمجد أبو المظفر بهرام شاه الأيوبى وشهاب الدين أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل المعروف بالشواء الحلبى وأمين الدين عبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبي وصدر الدين محمد بن عمر بن

على بن حمويه الدمشقى ونور الدين محمد بن محمد الاسعردى ثم صدر الدين على بن أبى الفرج بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٦٥٩ .

فى الجزيرة والعراق — الطغرائى ودلال الكتب أبو المعالى سعد ابن على الخزرجى وابن التعاويذى ونجم الدين أبو الغنائم محمد بن على المعروف بابن المعلم الواسطى وحسام الدين أبو يحيى عيسى بن سنجر الحاجرى وأبو الطيب أحمد بن محمد المعروف بابن الحلاوى والصرصرى أبو زكريا يحيى بن يوسف البغدادى والأمير علم الدين أيدمر المحيوى التركى ثم محيى الدين الوترى البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢

فى فارس — ٥ ردر وأبو الحسن على بن الحسن الباخرزى ومعين الدين أحمد بن عبد الرازق الطنطرانى وابن الهبارية وابن الخياط والغزى والارجانى والابيوردى السابق فى النماذج .(١)

العوامل المساعدة لأسباب النهوض

نعنى بهذه العوامل المساعدة، ماجاء مقويا لعوامل النهضة الأولى التى شرحناها فى كل من الألفاظ والمعانى والأغراض وهى كثيرة فلنكتف هنا بذكر أهمها: —

١ — الاهتزاز للمديح وإجزال العطايا وقد تقدم الكلام عليه مع المدح .

٢ — تذوق الخلفاء ورجالات الدولة للأدب — فقد كانوا منذ أوليتهم ذوى أذواق أدبية سليمة يعرفون بها الغث والسمين ويميزون

---

(١) اكتفينا فيمن تقدم نسبهم بالاسم المشهور وأكملنا الاسم فى غيرهم .

الحسن والأحسن قال الربيع بن زياد قلت للمنصور يوماإن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم فقال اخرج اليهم فاقرأ عليهم السلام وقل لهم عني:من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد فانما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فانما هى دويبة منتنة تأكل التراب ولا بالجبل فانما هو حجر أصم ولا بالبحر فانما هو لجب غطامط فمن ليس فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فلينصرف قال الربيع فانصرفوا كلهم إلا إبرهيم بن هرمة فانه قال أنا له يا ربيع فأدخلني فأدخلته فلما مثل بين يديه قال لى المنصور ياربيع قد علمت أنه لايجيبك أحد غيره هات يابن هرمة فأنشده قصيدته التى يقول فيها .

له لحظات عن حفافى سريره إذا كرها فيها عذاب ونائل
له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

فقال حسبك هاهنا بلغت هذا عين الشعر قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم . وقد تبعه فى ذلك ابنه المهدى وحفيداه الهادى والرشيد وتناهى ذلك فى الرشيد فكان أعلم بالشعر من الشعراء . قال سعيد بن سلم قدم على الرشيد أعرابى فمثل بين يديه فقلت ياأعرابى خذ فى شرف أمير المؤمنين فاندفع فى شعره فقال الرشيد ياأعرابى أسمعك مستحسنا وأنكرك متهما فقل لنا بيتين فى هذين ـ وأشار الى الأمين والمأمون وكانا حفافيه ـ فقال ياأمير المؤمنين حملتنى على الوعر القردد وأرجعتني عن السهل الجدرد،روعة الخلافة وبهر الدرجة ونفور القوافى على البديهة فأرودنى تتألف لى نوافرها ويسكن روعى قال

قد فعلت وجعلت اعتذارك بدلا من امتحانك فقال ياأمير المؤمنين نفست الخناق وسهلت ميدان السباق وأنشأ يقول

بنيت لعبد الله ثم محمـــد ذرى قبة الاسلام فاخضر عودها
هما طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد وأنت ياأعرابى بارك الله فيك فسل ولاتكن مسألتك دون إحسانك.قال الهنيدة ياأمير المؤمنين فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع — الهنيدة مائة من الابل — . ودخل عليه سهل بن هارون فوجده يضاحك المأمون فقال اللهم زده من الخيرات وابسط له فى البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه مقصرا عن غده فقال الرشيد ياسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ومن الحديث أصحه وأبلغه ومن البيان أفصحه وأوضحه إذا رام أن يقول لم يعجزه قال سهل ياأمير المؤمنين ماظننت أحدا تقدمنى الى هذا المعنى فقال الرشيد بل أعشى همدان حيث يقول .

وجدتك أمس خير بنى لؤى وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد كان المأمون كأبيه الرشيد.أنشده مرة مروان بن أبى حفصة قوله :—

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فلم يطرب له فساءه ذلك وذهب الى عمارة بن عقيل يقول له أعلمت أن المأمون لايبصر الشعر فقال له عمارة ومن ذا يكون أعلم به منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره قال مروان فانه

لم يتحرك لقولى وأنشده البيت فقال عمارة إنك والله ماصنعت شيئا وهل زدت أن جعلته عجوزا فى محرابها وفى يدها مسابحها فمن القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبد العزيز بن مروان .

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولاعرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان الآن علمت أنى أخطأت .

لذلك كان الشعر شفيعا اليهم فى عظائم الذنوب؛ خرج محمد بن البعيث على المتوكل فأرسل اليه من أتى به أسيرا فأمر بضرب عنقه فأنشد .

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى إمام الهدى والصفح بالناس أجمل

وهل أنا إلا جبلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل

فانك خير السابقين الى العلا ولاشك أن خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل لجلسائه إن فيه لأدبا وأمر باطلاقه والعفو عنه.

وقد شايع خلفاء العصر الأول فى ذلك رجالات الدولة وأعيانها وقصص البرامكة فى هذا أمر يطول ، كان أبان على أيامهم يرتب لهم الشعراء فى التقدم بهم اليهم والى الخلفاء. ثم بقى لخلفاء العصر الثانى من ذلك شبه ما كان لأسلافهم فى الأول ولكن غض منه وخفض من همتهم جهل الخدم الأتراك المستبدين عليهم، بمعانى الشعر وأقدار الشعراء فلم يظهر بمظهر أسلافه منهم الا القليل كعبد الله بن المعتز صاحب اليد الطولى على الأدب والشعر والفتوح الواسعة فى نواحى البديع والمعانى وميادين الخيال. ولكن لما جاء العصر الثالث وتعددت الحواضر نافس ملوك الدويلات وأمراؤها وأعيانها بعضهم بعضا فى النهوض بالأدب

كما عرفت ذلك حيث الكلام على ميزات العصر الثالث فى صدر الكتاب عن آل حمدان وآل بويه والفاطميين .فرقى الشعر بهذا النهوض . أما العصر الرابع فقد أخذحكامه يسيرون نحوالجهل بالأدب الى الوراء فقلت رغبة الشعراء فيه وإن بقى للشعر على أيامه بقاء فى مصر والشام والجزيرة والعراق وبعض فارس دون خراسان،على النحو الذى ذكرناه فى مواطنه وطبقات رجاله منذ الآن .

٣– عقدهم لمجالس الشعر – لعل أول خليفة إسلامى عقد مجالس للأدب عامة وللشعر خاصة بالمعنى الذى نريده الآن،عبدالملك بن مروان الخليفة الأموى العظيم وقد دونا عن مجالسه الأدبيه فى كتابنا الثانى الشىء الكثير ؛ وجاراه فى شبه ذلك أبناؤه من بعده وخاصة هشام. ثم جاء العصر العباسى ولخلفائه ميل شديد الى هذه المجالس ولكنه لم يظهر واضحا أيام أولهم أبى العباس لقصر مدته مع اشتغاله فيها بالسياسة ليل نهار ثم ظهر فى عهد اخيه المنصور صاحب الرسالة السابقة الى الشعراء على لسان حاجبه الربيع بطلب النزوع عن القديم الى الجديد. وقد سخا الوقت بهذه المجالس لابنه المهدى فعقد منها الكثير ، عقد يوما مجلسا لمروان بن أبى حفصة حشد فيه وجوه بنى العباس فلما تتام الناس دعاه فأنشده .

كأن أمير المؤمنين محمــــدا لرأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهم
سقته به الموت الحتوف الرواصد

فأشار اليه فامسك ؛ فقال يابنى العباس هذا شاعركم المنقطع

اليكم المعادى فيكم فآتوه مايسره فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم وأعطاه هرون مثلها وأعطاه سائر البيت كل على قدر حاله فبلغ ما أعطوه أربعين ألف درهم وأعطاه هو ثلاثين ألفا ثم قال له وسيأتيك منى مايؤديك الى الغنى فقال له مروان قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت منى ماسأزداد به شعرا وستسمع ويبلغك فلا يبلغ ما أعطيتنى لشاعر بعدى قال أجل قال فأذنى فى زيارتك قال آذنتك قال لى فيك وفى أهل بيتك عدو فان رأيت ألا تجعل لأحد على سلطانا دونك قال لاسلطان عليك دون أمير المؤمنين . وعقد ابنه موسى الهادى حين وقع اليه سيف عمرو بن معديكرب الزبيدى وكان معنيا بجمع السلاح مجلسا للشعراء اقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز صمصامة الزبيدى من بيـــن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد من ذعاف يميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ما سللته بهر الشمـــس ضياء فلم تكد تستبين
مايبالى من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقبس المشعـــل ماتستقر فيه العيون
وكأن الفرند والجوهر الجا رى على صفحتيه ماء معين

فمنحه عشرين ألف درهم . ولما عقد الرشيد البيعة لابنه الأمين أخذ يستمع للشعراء فأنشده سلم

قد وفق الله الخلافة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأزهر

فهو الخليفه عن أبيه وجده   شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان فى مهد الهدى   لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

فانهالت عليه العطايا من الرشيد والسيدة زبيدة حتى ناء، وكذلك فعل حين عقد البيعة من بعده للمأمون . وحتى المعتصم على أميته كان يطرب للأدب ويعقد مجالس للشعر، اجتمع الشعراء ببابه مرة فبعث اليهم من يقول لهم، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النميرى فى الرشيد ـ وأنشد الأبيات التى تقدمت فى صدر الكتاب ـ فليدخل فقال محمد بن وهيب الحميرى فينا من يقول خيرا منه ودخل فأنشده قصيدته التى منها

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو اسحق والقمر
فالشمس تحكيه فى الاشراق طالعة   اذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجا   اذا استنارت لياليه به الغرر

فهش له وبالغ فى جائزته . وكانت مجالس ابنه المتوكل للشعراء ومكانة البحترى فيها مضرب الأمثال ولكن بعده كسدت مجالس الأدب وقمع الشعراء حتى أحياها ملوك الدويلات فى الشام ومصر والعراق كما علمت آنفا. ثم عاودها الكساء فى النصف الأول من العصر الرابع حتى زالت فى نصفه الأخير .

٤ — رقى الغناء ومجالسه لما لذلك من صلة وثيقة برقى الشعر وإشهار الشعراء كما سترى فى الكلام عليه الآن

الغناء ومجالسه

قد عرفت مما ذكرناه فى العصر الأموى أن الغناء نهض فيه

وأنهض معه الشعر لحاجة الحياة المترفة إليه فى مدن الحجاز . وإذ كان الترف منذ العصر العباسى الاول قد بلغ أقصى الغايات فلا بد أن يكون الغناء قد بلغ فيه مثل ذلك وأثر فى النهوض بالشعر أوضح تأثير واليك البيان

اتخذ المغنون أصواتهم من الشعر فدفعوا بالشعراء الى توخى السهولة والرشاقة فى الأساليب، وتطلب الجمال والرقة فى المعانى، وابتكار الجديد اللائق فى الاغراض . وقد كان الغناء بشعر شاعر فى حضرة خليفة ووزير أو ملك وأمير يثير فى نفسه من المشاعر الكامنة والوجدانات الخافية مايقوى فيه ملكة الشعر حتى يظفر كل يوم بمزيد . كما كان التسابق فى هذا المجال يولد لدى كل منهم الطمع فى أن يكون المجلى فى هذا السباق وفى ذلك للغناء على الشعر فضل كبير . على أن له عليه فضلا آخر هو إشاعته بين الناس لما هو طبيعى فى الانسان من حب الغناء والميل الى استماعه سيان فى ذلك الفرح والمحزون لحسن موقعه فى القلب ووصوله دون أى تفاهم آخر الى أعماق النفس، نعم كان ذلك سببا فى أن يلهج الناس بالشعر الذى يغنى فيه ويكثروا إنشاده فى المجتمعات وفيما بينهم وبين أنفسهم بترديد أبياته استمتاعا بمعانيها أو الترنم بهااستعادة لأنغامها. ولهذا عقد بين المغنين والشعراء إخاءوثيق، بل لهذا وجد من المغنين من أجاد الشعر ومن الشعراء من أتقن الغناء وكانت مجالس المغنين أحفل جمعا وأكثرعددا من مجالس الشعراء وإليك مجلسا منها للرشيد

جمع الرشيديومابين المغنين المتعصبين للقديم منهم كابرهيم الموصلى

وابنه إسحق، ونصراء الجديد كاسماعيل بن جامع[1] ثم أمر إبرهيم أن يغنى فغنى الصوت

وقفت على ربع لمية ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره ومـــلاعبه

فكان كل من فى المجلس يجيبه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد، فأشار مسرور الخادم الى ابن جامع فغنى

كأن أحور من غزلان ذى بقر أعارها شبه العينين والجيـدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فما أمل ولا توفى المواعيـدا
كأنني حين أمسى لاتـكلمنى ذو بغية يبتغى ماليس موجودا

فاستخف الطرب الرشيد أيما استخفاف ثم غنى إسحق

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى مابيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لايعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

---

(١) كان الغناء كله أول العصر العباسى على القديم فلما جاء ابراهيم ابن المهدى لم يتقيد به وقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ وانضم اليه جماعة منهم إسماعيل المذكور وفليح بن أبى العوراء ويحيى المكى وعمرو بن نابه وحسين بن محرز وغيرهم، وبقى إبراهيم الموصلى على القديم وانضم اليه جماعة منهم إسحق ابنه وسليم بن سلام وزبير بن دحمان ومحمد بن الرف واحمد بن يحيى ومحمد بن حمزه وغيرهم . ولم يلبث المجددون أن أتقنوا ما خرجوا فيه فكان فى خروجهم فتح مبين للغناء

فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طربا وقال « والله ما الغناء الذى يلين العريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طربا الا غناء إسحق » ثم أومأ الى المغنين أن يحلوا صفوفهم وفرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من ألف دينار الى خمسمائة الى مادون ذلك

هذا وقد اعتنى الخلفاء بالغناء أكثر من عنايتهم بالشعر وأكرموا المغنين أكثر مما أكرموا الشعراء واتخذوا منهم الندماء والسمار وأسقطوا الكلفة عنهم وكانوا يزورونهم فى منازلهم ويهبونهم أياما ينقطعون فيها الى لذتهم فلا يطلبونهم مع شغفهم بمجاورتهم. ثم كان أن أقبل بعضهم على الغناء يتعلمه كما أقبل كثير من أقربائهم حتى أجاده عدد منهم كابرهيم بن المهدى وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن الهادى وعبد الله بن الأمين وأبو عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز. بل من الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتلحين كالواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد، كل ذلك ذكره صاحب الاغانى وساق على بعضه الشواهد. ولعل أشد هؤلاء جميعا ولعا بالغناء أبو عيسى بن المتوكل الذى كانت مجالسه فيه تجاوز حدود الوصف. جمع مرة بين المشدود وزنين ودبيس فغنى المشدود

لما استقل بأرداف تجاذبه   واخضر فوق حجاب الدر شاربه
وأشرق الورد فى نسرين وجنته   واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة   فكان من رده ماقال حاجبه

ثم سكت وغنى زنين

الحب حلو أمرته عواقبه   وصاحب الحب صب القلب ذائبه

أستودع الله من بالطرف ودعني يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعي الشوق يهتف بي ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى ذبيس

بدر من الانس حفته كواكبه قد لاح عارضه واخضر شاربه
إن يمنح الوعد يوما فهو مخلفه أو ينطق القول يوما فهو كاذبه
عاطيته كدم الأوداج صافية فقام يشدو وقد مالت جوانبه

ثم عادوا فغنوا بلحن واحد وقافية واحدة فى كل ثلاثة أصوات كما رايت فى هذه حتى تم لكل عشرة أصوات غير الصوت الذى ابتدأ به؛ فطلب أبو عيسى من المشدود وحده أن يغنى صوتا يكون ختام المجلس فغناه إياه فأثابهم جميعا ولو أنه قطعهم ماانقطعوا

وقد مال القوم استكمالا للمتعة منذ الصدر الأول أن يؤدبوا الجوارى ويعلموهن الغناء فكان من ذلك قينات يجمعن الى جمال الأنوثة أدب الشعراء وصنعة المغنين واتخذ ذلك أرباب هذا الفن تجارة رابحة إذ كانوا يستحضرون الجارية غفلا بنحو مائتى دينار فاذا ماثقفوها باعوها بعشرات الآلاف [1] وغالى الناس فى اقتنائهن حتى كان عند الرشيد ثلثمائة من المغنيات واليك حكاية عنان جارية الناطفى فى أدبها رواية بكر بن حماد وفى وصولها الى الرشيد رواية إبرهيم بن عمر .

قال بكر ـ وقد انتهى اليه أدبها ـ خرجت معترضا لها فما راعنى الاالناطفى مولاها قد ضرب على عضدى فقال هل لك فيما سنح من طعام وشراب

---

(١) روى أن الرشيد اشترى إحدى الجوارى بمائة ألف دينار بل روى أن الأمين ثمن أخرى بألف ألف دينار وليس ذلك على تبذيره فى لهوه ببعيد.

ومجالسة عنان قلت مابعد عنان مطلب فمضينا حتى أتينا منزله فدخل فقال لها هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم فقالت لا والله إنى كسلانة فحمل عليها بالسوط ثم قال لى ادخل فدخلت ودمعها يتحدر كالجمان فى خدها فطمعت بها فقلت

هذى عنان أسبلت دمعها　　كالدر إذ ينسل من خيطه

ثم قلت أجيزى فقالت

فليت من يضربها ظالما　　تجف كفاه على سوطه

فقلت إن لى حاجة فقالت هاتها فمن سببك أوذينا قلت لها بيت وجدته على ظهر كتابى لم أقرضه ولم أقدر على إجازته قالت قل فأنشدتها

فما زال يشكو الحب حتى حسبته　　تنفس فى أحشائه فتكلما

قال فأطرقت ثم أنشدت

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه　　إذا مابكى دمعا بكيت له دما

فقلت لها فما عندك فى إجازة هذا البيت

بديع حسن بديع صد　　جعلت خدى له ملاذا

فأطرقت ثم قالت

فعاتبوه فعنفوه　　فأوعدوه فكان ماذا

وقال ابرهيم ـ جلس الرشيد ليلة ومعه سماره فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير التى يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا　　وشلا بعينك لايزال معينا

فطرب طربا شديدا وأعجب بالأبيات وقال لجلسائه هل منكم أحد

يجيز هذه الأبيات بمثلهن وله هذه البدرة وكانت بين يديه بدرة من دنانير قال فقالوا فلم يصنعوا شيئا فقال خادم على رأسه أنا بها لك يا أمير المؤمنين قال شأنك. فاحتمل البدرة ثم أسرع الى الناطفى فقال له استأذن لى على عنان. فأذنت له فدخل وأخبرها الخبر فقالت ويحك وما الأبيات فأنشدها إياها فقالت اكتب

هيجت بالقول الذى قد قلته ... داء بقلبي مايزال كمينا
قد أينعت ثمراته فى طينها ... وسقين من ماء الهوى فروينا
كذب الذين تقولوا ياسيدي ... إن القلوب اذا هوين هوينا

فدفع اليها البدرة ورجع بالابيات الى هرون فقال له ويحك من قالها قال عنان فقال خلعت الخلافة من عنق إن باتت الا عندى. وبعث الى مولاها فاشتراها منه بثلاثين ألف دينار وباتت بقية الليلة عنده .

بهذا التشجيع وغيره رقيت صناعة الغناء حتى صارت فنا ذا مؤلفات (١) وزادها رقيا اختصاص كل مغن بلحن أو أكثر يضع فيه الكثير من الاصوات (٢) كما رقيت بجوار الغناء مع الشعر الذى هو مدد

---

(١) ذكر ابن النديم من مؤلفات الغناء كتبا جلها ضائع الآن منها كتاب النغم للخليل ، وأخبار المغنين لاسحق وكتاب آخر له جمع فيه أغانيه ، والآداب الرفيعة فى الغناء والمنادمات لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، كما ذكر أن لجحظة البرمكى وحسن بن موسى النصيبي تآليف فيه أيضا. والباقى الآن هو الأغانى ولكن أبا الفرج أخلاه من قواعد الغناء الا ماكان اشارة ورمزا وغلب عليه الصبغة الأدبية فى أخبار المغنين والشعراء

(٢) كانفراد فليح بن أبى العوراء بالنواقيسى وإبراهيم الموصلى

الاصوات صناعات استخدام آلات الطرب من عود وناى وطبل وغيرها وانبرى الشعراء يصفون هذه الآلات كما يصفون القيان فيأتون بأبدع الاوصاف . قال ابن الرومى يصف القيان وفى أيديهن الآلات

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

وكأن القيان أردن أن يقابلن ذلك الجميل من الشعراء بجميل مثله فكن ينقشن بعض أبيات الشعر فى أكفهن بالحناء أو يكتبنها على ما يرتدين من ملبس ويمسكن من أدوات . نقشت إحداهن بالحناء فى كفها

ليس حسن الخضاب زين كفي حسن كفى زين لكل خضاب

وكتبت أخرى على عصابتها

ألا بالله قولوا يارجال أشمس فى العصابة أم هلال

وحملت وصيفة للأمين مروحة عليها

بى طاب العيش فى الصيـ ـف وبى طاب السرور
ممسكى ينفى أذى الحر م إذا اشتد الحرور

بالماخورى وإسحق ابنه بلحن التخنيث. على أن إسحق افتن جدا فصنع ألحانا لايقدر عليها شبعان، وأخرى لا يقدر عليها متكىء حتى يقعد وثالثة لا يجيدها قاعد حتى يقوم. وزاد عنه الفارابى بعد فقد روى أنه دخل مجلس سيف الدولة فضرب لحنا أضحكهم وآخر أبكاهم وثالثا أنامهم ثم قام

النور الندى والجود في وجـــــه أميـن الله نور
ملك أسلمه الشبـــــه وأخـــلاه النظير

هذا وقد دام الرقي للغناء بالغا الأوج العصرين الاول والثانى. وناله فى الثالث ما نال الأدب عامة والشعر خاصة فكان فى إقليم خيرا منه فى إقليم كما ذكرنا عن الشعر آنفا. ثم انحط فى الرابع فكانت حاله أسوأ من حال الشعر لأنه يحتاج فى رقيه الى ما لا يحتاج اليه الشعر من أسباب كانت فى هذا العصر والعدم سواء.

تدوين العـــــلوم

علمت من الخلاصة التي أثبتناها عن تدوين العلوم فى العصر الأموى أن ذلك العصر انقضى ولم يدون فيه شيء فى العلوم الشرعية من تفسير وقراءات وحديث وفقه إلا التفسير الذى نسبه مجاهد الى ابن عباس، وحديث رسول الله الذى دونه محمد بن عمرو بن حزم وأذاعه عمر بن عبد العزيز فى الامصار، والأول موجود والثانى غير معروف، أما الفقه فلم يدون فيه شيء كما لم يدون عن العلوم اللسانية الا بعض كتب فى النحو ليس لها الآن وجود، وكذلك كان الشأن فى العلوم الاخرى من تاريخ وكيمياء وفلك وطب، فلم يصل مما ألف فيها إلا ترجمة ماسويه لكتاب أهرون السريانى فى الطب الذى أذاعه أيضا عمر بن عبد العزيز. ولذلك يحكم المؤرخون على هذا العصر بأنه لم يكن عصر تدوين للعلوم ويعتبرون العصر العباسى العصر الحق للتدوين.

فانه لم تكد الحال السياسية تستقر أول العصر العباسى بعد خلافة السفاح وقليل من خلافة المنصور حتى أحس هذا الخليفة العظيم بشدة الحاجة الى تدوين العلوم، فحمل علماء الدين واللغة على جمع العلوم الشرعية واللسانية، وأوعز الى المترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا من اليونانية والفارسية ما تحتاج اليه الدولة من علوم أخرى كالطب والفلك وغيرهما، وبذل فى ذلك على جمود كفه المال الكثير ثم تبعه فى هـذا أولاده وأحفاده حتى زخر تيار العلوم والفنون على أيدى طبقة واضعة انتهى مجهودها بعصر الرشيد. ولما جاء المأمون فضل آباءه وأجداده

فى تشجيع حركة التأليف والترجمة فنشأت طبقة ثانية يصح أن تسمى طبقة التهذيب والتفصيل لما أنتجته طبقة الوضع ، أتمت العصر الأول وسلخت نصف الثانى. وبعدها نشأت طبقة ثالثة تم فيها استواء الملكات وصح لذلك تسميتها طبقة التصنيف. لأنه صار عندها صناعة أخرجت المبسوط والوسيط والمختصر فى شتى العلوم والفنون وبها انتهى العصر الثانى.

ولما جاء العصر الثالث نشطت حركة التأليف بعامل المنافسة بين رجال الدويلات واشتدت المنافسة بين القاهرة وبغداد فنمت العلوم وتعددت فروعها حتى تجاوزت الثلثمائة ، ووجدت علوم لم تكن موجودة ومن ثم سمى عصر نضج العلوم كما سمى عصر المكاتب لأنها كثرت فيه ، وعصر توطن العلوم لأنها عمت جميع الحواضر ولم تعد وقفا على بغداد ، وفيه انتشرت المؤلفات الشيعية بمظاهرة الفاطميين غربا والفرس شرقا فسمى لذلك عصر المذهب الشيعى . ثم جاء العصر الرابع فاستمرت العلوم سائرة فى طريق النماء حتى اتسعت الأبحاث وأخرجت المؤلفات الضخمة والمصنفات الجامعة فعرفت بعصر الموسوعات . ثم انتشرت فيه حركة التعليم وأنشئت المدارس المنتظمة فعرف بعصر المدارس أيضا

غير أنه قد حدث فيه انقلاب كبير ضد المذهب الشيعى الذى كان سائدا فى سلفه كما تقدم قضى على قوته وأحل المذهب السنى محله بعون السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا ، بعد ذهاب الفاطميين وآل بويه ، ثم كانت العلوم الأدبية فيه فى المرتبة الثالثة بعد العلوم الأخرى من شرعية وكونية. وقد سبق ذلك كله مفصلا فى صدر الكتاب ، ولا يفوتنا

أن ننبه هنا إلى أن الحركة العلمية فى الممالك الشرقية ونظير تهافى الممالك الغربية كانتا فى العصر الثالث سواء، أما فى العصر الرابع فكانت فى الشرق خيرا منها فى الغرب غير أنها اضمحلت فى الأول قبل اضمحلالها فى الثانى

هذا والعلوم التى خاضها المسلمون فى العصر العباسى من وضعهم أو ترجمتهم نوعان . إسلاميه من شرعية كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والأصول والكلام والمنطق وغيرها ، ولسانية كالنحو والصرف واللغة والبلاغة بأقسامها والادب ويلحق به التاريخ[1] وغيرها. وكونية من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية . وإليك كلمة موجزة عما ذكر من علوم النوع الأول بقسميه وأخرى مجملة عن النوع الثانى بأقسامه الأربعه

العلوم الشرعيه

١ــ التفسير والقراءات

كان أول تفسير وضع ، التفسير المنسوب الى ابن عباس برواية مجاهد من التابعين الذين كانوا يتلقون ذلك عن الصحابة فى العهد الاموى كمجاهد هذا وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبى رباح وغيرهم من أصحاب ابن عباس بمكة والمدينة، وكابرهيم النخعى والشعبى من أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة ، وكمالك بن أنس والحسن البصرى من أصحاب زيد بن أسلم بالبصرة.

---

(١) من مباحث الأدب أيضا العروض والقافية وقد سبق القول عنهما مع الشعر بما فيه الغناء

وقد أدرك بعض التابعين العصر العباسى على عهد المنصور فدونوا مع تابعى التابعين أمثال سفيان بن عينية ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم بن أبى إياس وإسحق بن راهويه ومحمد بن إسحق ومقاتل بن سليمان وغيرهم، تفاسير للقرآن، كما كتب بعضهم فى غريبه وبعضهم فى تأويل آياته وبعضهم فى مجازه، ولكن تفاسيرهم جاءت حاوية لبعض التآويل الباطلة التى أخذوها من غير تحقيق عمن أسلم من اليهود كوهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار . ثم جاءت فى العصر الثانى طبقة حققت ذلك كان منها المفسر العظيم أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ صاحب « جامع البيان فى تفسير القرآن » الذى يعد أول كتاب صحيح للتفسير المنقول، واقتدى به فى ذلك جماعة، ومنهم استمد الناس . ثم جاء العصر الثالث فنشأت طبقة رغبت فى تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة التى كانت نضجت اذ ذاك الى التفسير، كالنقاش الموصلى صاحب « شفاء الصدور » وإبرهيم الثعلبى صاحب « الكشف والبيان » والحوفى المصرى صاحب « البرهان ». ولما جاء العصر الرابع بقيت هذه الطريقة ردحا كما فى البسيط لأحمد الواحدى تلميذ الثعلبى المذكور، ثم لم تلبث الزيادات العلمية أن أخذت اتجاها يمثل روح المفسر كالبلاغة والاحتجاج للمعتزلة فى كشاف الزمخشرى، والكلام والأصول فى مفاتيح العلوم للرازى، وظهرت التفاسير بالرأى والقياس دون تقيد بآراء السلف

أما القراءات فقد تعددت وجوهها فى أوائل العصر العباسى، ولكن الناس فى جمهرتهم كانوا يرجعون فى قراءتهم الى سبعة، هم أبو عمرو بن

العلاء وأبو محمد بن إسحق وحمزة بن حبيب وعاصم بن أبى النجود وعبد الله بن عامر وعبد الله بن كثير ونافع بن أبى نعيم. وقبيل الثلثمائة أحلوا فى هذا الاقتداء على بن حمزة الكسائى محل يعقوب فأجهد يعقوب نفسه فى الحصول على جديد فى رواية القراءات فنال ونال معه يزيد بن القعقاع وخلف بن هشام وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة المذكورين. ثم عرفت قراءات أربع قبل انقضاء العصر منسوبة الى قراء أربعة آخرين هم ابن محيصن المكى والأعمش الكوفى والحسن البصرى ويحي اليزيدى. وعلى هذا بقيت القراءات (١)

٢ — الحديث

كان أول تدوين للحديث ماقام به ابن حزم بأمر عمر بن عبدالعزيز ولكنه ضاع كما تقدم فجاء العصر العباسى وليس هناك تدوين.

ولماكان الافتراء على رسول الله قد ازداد بعمل الزنادقة والضلال أمر المنصور مالك بن أنس فجمع كتابه الموطأ الذى أثبت فيه الحديث مرتبا على أبواب الفقه فكان أول كتاب فيهما معا. وقد حمل تمييز الصحيح من الموضوع أئمة العصر الثانى على اقتفاء آثار الرواة بالجرح والتعديل فكان من ذلك وضع مصطلح الحديث على يد كثير أشهرهم إسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨. ثم عمدوا الى تدوين الأحاديث الصحيحة مجردة من الموضوعة وكانوا قبل يدونونهما معا اكتفاء بالتنبيه، فوجدت كتب شتى أصحها جامع الصحيح للبخارى والجامع

«١» قد فصلنا القول فى القراءات حيث الكلام على جمع القرآن وروايته من الكتاب الثانى

الصحيح للنيسابورى والسنن لابن ماجة القزوينى والسنن كذلك لأبى داود السجستانى والجامع لأبى عيسى الترمذى والسنن أيضا لأبى عبد الرحمن النسائى، وبعد هذه الكتب الستة لم تزد رواية الحديث فى العصر الثالث واتجه اهتمام أئمته الى ترتيب شيوخه وتبيين مراتبه والتوسع فى مصطلحه. ومن كبار المحدثين فيه الحاكم النيسابورى وأبو الفتح الرازى وتلميذه أبو بكر البيهقى وكان كل جهدهم فى الكتب المذكورة فلم تعرف لهم مؤلفات. أما فى العصر الرابع فقد وجد من المحدثين ذوى التأليف كثير، منهم البغوى صاحب مصابيح السنة والجزرى صاحب جامع الأصول فى أحاديث الرسول وصاحب النهاية فى غريب الحديث

٣ـ الفقه وأصوله

عرفت أن أول كتاب دون فى الفقه موطأ مالك بن أنس إمام الحجازيين الذين غلب عليهم التشدد وعدم إعمال الرأى لوقوفهم عند الرواية الكثيرة عندهم. أما أهل العراق البعيدون عن الرواية فقد عملوا بالقياس والرأى فيما لا يخالف الكتاب والسنة وراء إمامهم الأعظم أبى حنيفة النعمان ولكن لما انتقل المحدثون إليه بالعراق مزجوا بالرواية الرأى وظهر ذلك جليا فى صاحبيه أبى يوسف ومحمد. واتفق أن رحل الشافعى الى العراق فأخذ عن محمد وغيره ووضع مذهبا وسطا بين مذهب مالك وأبى حنيفة. ثم رحل الى مصر فرجع عن بعض ما رأى ووضع مذهبا آخر فكان له مذهبان قديم وجديد. ثم جاء أحمد بن حنبل فأخذ من بعض أصحاب الحديث عن الشافعى ومن بعض أئمة القياس والرأى عن أبى حنيفة فكان مذهبه المعروف. وبذلك تمت فى العصر العباسى

الأول المذاهب والأربعة. المالكى بالحجاز، والحنفى بالعراق، والشافعى بمصر، والحنبلى فى نجد والبحرين وبعض الشام. ولكل إمام من هؤلاء بقية من كتبه أهمها الموطأ لمالك والفقة الاكبر لأبى حنيفة والأم للشافعى والمسند لابن حنبل. وفى العصر الثانى تغير كثير من الآراء فى مسائل الفقه لانتشار العلوم المختلفة وبخاصة الفلسفة فتولدت مذاهب لم تكن موجودة كمذهب الطبرى القريب من الشافعى ومذهب داود بن على الظاهرى القريب من المالكى. ولكنها تضاءلت أمام المذاهب الأربعة التى لم يجد بجوار أصولها فى العصر الثالث أيضا غير التلخيص والشرح والتعليق ومن خيار الفقهاء فى هذا العصر أبو الحسن الماوردى صاحب كتاب الحاوى الكبير فى الفروع فى فقه الشافعى وهو مطبوع. وكذلك كانت الحال فى العصر الرابع ومن فقهائه أبو حامد الغزالى وله تآليف كثيرة فى الفقه منها البسيط فى الفروع والوسيط المحيط بأقطار البسيط والوجيز فى فقه الشافعى ثم الأحياء ونحو نصفه فى الفقه.

أما الأصول فقد حمل على نشأته رسوخ ملكة الفقه فى الأئمة رسوخا جعلهم يحصرون مسائله فى أصول خمسة هى الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاستحسان على خلاف يسير فى الأخيرين ويسمون الكلام فيها أصول الفقه. وأول من ألف فيه الشافعى رحمه الله؛ ومن بعده انتشر لدى الحنفية بالعراق وفى مقدمتهم أبو زيد الدبوسى. ومن اشتداد الجدل فيه بين المذهبين نشأ علم الجدل والخلاف. وقد سايرت هذه العلوم الفقه فى سائر العصور لأنها متفرعة عنه.

٤ — الكلام والمنطق

نشأ علم الكلام فى العصر العباسى على أثر تنكب بعض المتأخرين طريق السلف فى التوقف عن البحث فى المتشابه ومايوهم التشبيه. فانهم حين تناولوا البحث فى الأمرين ضل كثير منهم فى التأويل ووقع فى التجسيم المنافى للتنزيه فهب الآخذون برأى السلف الى مقاومتهم ولكنهم لم يقنعوا الداخلين فى الاسلام ممن امتلأت دياناتهم القديمة بالشبه والأوهام؛ فدخل كثير من العقائد الفاسدة الدين، واضطر العلماء المحافظون أن يخرجوا عن التوقف الى الجدل والمعارضة بكثرة القول فكان هذا مبدأ علم الكلام. وظهر الخلاف أول ماظهر من واصل بن عطاء الذى اعتزل حلقة الحسن البصرى واتبعه فى ذلك أناس عرفوا باسم المعتزلة لهذا الاعتزال. وقد نمى هذا العلم ماكان عليه الخلفاء من اختلاف، فبعضهم كان ينصر أهل السنة كالمهدى وبعضهم ينصر المعتزلة كالمأمون. ثم زاد الاعتزال نموا فى العصر الثانى وفرة الفلسفة لما كثر من ترجمة كتبها ولم يقف تياره إلا ظهور أبى الحسن بن إسماعيل الاشعرى الذى استعمل أدلة العقل مع النقل وأتم مباحث هذا العلم، كما ألحق به مبحث الامامة فكان له مذهب خاص اتبعه فيه جماعة عرفوا بالأشعريين. وقد أيده فى العصر الثالث أبو بكر الباقلانى حتى نسخ كل مذهب إلا مذهب الشيعة الذى بقى عليه كثير من الاتباع. ثم لقى مثل هذا التأييد فى العصر الرابع على يد كثير أشهرهم الرازى وحجة الله الغزالى صاحب التآليف الكثيرة الواسعة فى هذا الباب ومنها كتاب الاحياء. وفيه كثير من مباحث الكلام.

هذا وقد حملتهم الحاجة الى البرهنة والاحتجاج فى علم الكلام ، على شق الطريق الى علم المنطق فنبغوا فيه وساعدهم على هذا النبوغ ما نقلوه عن اليونان فى جميع مباحثه من فصول ولعله لهذا السبب استمر طوال العصور العباسية خاضعا للنظم اليونانية بل بقى عليها من بعدها الى الآن .

العلوم اللسانية

١ — النحو والصرف

وضع أبو الاسود الدؤلى النحو بالبصرة فى العصر الاموى كما عرفت فى كتابنا الثانى فاختلف اليه عدد من رجالها يتعلمونه عليه، كان منهم عنبسة الفيل وعبد الرحمن بن هرون الأعرج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وميمون الأقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الأولى. وعنهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن أبى اسحق وأسماء الحضرمى وأبو الخطاب الأخفش الأكبر وأبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى. وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى منها أبو مسلم معاذ الهراء وابن أخيه أبو جعفر الرؤاسى ،وقد تبارت فى التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ولم يك للطبقة البصرية الأولى فيه سوى أوراق. فكان لعيسى بن عمر كتابا الجامع والاكمال أول ما ألف فى النحو البصرى، وكان لأبى جعفر الرؤاسى كتاب الفيصل أول ما ألف فى نحو الكوفيين. وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسى فتثقفت عليهما الطبقة التي وضعت أساس التأليف فى النحو وسائر علوم اللغة، وكان

رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائل النحو ومصحح قياسه ومخترع العروض ومدون اللغة. ومن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه صاحب الكتاب وبالكوفة طبقة الكسائي، ودب بين الطائفتين الخلاف واشتد الجدل حتى كانت تعقد بينهما المناظرات. وكان منشأ الخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذي لا يقدمون عليه إلا لضرورة، وساعدهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية، في حين أن الكوفيين يعتمدون في أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة وقربها من الأعجام. ثم نشأت بالبصرة طبقة الأخفش الأوسط شارح كتاب سيبويه، وبالكوفة طبقة الفراء صاحب كتاب الحدود، وعنه انتشر المذهب الكوفي في بغداد قبل أن يعرف بها المذهب البصري. وبعدهما كانت في البصرة طبقة التوزي والجرمازي والجرمي والمازني والسجستاني وفي الكوفة طبقة ابن السكيت وابن سلام ثم ختمت بعدها طبقات البصريين بطبقة المبرد، وطبقات الكوفيين بطبقة ثعلب وإليهما انتهى علم هؤلاء وعلم هؤلاء. وعلى هذا انقضى العصران الاول والثاني. ولما توالت فتن الزنوج والقرامطة على المصرين جلا علماؤهما إلى بغداد، ومن اختلاطهما نشأت طريقة البغداديين وهي خليط من المذهبين ولكن مع جعل مذهب البصريين الأساس. ولم يجد في العصر الثالث جديد إذ كان أكثر ما دون شروحا وتعليقات على المذهبين من غير تعصب ولا خلاف ومن علماء النحو فيه ابن خالويه صاحب كتاب ليس وصاحب رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن، وابن جني صاحب الخصائص في أصول النحو وسر الصناعة في النحو وشرح

تصريف المازني واللمع في النحو والمحتسب في إعراب الشواذ وعلل التثنية،وابن درستويه والسيرافي والرماني ولكل هؤلاء مؤلفات . وفي العصر الخامس وضعت أهم كتب النحو والصرف التي عليها معول العلماء الآن كالكافية والشافية لابن الحاجب في النحو والصرف، وألفية ابن مالك في النحو وتصريف العزى لعز الدين الزنجاني في الصرف ومفتاح العلوم للسكاكي وغيرها

٢ — متن اللغة

كان المرجع في معرفة معاني المفردات طوال العهد الأموى، مشافهة الأعراب أوسؤال الأدباء .ولما جاء العصر العباسي فكر بعض الأئمة في تدوين رسائل صغيرة في فئات من الالفاظ كالتي تجمع أعضاء الانسان أو بعض الحيوان أو النبات أو الجماد.ثم جاء الخليل بن أحمد ففكر في اختراع طريقة جامعة سهلة تحصى بها كلمات العربية وتكتب معها معانيها فوضع كتابه العين الذي رتبه على حسب مخارج الحروف من الحلق إلى الشفة مبتدئا إياه بحرف العين،ولكن يظهر أنه لم يتمه وبقيت طريقة الرسائل جارية حتى أتمه جماعة بعدوفاته بنحوستين سنة فكان أول كتاب منظم في متن اللغة. وفي العصر الثالث ألف ابن دريد كتابه الجمهرة منه ومن الرسائل المذكورة ومن كتب أخرى للأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ورتبه على حروف الهجاء من الهمزة إلى الياء، وألف أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر كتابه التهذيب على ترتيب الخليل في عشر مجلدات،كما ألف الصاحب بن عباد المحيط في سبع مجلدات، وأحمد بن فارس المجمل حاذفا الشواهد،والجوهري الصحاح الذي جمع فيه

أربعين ألف مادة. ثم حل العصر الرابع فألف الفيروزابادى القاموس، والزمخشرى أساس البلاغة، وبعدها ألف الصغانى المتوفى سنة ٦٥٠ كتابيه تكملة الصحاح والعباب ثم جمع بينهما فى مجمع البحرين. على أن التأليف لم ينقطع بالانكباب على المعاجم عن أن يتناول نواحى أخرى من اللغة كالأجناس فى فقه اللغة للثعالبى، وشرح غريب الحديث للجزرى وغيرهما.

٣ — البلاغة

تطلق البلاغة فى عرف العلماء على علوم ثلاثة المعانى والبيان والبديع ولكل مباحث خاصة به كما هو معروف. وقد كان الدافع الى نشأتها كعلوم الدفاع عن إعجاز القرآن الذى خاض فيه كثير من الزنادقة والفلاسفة بانكاره أو الحيدة عن أن سببه التناهى فى البلاغة. وقد تقدمت هذا العلم مباحث منه قبل أن يكتمل كأنها إرهاص له قبل هذا الكمال دعت اليها أسباب طارئة كتأليف أبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ كتابه «مجاز القرآن» على أثر سؤال وجه اليه فى معنى قوله تعالى «طلعها كأنه رءوس الشياطين» وإجابته السائل بأن ذلك على حد قول الشاعر

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وكالذى كان من الجاحظ فى تأليف كتابه «إعجاز القرآن» الذى بقيت منه أبحاث كثيرة منقولة فى كتاب الفصول المختارة من كتبه لعبيد الله بن حسان وفى كثير من كتابه البيان والتبيين، وكالذى كان من المبرد حين قال له الكندى الفيلسوف «أرانى أجد فى كلام العرب حشوا إذ أجدهم يقولون عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله قائم ثم يقولون

إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد فقال له أبو العباس « بل المعانى مختلفة فالأول إخبار عن قيام والثانى جواب عن سؤال سائل والثالث جواب عن إنكار منكر وقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى » الى غير ذلك من متعلق البيان والمعانى. ثم جاء ابن المعتز فراقه ما كان يقع للشعراء من محسنات دون أن تعرف لها أسماء فحصر منها سبعة عشر نوعا سمى كلا منها وسماها فى مجموعها البديع وإن كان فيها بعض ماهو الآن من البيان كالاستعارة والكناية. ولهذا كله يمكن أن يقال إن البديع وضع قبل انتهاء العصر الثانى، وإنه وضعت أبحاث كثيرة خلاله وخلال الأول للمعانى والبيان . وقبيل انتهائه عقب قدامة بن جعفر على بديع ابن المعتز فى كتابه « نقد قدامه » الذى أتى فيه بعشرين محسنا وافق ابن المعتز فى سبعة منها فتمت المحسنات ثلاثين . وفى العصر الثالث ألف ابن هلال العسكرى كتابه الصناعتين فى معظم أبحاث العلوم الثلاثة فكان أول كتاب جامع لها وإن لم يميز بعضها عن بعض . وفى الرابع ألف إمام البلاغة عبد القاهر الجرجانى كتابيه « دلائل الاعجاز » و« أسرار البلاغة » مغلبا على الأول أبحاث المعانى وعلى الثانى أبحاث البيان فعد هذا أول تفرقة بينهما وكان البديع قد تميز كما مر آنفا وبهذا تكاملت هذه العلوم وتميزت تقريبا . ثم حدث بعد عبد القاهر أن زاول البلاغة كثير من الأعجام متأثرين بالعجمة من جهة وبالفلسفة والمنطق من أخرى فكتبوا فيها بأساليب مثلت الناحيتين المذكورتين فكانت عثرة فى طريق الفصاحة والبلاغة ومن هؤلاء السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب مفتاح العلوم فى النحو والصرف والبلاغة والعروض .

وقد لخص قسم البلاغة منه الخطيب القزويني في كتابه « تلخيص المفتاح » ذى الشهرى الذائعة والشروح المتعددة، وعنده وقف نمو هذه العلوم قبل أن يتم نضجها وهى فى حاجة الى الانضاج الذى كان منظورا لها لولا ما دها العرب والعربية من أحداث (١)

٤ — الأدب والتاريخ

عالجنا فى أول موضوع من كتابنا عن العصر الجاهلي، التعريف بالادب وتاريخه علاجا طويلا فهم منه أن أول معنى عرفته العرب لكلمة الأدب صنع طعام يحتفل بالدعوة اليه فى مأدبة، وأنها قبيل الاسلام أخذت تستخدم فى التهذيب والتثقيف، وأن الاسلام أذاع هذا المعنى ونشره لكثرة تعاليمه الداعية الى مكارم الأخلاق وأن الناس توسعوا عقب ذلك فأطلقوا الأدب على كل ماله أثر فى التهذيب وبذلك تناول مأثور اللغة من كل نثر وشعر يحض على المحامد ويكره فى المذام، وعرف من يروى ذلك بالأديب، ومن هنا جاء تعريف الأدب منذ صدر الاسلام بأنه « معرفة كلام العرب نثرا وشعرا وكل ماله صلة به من أيام وأنساب وأخبار وغيرها » وعلى هذا كان التأديب فى عصر الراشدين ثم أخذ ينمو ويتسع مدة بنى أمية شاملا معه ماوضع من قواعد النحو إذذاك. وقد عظمت

« ١ » مما ذكر عن البلاغة هنا ترى أنها من صنع علماء المشارقة أما علماء الممالك الغربية فقد كاد ينحصر عملهم فيها فى كتاب « المثل السائر » للموصلى وهو من خير كتبها وبخاصة فى البيان والمعانى وفى كتاب « تحرير التحبير » لعبد العظيم بن أبى الاصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ فقد أوصل فيه محسنات البديع الى التسعين .

رواية الأدب بهذا المعنى لما كان من تشجيع الخلفاء عليها فنشأت الطبقة الأولى للرواة كما ذكرنا ذلك تفصيلا بكتابنا الثانى . والذى نريد أن نقوله الآن ان ماروى فى العصر الأموى بقى غير مقيد فى كتاب حتى اذا ماجاء العباسى ودخل الاسلام كثير من الأعاجم الذين تعلموا لغة العرب، وجدت الحاجة الى التوسع فى قواعد النحو للتحرز من الأخطاء والى الاكثار من الرواية للشواهد والمران ودفع الحرص على هذين الأمرين معا الى تقييدهما بالتدوين. وقد حبب بعد مواطن العباسيين عن البوادى الى طائفة من فصحاء الاعراب، التردد على حواضر العراق لمد الرواة والمتعلمين لقاء ماكانوا ينالون من رزق ومال كان من أشهرهم بالبصرة أبو البيداء الرياحى وأبو مالك بن كركرة وأبو الجاموس بن يزيد وأبو عدنان بن عبد الأعلى وشبيل بن عرعرة الضبعى. وكان من أشهرهم بالكوفة والحيرة أبو خيرة بن زيد وأبو محلم الشيبانى .ثم تعدى سيلهم المصرين الى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضمضم الكلابيان وأبو شبل العقيلى والفقعسى الأسدى. بل تجاوزها الى خراسان كأبى العميثل مؤدب الطاهريين. ولكثير من هؤلاء كتب لم يصل منها شىء لضياعها، ولكن معظم أدبهم وأدب غيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية وكان الرواة يرحلون اليهم، دونه الرواة فى العصر العباسى الاول فكان مرجع الناس. وأهم هؤلاء الرواة إذ ذاك أبو عمرو بن العلاء وعنه أخذ أكثر النحاة والأدباء، وأبو عبيدة بن المثنى صاحب نقائض جرير والفرزدق والشعر الشعراء ، والاصمعى عبد الله بن قريب صاحب الأصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب أخرى فى الانسان وكثير من الحيوان

والنبات والجماد، وأبو زيد الأنصارى صاحب النوادر فى اللغة وكتابى المطر واللبن، والقاسم بن سلام صاحب كتب غريب الحديث وغريب المصنف والامثال وفضائل القرآن والمواعظ . على أن هناك طائفة من الرواة غلبت عليهم رواية الشعر أشهرهم حماد جامع المعلقات ، والضبى صاحب المفضليات وخلف صاحب كتاب العرب وماقيل فيهامن الشعر، والشيبانى جامع أشعار القبائل . ولم يكد ينتهى العصر الاول العباسى حتى نشأت طبقة ثانية كانوا يجمعون بين الروايات ويفاضلون بينها. منهم محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء، وأبو زيد بن أبى الخطاب صاحب جمهرة أشعار العرب وله فى صدرها مقدمة تبلغ نحو الاربعين صفحة تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له فى عالم الأدب مكان ثم كانوا يحيدون فى كلامهم عن الاكثار من اللغة التى بدأت تتميز عن الادب ، كما حاد أسلافهم أوله عن الاكثار من النحو فتميز منذ أول العصر. فلما حل العصر الثانى أخذ الأدب يستقل عن هذين العلمين الا لماما، ويعنى بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا وبالأخبار التى تتعلق برجاله، ثم جلا الأدباء فى أوله عن المصريين للأحداث النازلة بهما إلى بغداد التى استبحر فيها العمران وكانت الكتب المترجمة فى الأدب الفارسى وغيره قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الادب وظهر هذا التغير فى أمور ، منها فى المأثور تجاوز الرواية إلى التدبر فى المروى بما يحلل معناه تحليلا ينتهى بحكمة أوعظة، ومنها فى الخبر جمع أشتات الأخبار العربية على اختلافها مع ترتيبها أبوابا فى كل باب طائفة، ومنها الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء

ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الاقتداء بهم ولعل الدافع إلى هذا الميل ما ظهر فى ذلك العصر من فساد الحكم وتوالى الظلم حتى على الخلفاء ؛ الى غير ذلك مما اصطبغت به كتب الادب وتوخاه فى التصنيف الادباء كالجاحظ إمامهم وفاتح الفتح فى التأليف فله كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب المحاسن والاضداد على خلاف وأخلاق الملوك وتنبيه الملوك وسحر البيان وفضائل الأتراك وسلوة الحريف والعرافة والزجر والفراسة عند الفرس وطبقات المغنين والتاج وغيرها سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة ، وكابن قتيبة المقفى للجاحظ فى هذا الباب وصاحب هذه المؤلفات ،عيون الأخبار فى عشرة كتب والمعارف فى التاريخ العام والشعر والشعراء وأدب الكاتب والامامة والسياسة والشراب والأشربة والتسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب وغيرها، وكقدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وغيرها ؛ ومحمد بن أحمد الوشاء صاحب الموشى وهو كتاب فريد فى بابه فيه غير المواعظ وصف الأزياء وألفاظ المكاتبات ومايكتب من الاشعار على الثياب والأدوات وقد طبع باسم الظرف والظرفاء وغيره . إلى سائر أدباء هذا العصر وهم كثير وكتبهم أكثر .

ولما جاء العصر الثالث كان أكبر ظواهر الادب فيه ،أولا انتشار الروح القصصية التى أحياها فى العصر الاول ابن المقفع ونماها فى الثانى من اقتفوا أثره وقد قدمنا القول على ذلك مبسوطا فى الكتابة حيث الكلام على القصص والمقامات ، وثانيا انتشار روح النقد وتعدد موضوعاته بعد أن فتحه فى العصر الثانى بالمعنى الذى نريد قدامة بكتابيه المذكورين . فكان فى الأدباء من

انتقد الرواية والأخبار كأبي الفرج فى كتابه الأغانى أضخم كتب الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنين. ومن انتقد الشعراء كحسين بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧١ فى كتابه «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» فانه لم يترك لكليهما شيئا مما يقوله متعصب له أو عليه إلا أورده فى أسلوب جدلى ممتع ونقاش حصيف، وكالصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ فى كتابه «مساوى المتنبي» الذى كان شديد التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه مع عرضه عليه مشاطرته ماله، وكعبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ فى كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» الذى تصدى فيه لدحض ماذكره الصاحب وغيره من سائر الخصوم فانتصف للمتنبي انتصافا مؤيدا بالحجة والبرهان. ومن انتقد الكلام انتقادا مبنيا على قوانين البلاغة التى وضع بعض قواعدها فى العصر الأول ونمت فى الثانى واطرد نموها فى الثالث كأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ فى كتابه «الصناعتين» ـ يعني الكتابة والشعر ـ فقد ملأه نقدا مؤسسا على ضوابط الفصاحة والبلاغة فى الأساليب والمعانى. وكان فيهم من طبق ذلك كله على نوابغ الشعراء وكبار الكتاب كالثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ فى كتابه «يتيمة الدهر» الذى سبق القول عنه: وفى كثير من كتبه المعروف منها نحو الاربعين كالاعجاز والايجاز وخاص الخاص ونثر النظم وحل العقد وشمس الأدب فى استعمال العرب والكناية والتعريض وأجناس التجنيس وسحر البلاغة وغرر البلاغة والنهاية فى الكناية. ولا ننس أن من نقاد

هذا العصر خاتمة شعرائه وكبير فلاسفته أبا العلاء المعرى الذى جاءت « رسالة الغفران » له مبنية عليه لحمة وسدى . وثالثا نضج نوع من الادب هو المحاضرة وغايته اقتدار الأديب على إيراد كلام غيره المناسب لما يطرأ فى محضره ، وعماده كثرة الحفظ وجودة البديهة. ومن المؤلفات فيه « المحاضرات والمناظرات » للتوحيدى المتوفى سنة ٤٠٠ ، «والتمثل والمحاضرة» للثعالبي، «الدرر والغرر» للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ . ولما جاء العصر الرابع اطرد رقى هذه الظواهر الثلاث وقد علمت ذلك عن القصة. أما النقد فكان من أصحه وأمتعه ماوقع من عبد القاهر فى كتابيه دلائل الاعجاز وأسرار البيان وماوقع للموصلى فى كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر فقد أجاد فيه نقد الألفاظ والمعانى[١] وأما المحاضرة فقد جاءت فيها « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» لأبى القاسم الراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢ خزانة أدب لكل مايقال عن الشيء وضده فى خمسة وعشرين بابا سمى كلا منها حدا فى العلوم والصناعات والأخلاق والاجتماع والصفات وغيرها من أنواع البحوث.

هذا وإنما عددنا التاريخ من الأدب لأن كل من تعرض للعرب فيه تعرض لأدبهم . وقد عنى بتدوينه منذ العصر العباسى الأول فى الأنساب والسير والطبقات والفتوح. فكان من مؤرخى الأنساب أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي صاحب جمهرة الأنساب ، ومن مؤرخى

«١» ثم ما وقع بالمغرب لأبى العباس الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ فى كتابه العمدة الذى جاء أجل كتاب فى صناعة الشعر ونقده، وفى كتابه قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب .

السير أبو محمد عبد الملك بن هشام راوى السيرة النبوية لأبى بكر محمد ابن إسحق ، ومن مؤرخى الطبقات أى التراجم أبو عبد الله محمد بن سعد صاحب طبقات الصحابة والتابعين ، ومن مؤرخى الفتوح أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى صاحب المغازى وغيرها فى الفتوح .

وفى العصر الثانى توسع المؤرخون فخرجوا فى الانواع المذكورة الى أنواع كثيرة من تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المشهور ، أو تاريخ خاص للناس أو البلدان كأبى الفضل أحمد بن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف بن الداية صاحب سيرة ابن طولون وابنه خماويه ، أو تاريخ العرب المتصل بأدبهم كمحمد بن حبيب صاحب كتاب القبائل والأيام فى أكثر من أربعين جزءا . أو تاريخ الفتوح كأبي جعفر أحمد بن يحي البلاذري — خاتمة مؤرخى الفتح — صاحب فتوح البلدان .

وفى العصر الثالث ساد التاريخ العام شيء من الرحلة لكثرة ما كان فيه من رحلات ، ومن كبار الرحالة فيه على بن الحسين المعروف بالمسعودى. كما تكاثرت التواريخ الخاصة للأمم أو الاشخاص أو المدن ، فمن رجالها فى الأمم أبو عمر محمد بن يوسف الكندى صاحب تاريخ مصر، ومنهم فى الاشخاص أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي صاحب اليميني فى تاريخ يمين الدولة السلطان محمود الغزنوى وأبيه ، ومنهم فى المدن أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد «غير السالف» .

أما فى العصر الرابع فقد تعددت الموضوعات لتعدد الخلفاء والسلاطين وتنوعت الكتب وتبارى المؤرخون فى تدوين المعاجم

والمطولات . فكان منهم مؤرخو الدول كالوزير جمال الدين علي بن ظافر الازدى المصرى صاحب الدول المنقطعة ـ يعني عن العباسية . وأصحاب السير كمؤيد الدولة مجد الدين أبي المظفر أسامة بن مرشد المنقذى صاحب كتاب الاعتبار فى سيرة حياته ووصف رحلاته ، ومترجمو الجماعات كأبى عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر صاحب الاستيعاب فى معرفة الاصحاب وفيه أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة للصحابة ورواة الحديث ، ومؤرخو البلاد والمدن فى مختلف الاقطار كأبى القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقى صاحب تاريخ دمشق ، ثم المؤرخون العامون كأبى الحسن علي بن محمد المعروف بعز الدين ابن الاثير صاحب الكامل أشهر كتب التاريخ ومن أوثقها وأوضحها وأوسعها وهو منذ الخليقة الى سنة ٦٢٨ فى اثني عشر جزءا

العلوم الكونيه

عرفت أن العلوم الكونية أربعة أقسام، طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية . فمن الطبيعية الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والمواليد الثلاثة والفلاحة، ومن الرياضية الجبر والحساب والهندسة والحيل «الميكانيكا» والفلك والجغرافية النظرية ، ومن الالهية صفات الاله والسمعيات وقوى النفس وكل ما وراء الطبيعة ، ومن السياسية تنظيم الملك وتدبير المنزل وتدبير المال والاخلاق . وإليك كلمة مجملة عنها مجموعة كما وعدنا لأنها ليست ذات صلة مباشرة بالأدب تحوج إلى إفرادها كما أفردنا مواد العلوم الاسلامية من شرعية ولسانية قبل.

ذكرنا فى صدر الكتاب حيث الكلام على غلبة الفرس فيما طرأ

على العرب ولغتها من جراء امتزاج الاعجام، بما أن الفرس أحرزوا منذ القديم قسطا وافرا من العلوم أوجدوا بعضه ثم ورثوا بعضا عن الآشوريين والبابليين وترجموا بعضا منذ القديم عن الهند والصين كما ترجموا بعضا آخر عن اليونان على يد بعثة أرسلها سابور بن أزدشير الى بلاد اليونان وعلى أيدى العلماء الوثنيين الذين رحلوا من اضطهاد جوستيان قيصر إلى بلاد الفرس أيام كسرى أنو شروان. وبذلك كان العلم القديم كله تقريبا مستقرا فى بلاد الفرس. فلما اختلط العرب بهم على العهد العباسى اختلاطا كبيرا ورأى أبو جعفر المنصور حاجة الدولة الجديدة إلى هذه العلوم، عمل على ترجمتها كما تقدم وتبعه فى ذلك خلفاؤه إلى أن جاء المأمون فوجه إلى الترجمة اهتماما ليس فوقه اهتمام حتى أعاد ترجمة كثير من الكتب اليونانية والهندية عن لغتيها الأصليتين لا عن اللغة الفارسية وبذلك تم للعرب على عهده جل ما كان من علوم عند أمم الحضارة القديمة ولا سيما الفرس واليونان والهنود على أيدى تراجمة ماهرين. وقد كان خلفاء الدولة يتخيرون من كل أمة ما نبغت فيه فكانوا يعتمدون فى السير والحكم والتاريخ والموسيقى والآداب على الفرس، وفى الفلسفة والمنطق والهندسة والطب اليونانى على اليونان، وفى الحساب والنجوم والعقاقير والاقاصيص على الهنود. على أنهم نقلوا علوما أخرى عن أمم غير هذه الثلاث كانت فيها ذات نبوغ كالفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم عن الانباط والكلدان، وكالكيمياء والتشريح عن المصريين. ثم مزجوا ذلك كله بعضه ببعض وأخرجوه فى طابع عرفوا به ونسب اليهم فى العصر العباسي الأول فكانوا فى ذلك مثار الدهش

والاعجاب. ومما ينبغى أن يذكر هنا عدم عنايتهم بنقل آداب غيرهم من تلك الأمم إلا ما تسرب اليهم من آداب الفرس بعمل أبناء فارس أنفسهم حين شاركوهم النفوذ وأرادوا إظهار مآثر أسلافهم فيها كما ظهرت فى سائر العلوم، ولو كان لأبناء الامم الاخرى مثل ما لأبناء الفرس فى هذه المشاركة لنقلوا آداب أممهم كما فعل هؤلاء.

وقد كان معظم النقلة من أهل العراق والشام وفارس والهند غير المسلمين الذين استحضرهم الخلفاء وأغدقوا عليهم المال. فكان أشهر المترجمين من اليونانية. آل بختيشوع طبيب المنصور وآل حنين ابن إسحق وابن أخته حبيش الاعسم وآل سرجويه وآل ثابت الحرانى وأفراد غيرهم كقسطا بن لوقا والحجاج بن يوسف بن مطر ويوحنا البطريق واسطفان بن باسيل وموسى بن خالد وأبو عثمان الدمشقى وأبو بشر بن يونس ويحيى بن عدى. وكان أشهرهم من الفارسية ابن المقفع وآل نوبخت وخاصة الفضل، وموسى ويوسف ابنا خالد وأبو الحسن على بن زياد التميمى والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذرى وإسحق ابن يزيد ومحمد بن الجهم وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى وعمر بن الفرخان وجبلة بن سالم. وكان أشهرهم من الهندية منكه وابن دهن الهنديان. وكل هؤلاء نقلوا للخلفاء ومشاركيهم فى النفوذ. وكان ممن نقل للعلم ولنفسه بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن وأبناؤهم من بعدهم. هذا والكتب التى نقلت تعد بالمئات ولكن الباقى منها لا يتجاوز العشرات وأشهره المجسطى لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر والسياسة فى تدبير الرياسة ترجمة يوحنا البطريق ورسائل فى الطب

ترجمة قسطا بن لوقا والمدخل فى الطب ورسائل أخرى فيه والنواميس لحنين بن إسحق ومنطق أرسطو لابنه إسحق. وقبل أن ينتهى هذا العصر الاول اشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة فنبغ فيها من فلاسفتهم أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الملقب فيلسوف العرب وامتد زمنه من المأمون الى المتوكل فهو قد أدرك العصر الثانى وله تآليف كثيرة فى معظم العلوم الدخيلة عد منها ابن النديم فى الفهرست ٢٣١ كتابا موزعة على ١٧ علما ومعدودة فى كل علم ولكن الباقى منها الى الآن لايبلغ العشرين. منها إلهيات أرسطو والمد والجزر واللون اللازوردى فى السماء وذات الشعبتين «آلة فلكيه» واختبارات الأيام ورسالة فى الموسيقى ومقالة فى تحاويل السنين. وفى العصر الثانى زاد اشتغال المسلمين بهذه العلوم. ومن نبغائهم فيها أبو نصر الفارابى الذى يلى الكندى فى المكانة، ومن كتبه الباقية ١٢ فى المنطق و ٨ فى السياسة والأدب و ٢٧ فى الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وأبحاث أرسطو وموضوعات أخرى. وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى وله كثير من المؤلفات والمخترعات. فمؤلفاته تزيد عن المائتين ولكن بقى منها بضع وعشرون أغلبها فى الطب الذى يقال فيه «كان معدوما فأحياه جالينوس وكان متفرقا فجمعه الرازى وكان ناقصا فكمله ابن سينا»؛ ومنها كتاب الحاوى فى الامراض ومداواتها والطب المنصورى ألفه للأمير منصور السامانى والطب الملوكى ألفه لصاحب طبرستان والمرشد والكافى وبرء الساعة فى الطب أيضا والجدرى والحصبة وهو أول كتاب أجاد تشخيص هذين الداءين ووصف الدواء لهما

ومن مكشوفاته الكيميائية زيت الزاج « حامض الكبريتيك » ولا تزال طريقة استحضاره له باستقطار كبريتات الحديد مستعملة الى الآن، والكحول وقد استخرجه باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة. وله فى الكيمياء مؤلفات . ولما جاء العصر الثالث زاد المشتغلون بهذه العلوم من المسلمين فيه فنبغ كثير أشهرهم أبو على الحسين بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس المتوفى سنة ٤٢٨ فقد انفرد بقوة العقل وسعة العلم وألف فى كل فن حتى زادت مؤلفاته على المائة نقل كل الباقى منها الى اللغات الاوربية فأثر فى نهضتها الحاضرة تأثيرا بينا . منها فى الطب القانون فى ١٤ جزءا والشفاء فى ١٨ جزءا « بعض أجزائه فى علوم أخرى » وفيها فى الفلسفة الاشارات والنجاة وفى الالهيات والنفس الالهيات وقصيدة النفس وفى المنطق الاشارة والعروس، غير كتب أخرى فى الطبيعة والرياضة والسياسة والموسيقى وغيرها ومن المبرزين فيه أيضا جماعة إخوان الصفا ولا تزال رسائلهم الى اليوم مرجعا فى كثير من مباحث هذه العلوم وخاصة الفلسفة. وقد تقدمت فيه الكيمياء فأنشئت حوانيت الصيدلة وعرف كثير من المركبات كما تقدم النبات فولدت أنواعه واستخرجت منه الأدوية المختلفة وكذا النجوم فبنيت المراصد وأبطلت صناعة التنجيم ثم الرياضيات والفنون الجميلة. وقد استمر تقدم هذه العلوم سائرا الى الامام بالمشرق فى هذا العصر حتى نقل الى الأندلس وبخاصة رسائل اخوان الصفا فاهتم الاندلسيون بها وبذلك اطرد النمو حتى شمل الشرق والغرب فى العصر الرابع ولكن الاندلس فاقت المشرق في أواخره فكان معظم الفلاسفة منها ويكفى أن تعلم

منهم أبا الوليد بن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ صاحب الكتب الكثيرة التى كان فضلها على نهضة أوربة كفضل كتب ابن سينا المذكور . وإن المقام ليضيق عن عد علماء هذه العلوم من المسلمين شرقا وغربا خلال هذين العصرين فانكتف بهذين العلمين اللذين جاء أولهما فخر الشرق فى العصر الرابع وجاء ثانيهما فخر الغرب فى الخامس.

هـذا

وقد خلق تدوين العلوم بنوعيها لغة تأليفية خاصة، كما حمل تقدمها على إحياء مجالس العلم والمناظرة التى انتهت بانشاء المدارس فى العصر الآخير بالمعنى الذى نعرفه الآن وهذى كلمة عن كل من هذين الأمرين وبهما ينتهى الكتاب والحمد لله .

لغة التأليف

جاءت كتابة التأليف مختلفة باختلاف نوعى العلوم من إسلامية وكونية

فكانت فى العلوم الاسلامية من شرعية ولسانية فى العصر الأول العباسى عبارة عن جمع الروايات وتصنيفها طوائف تقع كل منها تحت بحث خاص. وقليلا ما كان يزيد المصنف على هذا الجمع ما يربط بعض الروايات ببعض أو يشرح الغريب . وكانت هذه الزيادات أظهر فى اللسانية منها فى الشرعية كما كانت ذات فصاحة وبلاغة لرسوخ المصنفين إذذاك فيهما إلا فى الفقه والكلام فقد كانت فيهما أكثر من نظيرتها فى اللسانية ولكنها أقل درجات فى البيان . ولما جاء العصر الثانى نمت هذه الزيادات على ما رأيت آنفا فى تاريخ العلوم واطرد نموها فى الثالث لنمو العقلية واتساع الأبحاث فظهرت شخصيات المؤلفين وازدادت ظهورا باغفال

الأسانيد فى الرواية وبخاصة فى علوم اللسان مع بقائها ذات قوة فى التعبير وجمال فى الأداء . حتى اذا ماجاء العصر الرابع أفسد هذا الجمال فى أوله بالصناعة اللفظية التى أضرت بالتعابير ، وفى آخره بالصناعة المنطقية التى أصابته بالتعقيد .

وكانت فى العلوم الكونية المترجمة منذ العصر الاول ـ ماعدا الادبية التى كانت آية فى البيان ـ لاتعدو العبارة الاعجبية الأصلية فى ثوب ترجمتها العربية دون تصرف كبير . ولكن حينما نهضت الترجمة فى آخره على عهد المأمون بما أغدق من ذهب على المترجمين ، وجد فيهم الحذاق الذين أعادوا ما ترجم من قبل بعبارة صحيحة ترافق صحتها الجودة فى معظم الاحيان . وعلى هذا كانت العبارة فى العصر الثانى . أما فى الثالث حيث هضم المسلمون هذه العلوم وعمدوا إلى التأليف فيها بعد أن اختمرت معانيها فى نفوسهم فقد اقتربت لغة التأليف فى العلوم المترجمة من لغته فى العلوم الاسلامية الشرعية بل فى بعض علوم اللسان لأن التأليف حينذاك كان وضعا لا ترجمة ولهذا ظهر فيه تصحيح كثير من الاغلاط . غير أن هذا النهوض لم يستمر طويلا فى العصر الاخير الذى تسرب فيه من الفساد مثل ماتسرب الى العلوم الاسلامية ولكنه كان فى تعقيد المعانى شراً منه فى تكلف الالفاظ .

هذا ولايفوتنا أن نشير هنا الى ما استحدثه تدوين العلوم بتوعيها وخاصة الكونية فى اللغة من تأثير فى الالفاظ . فقد خرج كثير منها عن معانيه الاصلية الى معان اصطلاحية جديدة تراها منبثة فى جميع العلوم وهاأنت ذا تعرف طوائف منها فى العلوم الاسلامية شرعية

ولسانية، وهاك بعضها فى الكونية وخاصة الطب والفلسفة. فمن الطبية الكحالة والصيدلة والتشريح والجراحة والتوليد فى فنون الطب. والرطوبات والامزجة والاخلاط كالحار والبارد والجف واليابس والسوداء والصفراء فى مصطلحات هذه الفنون. والمسخن والمبرد والمرطب والمخفف والمسهل والمخدر وسائر مشتقاتها فى الادوية. والفسخ والرض والخلع والفتق والجبر فى الجراحة. والصداع والصرع والسرطان وغيرها كثير فى الامراض ومثلها ماجاء فى وصفها كالمزمنة والحادة والغب والربع وغيرها فى أوصاف الحمى مثلا. ومن الفلسفية القدم والحدوث والحركة والسكون وغيرها فى الكلام، والمريد والسالك والأنس والمشاهدة فى التصوف. وقد نقلت ألفاظ أعجمية كثيرة بتعريب أو على حالها فى أسمـــاء العقاقير والامراض والادوات والفلسفة. كالبقدونس والمصطكى من العقاقير اليونانية، والبابونج والزرنيخ من الفارسية، وكالقولنج والملنخوليا من الامراض اليونانية، والرسام والمارستان من الفارسية وكالاصطرلاب والانبيق من الادوات اليونانية، والبركار والاسطوانة من الفارسية. وكالهيولى والطلسم فى الفلسفة. الى غير ذلك مما زخر تياره حتى ألفت فيه كتب كالمعرب من الكلام الاعجمى لأبى منصور الجواليقى المتوفى سنه ٥٣٩. وقد جاوز التأثير الألفاظ الى الاساليب لتأثر المترجمين بلغاتهم الاصلية. فكثر استخدام فعل الكون. وأدخلت أل المعرفة على لا النافية، وزيدت الألف والنون قبل ياء المتكلم، كما زيد ضمير الغائب بين المبتدأ وخبره وصيغت كلمات من الاسم أو الضمير أو منهما معا كالكمية والهوية والماهية وكثر

استعمال الجمل المعترضة والفعل المجهول والألقاب وهكذا

مجالس العلم والمناظرة والمدارس

قد عرفت من عناية خلفاء المسلمين منذ الصدر الاول الى آخر العصر الاموى بالادب والشعر وماكان على عهودهم من علم، ما ذكرناه وسقنا الشواهد عليه فى كتابنا الثانى، كما عرفت أن دوره فيهما كانت المساجد. ولنعرف الآن أنها كانت فى العصر العباسى كما كانت فى سابقيه ولكن ضم فيه إلى الحرمين الشريفين والمسجد الاقصى والمسجد الاموى وجامعى البصرة والكوفة والمسجد العتيق بالفسطاط وغيرها، مساجد بغداد ومسجد أحمد بن طولون والازهر وجامع الحاكم وغيرها.

ولمازخر الأدب وفاض العلم منذ العصر العباسى الاول وولع خلفاؤه بهما ولعا شديدا، أكثروا استقدام العلماء الى مجالسهم وحاكاهم فى ذلك الامراء والوزراء فصارت تعقد تلك المجالس للمناظرات فى العلوم اللسانية والشرعية وتغدق العطايا على المتناظرين وكان هذا أكبر حث للادباء والعلماء على أن يهيئوا أنفسهم لتغذية هذه المجالس طمعا فى المال. قال أسامة بن معقل « كان السفاح راغبا فى الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وأيام العرب يدنى أهلها ويجزهم عليها فلم يبق شىء منها الا حفظته طلبا للقرب منه، وكان الهادى مغرما بالشعر يستخلص أهله فما تركت بيتا نادرا ولاشعرا فاخرا ولانسيبا سائرا إلا حفظته، ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب غير رغبة الملوك فى أهلها وصلاتهم عليها ». ولو بلغت حياة أسامة الرشيد

! حدث عنه أضعاف ما تحدث عن هؤلاء . ولما فاضت العلوم الكونية على عهد المأمون امتلأت مجالسه ومجالس غيره بالمناظرات فيها وبخاصة الفلسفة ولكن لم تكن المناظرة فى هذه العلوم الفلسفية على هدوء نظيرتها الادبية، فقد احتدم فيها النقاش واشتد الخلاف كما احتدم فيما يتصل بالفلسفة من علوم الدين كالكلام، بعض مسائل الفقه. وقد أشعل جذوة هذا الاحتدام إطلاق المأمون لحرية البحث وانغماسه فى أعقد مسائله كخلق القرآن الى الهامة وتشدده فى ذلك تشددا أوقع الناس فى الفتن والمحن طول عهده وعهد المعتصم والواثق من بعده ولم ينجهم منها إلا المتوكل الذى قضى على ما كان يخالطها من أذى يستبيح الدماء على أنه بقيت فى العصر الثانى الذى بدأه بهذا التسكين خلافات كانت تثور حينا وتهدأ حينا بين الحنابلة المتشددين وأبناء المذاهب الاخرى المعتدلين، فكانت المناظرات الدينية حية إزاء الادبية فيه. ثم جاء العصر الثالث فخلق خلافا صحبه من المناظرات الدينية بين الشيعة وغيرهم شيء كثير كاد يقضى على الادبية لولا شغف رجال الدويلات بالادب. وقد أدالت الايام فى العصر الرابع للسنة من الشيعة بما كان من قيام السلاجقة والايوبيين فحيى للسنة فيه مثل ما كان للشيعة فى سابقه ولكن مع خمول المناظرات فى الادب وسائر العلوم.

وإليك مناظرتين قصيرتين من النوعين الادبى والعلمى أما النوع المذهبى والفلسفى فطويلان يمكن الرجوع فيهما الى ما كان من المأمون فى علويته وفى قوله بخلق القرآن

١ ـ حضر عند الرشيد الأصمعى والكسائى فسأل الرشيد عن بيت الراعى

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ... ودعا فلم أر مثله مخذولا

فقال الكسائى كان قد أحرم بالحج فضحك الأصمعى وتهانف فقال الرشيد ماعندك فقال والله ما أحرم بالحج ولا أراد أيضاً أنه دخل فى شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل فى شهر أو عام فقال الكسائى ماهو إلا هذا والا فما المعنى للاحرام قال الاصمعى نخبرنى عن قول عدى بن زيد

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يمتع بكفن

أى إحرام لكسرى فقال الرشيد فما المعنى قال يريد أن عثمان لم يأت شيئاً محرما يوجب تحليل دمه فقال الرشيد أنت ياأصمعى ما تطاق فى الشعر.

٢ـ وجاء عيسى بن عمر الثقفى مجلس أبى عمرو بن العلاء فقال ماشىء بلغنى عنك أنك تجيزه قال وماهو قال بلغنى أنك تجيز «ليس الطيب الا المسك» بالرفع فقال له أبو عمرو هيهات نمت وأدلج الناس ثم قال ليحيى بن المبارك وخلف الاحمر امضيا الى أبى مبدية فلقناه الرفع فانه يأبى وامضيا الى المنتجع بن نبهان فلقناه النصب فانه يأبى، فمضيا الى أبى مبدية فقال ما خطبكما قالا جئناك لنسألك عن شىء من كلام العرب قال هاتياه فقالا كيف تقول «ليس الطيب الا المسك» فقال أتأمرانى بالكذب على كبر سنى فأين الزعفران وأين الجاوى قال خلف «ليس الشراب الا العسل» قال فما تفعل سودان هجر مالهم غير التمر قال يحيى «ليس ملاك الامر الا طاعة الله» فقال هذا كلام لادخل فيه ليس ملاك الامر الا طاعة الله والعمل بها ونصب فلقناه الرفع فأبى. ثم جاءا إلى المنتجع فقالا له كيف تقول «ليس الطيب الا المسك» ونصبا فقال ليس الطيب الا المسك ورفع فجهدا به أن ينصب فلم ينصب. فرجعا الى أبى عمرو وعنده عيسى فأخبراه بما سمعا فأخرج عيسى خاتمه من يده فدفعه الى أبى عمرو وقال بهذا سدت الناس ياأبا عمرو

على هذا انقضى العصر الاول ثم مضى الثانى والثالث كذلك ومتلقى العلم المساجد والمجتمعات العامة فى مثل المربد، والمجالس الخاصة فى دور الخلفاء والعظماء، وفيها جميعا كانت تدور المناظرات دون أن يكون للعلماء أو الطلاب دور خاصة أو أرزاق مفروضة إنما كانت نفقة الطلاب على أهليهم ونفقة العلماء مما يحترفونه مع العلم أو يمنحونه من صلة نظير تأليف كتاب أو استفتاء فى موضوع مع غلبة التقشف فى المعيشة والزهد فى الدنيا على الجميع. ولكن ذلك لم يلبث أن أحدث فى الدروس اضطرابا وفى النفوس قلقا لكثرة من أصبحوا فى حاجة الى التعلم وقلة من بقوا يزاولون التعليم فما كاد يحل العصر الرابع حتى هال هذا الامر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى ووزير ابنه ملكشاه وكان فيه ميل الى العلم وأرخت له الايام فى الوزارة نحو ثلث قرن فشرع سنة ٤٥٧ فى تأسيس المدرسة النظامية نسبة اليه ببغداد فأتمها بعد سنتين وافتتحها فى حفل حافل بجميع الطبقات وولى أبا إسحق الشيرازى رياسة التدريس بها وفرض لأساتذتها وطلابها المرتبات فكانت أول مدرسة بالمعنى المعروف الآن فى الاسلام[1] ثم بني أخرى باسمها

«١» أنكر الحافظ الذهبي فى كتابه تاريخ الاسلام هذه الأولية لنظام الملك وذكر بعض مدارس فى نيسابور، منها البيهقية نسبة الى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠، والسعيدية التى أسسها فيها الأمير نصر أخو محمود الغزنوى واليه بها. على أن تاج الدين السبكى قد وفق بين الأمرين بقوله فى طبقاته « قد أدرت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب فيها — أى المدارس — المعاليم للطلبة فانه لم يصح لى أكان للمدارس قبله معاليم أم لا والظاهر أنه لم يكن لهم — أى الطلبة — معلوم »

فى نيسابور وعهد بها الى إمام الحرمين؛ فكان عمله هذا سنة حسنة اتبعه فيها ذوو الامر بجميع الاقاليم فأنشأ السلطان نور الدين صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ مدارس فى معظم بلاد الشام ، والسلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ مثلها فى القدس والاسكندرية والقاهرة . ومما كان يحبب اليهم وإلى خلفائهم هذا الانشاء: العمل على اكتساب قلوب العامة بتقريب العلماء وتعليم الفقراء ، ورغبة كثير من ذوى اليسار ببلاط السلاطين فى وقف أموالهم على سبل الخير وأهمها التعليم مع الابقاء على شىء من غلتها لبنيهم ليكسبوا بذلك الثواب على مافعلوا من الله ويضمنوا بقاء هذا الشىء بعيدا عما كان يحدث كثيرا من اغتصاب ، ثم التحزب لنصرة مذهب على آخر كما فعل صلاح الدين المذكور بأنشائه حين أبطل المذهب الشيعى من الازهر، مدرسة لكل مذهب من المذاهب الثلاثة الشافعى والمالكى والحنفى. وقد استمر عدد المدارس يتزايد كلما تعددت أسباب الانشاء حتى غصت بها المدن الكبرى وظهرت هذه الكثرة قبل انتهاء القرن السادس ـ ذكر ابن جبير فى رحلته أنه شاهد عشرين مدرسة فى دمشق وثلاثين فى بغداد ـ فكانت هذه الكثرة ملطفة للأحداث الخطيرة التى نزلت بالمسلمين منذ أواخر العصر العباسى وتعدته الى ما بعده من عصور ؟

السباعى بيومى

فهرس

تاريخ اللغة العربية فى العصر العباسى


Bibliotheca Alexandrina
0411395